

59

کتابی

شارلوت برونتی



چین ایس

الجزء الثاني

www.liilas.com/vb3
^ RAYAHEEN ^

APPROVED

النشر
المؤسسة العربية الحديثة
للتدوير والنشر والتوزيع
بمصر - القاهرة

محمود



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ :

من عجب أن الشقيقات الثلاث من أسرة «برونتى» تشابهن فى كل شيء تقريباً : تشابهن فى نبوغهن الأدبى ، وهزالهن البدنى ، وقصر أعمارهن ، كما تشابهن فى خلودهن بعد الموت ! .. وهكذا اقتصر اسم كل منهن برواية من روائع الأدب الإنسانى : وكان نصيب صغراهن « أن برونتى » من هذا الإنتاج رواية (أجنسى جراى) ، التى تروى قصة مربية للأطفال ، وإن كان نصيب هذه الرواية أقل من نصيب (جين إير) و (مرتفعات وذرنج) . أقول إنهن تشابهن فى ضعف صحتهن ، وقصر أعمارهن ، بل وفى إصابتهم بنفس المرض الذى قضى على ثلاثتهن بالتعاقب - وهو مرض السل أو التدرن الرئوى - فماتت به « شارلوت » فى سن التاسعة والثلاثين (١٨١٦ - ١٨٥٥) ، وماتت به « إميلى » فى سن الثلاثين (١٨١٨ - ١٨٤٨) .. ثم ماتت به « أن » فى سن التاسعة والعشرين (١٨٢٠ - ١٨٤٩) ! والواقع أن فواجع أسرة «برونتى» لا تنفك عند هذا الحد ، ولعل هذه الفواجع هى المسئولة عن الجلو القائم الذى تتسم به رواياتهن جميعاً . فقد كانت أسرة «برونتى» تتألف فى الأصل من ثمانية أفراد : الأب ، وهو قسيس كنيسة بجهة (هاروث) بالجلترا .. وزوجته ، ثم أطفالهما الستة ، وكانوا خمس بنات وولد . هم بالترتيب : ماريا ، و إليزابيث ، و شارلوت ، و برانويل (وهو الابن الذكر) ، ثم إميلى ، وأخيراً « أن » .

وكانت تفصل بين كل من الأطفال الستة والذى يليه نحو سنة واحدة فقط ، فلما ماتت الأم كانت ابنتها الكبرى «ماريا» فى سن السابعة ، والصغرى «أن» فى عامها الأول ! وهكذا صارت «ماريا» وهى بعد فى سن السابعة بمثابة الأم للمصغار الخمسة الآخرين ! وبعد أربع سنوات ألحق الأب ابنتيه الكبيرتين «ماريا» و«إليزابيث» بمدرسة داخلية - هى المدرسة الراهبة التى وصفتها «شارلوت» فى رواية (جين إير) باسم «الوود» .



چین ایسر

الجزء الثاني

www.lililal.com/vb3
ARAY HEENA

هكذا بدأت القصة

ملخص ما ورد في الجزء الأول

● كان أقصى ما تفتحت عليه عيناى - أنا (جين إير) - فى طفولتى هو أننى كنت وحيدة فى الحياة ، بلا أسرة ، ولا مال ، ولا جمال .. فقد مات والداى - أحدهما إثر الآخر ، فى مدى شهر واحد - وأنا بعد طفلة لا أكاد أعى شيئاً ، فكفلتى بعدهما خالى مسر (ريد) ، الذى كان يعيش فى رخاء ، فى قصر (جيتسهيد) ، ولكنه لم يلبث أن توفى وتركنى فى رعاية أرملة مسز (ريد) ..

ولم تكن حياتى فى قصر (جيتسهيد) نعيماً .. كان (جون) - ابن خالى - يجد متعة فى إيلذائى ، وكانت شقيقته (جورجيانا) و (إليزا) تتعاليان علىّ ، بينما حرصت أمهم مسز (ريد) على أن تعاقبنى بذنوبهم ، وأن تعمل على إذلالى .. كانت ترهقنى بالحرمان ، وتسومنى العذاب .. إلى أن أصبت بالمرض ذات مرة ، بعد أن حبستى أرملة خالى فى غرفة مهجورة ، رهية ، استبدى فيها الفرع ، ودفعتنى الحالة النفسية التى خلفنى فيها هذا الحادث ، إلى أن أروى للصيدلى - الذى عادنى وتوفى علاجى - كل ما كنت ألقيه من عنق مسز (ريد) وأولادها وخدمها .. وحاول الرجل الطيب أن يساعدنى فيتصل بأى أقارب لى كى يتقنوني من الحياة فى قصر (جيتسهيد) ، ولكنى لم أكن أعرف أحداً من أقارب أبى .. أجل ، لم أكن أعرف عنهم سوى ما كانت تذكره مسز (ريد) من أنهم فقراء ، وضيعون ..

ولم أكن من الشجاعة بحيث أشتري حريقاً بالفقر ... ومن ثم اقترح الصيقل على مسز (ريد) أن تلحقني بمدرسة داخلية . ووجدت السيدة في هذا الاقتراح وسيلة للتخلص مني ، فألحقتني بالفعل بمدرسة في (لووود) ، تبعد عن القصر بمئات الأميال .

على أنني ما لبثت أن علمت أن أرملة خالي لم تطوق عتقي بأي فضل ، إذ كانت المدرسة معهداً خيرياً لليتيمات ! .. وكان خير عزاء لي في حياتي الجديدة ، أن مالت ناظرة المدرسة - مس تيمبل - إلى : فراحت نغموني بعطفها ، وتشجعتني .

● وقضيت في المدرسة ثمان سنوات : ستاً منها كمتلميذة ، واثنين كمتعلمة .. وأتقنت في تلك الأثناء الغزف على (البيانو) ، والرسم ، كما أجدت اللغة الفرنسية ، ثم استبدت في الرغبة في مبارحة (لووود) بعد أن تزوجت نصيري (مس تيمبل) ، وغادرتها .. ومن ثم نشرت في إحدى الصحف إعلاناً أنشد العمل كمتعلمة ومربية لأطفال إحدى الأسرات .. وسرعان ما تلقت دعوة لأكون معلمة للمبتدئة دون العاشرة من العمر ، لقاء ثلاثين نجيناً في العام ..

وهكذا انتقلت إلى قصر «ثورنيلد» بالقرب من مدينة تدعى (ميلكوت) .. ولم يكن في القصر سوى سيده مسنة تدعى (مسز فيرفاكس) - عرفت فيما بعد أنها المشرفة على القصر ، وليست ربهته - وكانت تشرف أيضاً على رعاية تلميذتي (أديل فارنس) ، التي كانت في حوالى السابعة أو الثامنة من عمرها .. وكانت تحبها ، شاحبة ،

لطيفة ، ولدت في فرنسا ، وكفلها مسز (روشستر) - سيد القصر - فأحضرها إلى إنجلترا لتعيش في كنفه .

ولم تكن (أديل) تذكر عن أبيها شيئاً ، ولكنها كانت تذكر حنان أمها وعنايتها بأن تلقها - منذ طفولتها - الشعر والإلقاء والرقص : .. ولم ألق أنا بالا إلى والدي تلميذتي ، فقد علمت أنها ماتت .. أما سيد القصر ، فقد عرفت من أحاديث مسز فيرفاكس وأديل أنه كان سيئاً محترماً ، يملك معظم أراضي المنطقة ، ويعتبره مستأجرو هذه الأراضي مالكا عادلا متحرراً .. وكان كثير الأسفار والرحلات ، على شيء من الشلوة ، وصفته مسز فيرفاكس بقولها : « ليس من السهل وصف ذلك الشلوة ، وإن كنت تحسبته عندما تحدثني إليه ، فلا تدبرين أحوال يمزح أم يجد ، أحوال مسرور أو متساء .. قصارى القول أنه لا يتسنى لك أن تفهميه جيداً ! .. » ولم أحفل بذلك كثيراً ، فقد كان السيد متنياً ، وكان حذال مسز فيرفاكس ، وتعلق تلميذتي بي ، وأبهة القصر وفخامته وجمال المناظر المحيطة به .. كل هذه كانت تشغلني عن السيد الغائب !

● ولم يكن في القصر عذانا سوى مربية فرنسية جاءت مع أديل من أوروبا - وتدعى (صوفي) - وحوذي يدعى (جون) وزوجته ، وخادم لتنظيف الدار تدعى (لياه) .. ولم يكن هؤلاء ينامون في القصر وإنما كانوا يشغلون صفاً من الحجرات الصغيرة خلف القصر . وكان يحتم على القصر طابع غريب ، يبدو في أجلى صورة في الطابق

الثالث ، الذى كان مكثفاً يقطع من الأثاث عريقة في القسدم ، بل أثرية .. وأوحى إلى جوه بالأشباح ، فسألت مسز فيرفاكس عما إذا كانت تظهر في القصر أشباح ، فقالت : « لم أسمع عن وجود واحد منها .. ومع ذلك ، يقال إن أفراد أسرة روشستر كان يغلب عليهم - في الماضي - العنف ، ولعل هذا مر هندوثهم الآن في قبورهم ! وفيها كانت مسز فيرفاكس تطوف في حجرات هذا الطابق ، سمعت وسط المدوة الشامل ضحكة عجيبة .. ضحكة واضحة ، متكلفة ، كنيية ! .. وتكررت الضحكة في جلجلة صاخبة ، من وراء باب إحدى حجرات الطابق ، فقالت مسز فيرفاكس : « لعلها ضحكة الخادم جريس بول ! .. قاذى كثيراً ما أسمعها ترسل مثل هذه الضحكة إذا ما زارتها (ليام) وهي متصرفة إلى الحياكة في إحدى الغرف ! .. وأخذت الضحكة تتكرر بعد ذلك بشكل رهيب ، غير طبيعي ، تعقياً مهممة ! .. فصاحت مسز فيرفاكس : « جريس ! .. وما لبثت أن أقلبت من إحدى الغرف امرأة أربعة القوام ، بين الثلاثين والأربعين من عمرها ، حمراء الشعر ، جامدة الأسارير ، أقرب إلى أن تكون شيئاً غريباً ! .. وأخذت مسز فيرفاكس تؤنبها على الضحك ، فاستنجت أنها الخادم الغريبة الأطوار !

وأصبحت أسمع - في خلواقي - هذه الضحكة الغريبة ، الرهيبة ، لجلجل ، ثم تعقياً مغممة شاذة : « وكنت أرى (جريس) - في بعض الأحيان - تغادر غرفتها وهي تحمل حوضاً أو حصناً أو صينية ، تهبط بها إلى المطبخ ، ثم تعود حاملة وعاء مليئاً بالمطعام .. وكان مظهرها

بخالف تصرفاتها الصوتية الشاذة ، فقد كانت قماتها الحادة تم عن رصانة .. وكثيراً ما حاولت استدراجها إلى الحديث ، فكانت تبدى زهداً فيه ، وتجنب باقتضاب يقطع على المرء أى أمل !

● وفي عصر أحد أيام شهر يناير - وكنت قد قضيت ثلاثة أشهر في القصر - خرجت أسعى على قدمي إلى قرية (هاى) التي كانت تبعد بمسافة لا تتجاوز ميلين .. وعندما بلغت طريقاً ضيقاً على سفح التل المفضي إلى القرية ، استبدتني الخوف ، إذ فوجئت بكلب ضخم يبرز من بين الأحراش .. ثم أعقبه سيد على ظهر جواد .. ولكن الجواد لم يلبث أن اتزلق على الصخور المكسوة بالجليد ، فوقع الفارس والتوت قدمه ، وخلفت إلى مساعدته ، فقبل المساعدة في جفاء وخشونة .. وكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، أسمر البشرة ، ذا قمات جادة وحاجبين غريزين بلقيان فوق عينيه .

● ثم انطلق الفارس في طريقه ، بينما تابعت سيرى إلى القرية التي كنت أقصدها .. وعندما عدت إلى القصر وقد هبط الليل ، وجدت حجرة المائدة الكبيرة مضاعة ، والنيران تلتفي في مدفئتها .. وعلمت أن مستر (روشستر) سيد القصر قد عاد : وأنه أرسل في استدعاء طبيب لأن جواده قد اتزلق به في الطريق فالتوت قدمه !

والآن ، تستطيع أن تتابع قراءة هذه القصة الرائعة !

الفصل الثالث عشر

● أوى مستر روشستر إلى فراشه مبكراً فى تلك الليلة بأمر الطيب — فى الغالب — كما أنه لم يستيقظ مبكراً فى الصباح التالى .. ولم يهبط من الطابق العلوى إلا لياشر أعماله ، لأن وكيله وبعض مستأجرى أرضه كانوا قد وصلوا وراحوا ينتظرونه ليتحدثوا إليه . واضطرت أنا و (أديل) إلى أن نغلى حجرة المكتبة ، لأن الحاجة كانت تدعو إلى استعمالها كغرفة لاستقبال الزوار ، ومن ثم أشعلت ناراً فى حجرة أخرى بالطابق العلوى حملت إليها كتبنا ، وأعدتها لتكون فى المستقبل غرفة للدراسة . وتبينت خلال الصباح أن قصر (نورفيلد هول) قد أصبح شيئاً آخر مغايراً لما كان عليه من قبل .. فلم يعد ساكناً سكoon الكنيسة ، بل كانت تتردد فى أرجائه — كل ساعة أو اثنتين — طرقات على أحد الأبواب أو رفين من أحد الأجراس ثم كثرت الأقدام التى تذرع البهو ، وارتفعت فى الطابق الأعلى أصوات جديدة متباينة الإيقاع ، وكأن نهراً من العالم الخارجى قد فاض خلال القصر بعد أن عاد إليه سيده ! .. على أنى ابتهجت من ناحيتى لذلك ! أما (أديل) فلم يكن من السهل تلقينها الدرس فى ذلك اليوم ، إذ أنها لم تقو على المواظبة عليه ، بل ظلت تجرى إلى الباب وتطل من أعلى (الدرابزين) ترى هل تستطيع النظرفبنظرة خاطفة إلى مستر روشستر ! .. ثم أخذت تنتحل المعاذير للهبوط إلى الطابق الأسفل لتسعى — فيما حسبت — إلى المكتبة ، حيث لم يكن أحد فى حاجة إليها ! .. وكنت ، إذا تولانى بعض الغضب وأكرهتها على الجلوس والإنصات للدرس ،

أجدها تحول إلى الحديث بلا انقطاع عن « عزيزها مسيو إدوار فيرفاكس دى روشستر » ، كما كانت تلقى سيد القصر ! - ولم أكن قد سمعت بالقائه هذه من قبل - كما مضت تحدث آية هدايا جاء بها ، بعد أن قال في الليلة الماضية إن بين متاعه القادم من (ميلكوت) حقيبة صغيرة ستجد في بعض محتوياتها ما يهمها . وأخذت تقول بالفرنسية : « معنى ذلك أن الصندوق يضم هدية لي ، وربما لك كذلك يا آنسة .. فقد تحدث السيد عنك ، وصاتني عن أمي (معلقي) ، وعما إذا كانت صغيرة الجسم ناعلة ، شاحبة بعض الشيء .. فرددت عليه بالإيجاب ، لأن هذا هو الواقع . أليس كذلك يا آنسة ؟ »

وتغلبت مع تلميذتي كالعادة في حجرة مسز فيرفاكس .. وجاء العصر عاصفاً كثير الثلوج ، فقضيتاه في حجرة الدراسة .. حتى إذا هبط الظلام ، سمحت لأدبيل بأن تقضي كتبها وتكف عن عملها ، لتسافر بالخيوط إلى الطابق الأرضي .. بعد أن حدثت من السكون النفسي الذي ساد ، ومن انقطاع رنين الجرس ، أن مسز (روشستر) قد فرغ من زوارها . ووجدتني أغلقت إلى نفسي ، فضربت إلى الثالثة ، غير أنني لم أستطع رؤية شيء خلالها ، لأن الغسق وندف الثلج ، تضامرا معاً على زيادة كثافة الهواء وإخفاء شجيرات المروج .. فأثارت الستار ، وعادت إلى جانب المدفأة ، ورحلت أترسم في جذوات النار المتوهجة منظرأ يشبه صورة أذكر أنني رأيتهما لقاعة (هيدلبرج) على ضفاف (الراين) .. وما لبثت مسز فيرفاكس أن قدمت لتقطع بدخولها حبل تصوراتى ، وتبدد الحواطر الثقيلة التي بدأت تنزاح على

في وحشتي . وقالت : « مسز مسز روشستر أن تتناولى وتلميذاتك الشاي معه في حجرة الاستقبال هذا المساء ، فقد شغلته أعماله طوال النهار عن طلب مقابلتك قبل الآن » .. فسألتها : « ومتى يتناول الشاي ؟ » - في السادسة ، فهو يراعى التفكير في الريف . ويجعل بك أن تغيري ثوبك الآن ، وسأذهب معك لأعاونك .. ها هي ذى الشمعة . - وهل من الضروري أن أغير ثوبي ؟

- نعم .. يحسن ذلك ، فإني أترين دائماً في المساء متى كان مسز روشستر هنا !

وبدأت في هذا الحرص على المظاهر ضرباً من الأبهة والتخففة ، فلهبت إلى حجرتي واستبدلت بثوبي - بمعاونة مسز فيرفاكس - ثوباً من الحرير الأسود كان خير ما أملاك ، فيا عدا ثوب رمادي كنت - فيما خرجت عليه من آراء في الزينة عندما كنت في (لودوود) - أرى أنه أبديع من أن أرتديه في غير المناسبات الفريدة !

وقالت مسز فيرفاكس : « أنت في حاجة إلى بروش » .. وكان لدى ديبوس واحد ذو رصيفة (بروش) ، كانت مسز تحب قد متحتني إياه ككندكار . عندما افترقا . ومن ثم تزييت وبعثنا النرج . وما كنت غير معادة على مقابلة الأعراب ، فقد بدا استدعائي - بهذا الشكل الرمحي - إلى حضرة مسز روشستر ، بمثابة امتحان لي . ولذلك تركت مسز فيرفاكس تتقدمني إلى حجرة المائدة ، ولازمت ظلها إلى أن اجتازنا تلك الحجرة ، ثم مررنا تحت القوس المسدلة الستائر ، ودلفنا إلى الحجرة الأنيقة التي كانت خلقها . وكانت نمة ضعنان على المائدة ،

وأخريان على المدافاة ، وقد رقد (بايلوت) - الكلب - يصطلى في ضياء الموقد وحراوته ، وإلى جانبه ركت أدبل . وكان مستر رويستر مضطجعاً على أركبة ، وقد بسط قدميه على وسادة ، وراح يتأمل أدبل والكلب ، ووهج النار ينعكس على وجهه . وتنبئت فيه نفس المسافر الذي صادفته في الطريق ! .. عرفته بجاذبيه البارزين ، وجبينه العريض ، الذي ضاعف من عرضه شعره الأسود المنسق إلى الخلف . كما ميزته بأفنه الذي كان ينم عن خلق حامي أكثر مما كان ينطق بالجلال ! وبقمه وذقنه وفكه ، وكلها تدل على الصلابة .. أجل ، كانت هذه السمات الثلاث جرد منجهمه بلا ريب . أما قوامه ، فقد رأيته - بعد أن خلع معطفه - منسجماً مع سمات وجهه .. كان قواماً رياضياً ، عريض الصدر ، نحيل الخصر ، ولكنه لم يكن فارغ الطول أو مشوقاً .

ولا شك أن مسرر وروشتر قد فطن إلى دخول مسر فيرقاس ودخول ، ولكنه لم يكن متريثاً للنظر إليها - على ما بدا - لأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه . وقالت مسر فيرقاس بطريقها الفادئة : « ها هي ذى الآتمة إير ياسيدى .. » وعندئذ أخفى السيد رأسه - دون أن يرفع عينيه عن الكلب والطفلة - وقال : « ذى الآتمة تجلس » .

وكان في اخناتون وأمه المتشككة الجافة ، وفي اللهجة الرسمية النافذة
النصير ، ما ينطق برغبته في القول : « ما الذى يعينى باق من وجود
الآس إلى أو علمه ؟ » لست الآن راغياً في التحدث إليها .

وجلست دون أن يساورني شيء من الارتباك ، بل لعلي كنت أرتبك لو أنه استقبلني بأدب جم ، فما كنت إذ ذاك لأعرف كيف أردد

عليه ، في تالطف ولباقة . أما هذا الجفاء القطع ، فلم يكن يفرض على أن التزم مسلماً متكلماً ، بل إن الأمر كان على النقيض : إذ أتاح لي الصمت والارتباك فرصة مواتية . فقد كانت البداية الشاذة مثيرة ، فرغبت في أن أرى كيف سيخضع السيد في مسلكه !

وظل في جاسته كاختلال ، لا يتكلم ولا يتحرك . ويبدو أن مسر
فير فاكس رأته أن من الواجب أن يكون أحدنا ظرفياً ؛ فبدأت تتحدث
حديثاً ورفيقاً كالعادة ، مبتدئاً بكثرة استعماله كالعادة ، فراحته تبدى
إشفاقها عليه من كثرة أعماله التي استغرقت النهار بأكمله ، ومن الآلام
التي كانت تسببها له قلمه الملتوية ، ثم أخذت تنق على صبره ومثابرتة ،
يبد أنها لم تنق جزاء على ذلك سوى قوله : إني أرغب بإسنادك في
تناول الشاي .. فأسرعت تدق الجرس ، ولما جاءت الصبيانة ،
أخذت ترتب الأقداح والملاعق وغيرها ، بجد ورشاقة . بينما مضيت
أنا وأديل إلى المائدة . ولكن السيد لم يغادر مكانه .

وقالت لي مرس فيرفاكس : « أرجو أن تغدئ لسر رويشتر
فدحه ، خشية أن تريقه أميل .. ففعلت ما طلبته .. وفيما كان يتناول
القدح من بنى ، رأته أذيل الفرصة مواتية لخدمتي فصاحت : « أليست
هناك هدية للأتمة إمر في حقيقتك الصغيرة ياسيدي ؟ » ، فأجاب بخشونة
وفظاظلة : « من هذا الذى يتحدث عن الهدايا ؟ أكنت تتوقعين هدية
بأس إمر ؟ هل أنت مغرمة بالهدايا ؟ » .

وراح يتأمل وجهي بعينين - رأيتهما - سوداوين غاضبتين
نفذتني .. وقلت : ه لا أعرف تماماً ياسدي ، فلان خيرتي بالهدايا

ضئيلة ، ولكنها تعد بصفة عامة من الأشياء الشائقة ! » .

— تعد بصفة عامة ! وماذا تعديها أنت ؟

— لأنني في حاجة إلى بعض الوقت قبل أن أعطيك جواباً متقبلاً :
إن للهدية وجوهاً كثيرة ، ليس كذلك ؟ وعلى الإنسان أن يدرسها
كلها قبل أن يدلي برأيه في ماهيتها !

— إنك لست ساذجة نزقة مثل أدبل التي تطالب في ضجة وحض
بالمدايا بمجرد أن تراقى ، ولكذك تجسبن النبس أولاً !

— لأنني أقل من أدبل ثقة باستحقاقى ، لذلك فهي تفضلى بمعرفتها
السابقة بك ، وبحقها عليك ، ثم يحكم العادة .. إذ تقول إنك اعتدت
دائماً أن تعطيلها لعباً .. أما أنا فقد يتولانى الارتياك لأننى غريبة ، ولأننى
لم أفعل ما يؤهلنى لثرب المكافأة !

— أوه .. لا تبالغى فى الأدب والتواضع . لقد اختبرت أدبل
ولمست ما غابته أنت معها .. لأنها ليست ذكية ، وليست موهوبة ،
ولكنها تقدمت في فترة وجيزة تقدماً محسوساً .

— إنك ياسيدى بهذا قد قدمت لى هديتى ، وإنى لشاكرة لأن أهدى
ما يسعى إليه المعلمون هو إطراء تقدم تلاميذهم !
فشرب الشاي في صحت ، حتى إذا رفعت الصينية قال : « اقتربنى
من الموقد ! » :

● وكانت مسز فيرفاكس قد التزمت ركناً ، وانهمكت في أشغال
الإبرة ، بينما كانت أدبل تمسك بيدي وتطوف في الحجرة لتفرجن على

الكتب الجميلة والزخارف التي تعلو المتأضد . وصدعت بالأمر :
وأرادت أدبل أن تجلس على ركبتى ، ولكنهم أمرها بأن تلتهى مع
(بابلوت) ، ثم سألتى : « هل أقت فى متولى ثلاثة أشهر ؟ » :

— نعم ياسيدى .

— وجشت من .. ؟

— من مدرسة (لودود) في مقاطعة ...

— آه .. مؤسسة خيرية .. كم قضيت هناك ؟

— ثمانى سنوات .

— ثمانى سنوات ! لا يلد أنك متشبثة بالحياة : كنت أحسب أن
نصف هذه المدة كاف للفضاء على أية بنية ، فلا عجب أن تكونى
كمن يعيش في عالم آخر غير عالمنا . ولقد تساملت من أين لك هذا الوجه
— عندما شاهدتك في طريق هاى في الليلة الماضية — ووجدتني أفكر
في القصص الخرافية ، وكنت أسألك هل سحرت لى جوادى ؟ وإن
كنت ما تزال في ريب من ذلك . من هم أمك ؟

— ليس لى أحد !

— وأحسب أن لم يكن لك أحد من قبل .. أتذكرين والديك !

— كلا .

— هذا ما حدثت . ولذلك كنت تنتظرين قولك عندما رأيتك

تجلسين فوق حجر ناصية الدرب .

— أنتظر من ياسيدى ؟

— ذوى الثياب الخضراء ! كان ضوء القمر مناسباً في ذلك المساء

لظهورهم ١ ترى هل اخترت أنا أحد العلام التي كنت تترينها فوق ذلك الجليل اللعين على الجسر ؟

فبرزت وأني وقلت متظاهرة مثله بالجد : « إن قوى الباب الضعفاء قد هجروا إنجلترا منذ مائة سنة ، ولن تجد أثراً لهم في طريق (هائي) ولا فيما حوله من حقول ، كما اعتقد أن الفهر - سواء في الصيف أو الشتاء أو موسم الحصاد - سيضيق ضياءه مرة أخرى على حقولهم الصاخبة وقصصهم المرح ، الذي ورد في الأساطير .. فتركت مسر فبرفاكس الشغل الذي كانت تطوره ، ورفعت حاجبها ، وكأنها تسأل أي نوع من الحديث هذا ، واسترسل مسر روشستر بقول : « حسناً .. إذا كنت بلا والدين ، فلابد أن لك أقارب : أعمام أو عمات .. »

— كلا .. لم أر واحداً منهم !

— ومثلك ؟

— ليس لي مثل ١

— وأين يعيش إخوتك وأخواتك ؟

— لا إخوة لي ولا أخوات !

— من زكى يجيبك إلى هنا ؟

— نشرت إعلاناً ردت عليه مسر فبرفاكس !

فالت السيدة الطيبة التي عرفت الآن موضوع حديثنا : « نعم ، وأنا أعدد الله في كل يوم على أن وفئتي العناية إلى هذا الاختيار ، لأن الآتية لير غدت لي رفيقة لا سبيل إلى تقدير قيمتها ، ومعلقة شقيقة شديدة العناية بأدب .. فرد مسر روشستر قائلاً : « لا تنجي نفسك في

امتداح أخلافها ، فإن الله لا يمتدح على الخرافة ، وسوف أحكم عليك بنفسى بعد أن بدأت بإسقاط جوادى ..

فنهفت مسر فبرفاكس مشدودة : « سيدى ! »

— ويجب أن أشكرها على هذا الانواء !

فجلت الحيرة على الأرملة ، ولكنه أسترسل يسألنى : « هل عشت من قبل في إحدى المدن يا آنسة ؟ »

— كلا يا سيدى .

— وهل اختلطت كثيرًا بالجميع ؟

— لم أخطط بغير التلميذات والمعلمات في (لووود) .. ثم بأهل (ثورفيلد) !

— هل قرأت كثيراً ؟

— لم أقرأ سوى ما صادفت في حياتي المحدودة - من الكتب :

وهي ليست متعددة ، ولا تحتوي جانباً كبيراً من الثقافة !

— لقد عشت مثل حياة الراهبة ، فانت بلا رب ذات نخوة

واسعة بأسود الدين . إن (بروكليرست) - الذي يدبر (لووود) قبحاً اعتقد - قسيس أو راعى كنيسة . أليس كذلك ؟

— نعم يا سيدى :

— إذن فعلت البنت كمن بعده ، كما يعبد الدين الزاخر بالمقديرات

مدبرة ؟

— أوه : كلا !

— بالث من باردة الطبع ! كيف لا تعبد راحة قيسها ؟ إن هذا يبدو نوعاً من التجديف !!

— لقد كنت أكره مستر بروكلهيرست ، ولم أكن الوحيدة التي يساورها هذا الإحساس ، لأنه رجل فظ ، مغرور ومنطلق معاً .. أمر بعض شعرنا ، وبدافع من الانقياد اشترى لنا إبراً وخيطاً يتعلم الحياكة والتطريز بها .

وعادت مسز فيرفاكس تستولي على دقة الحديث ، قائلة : « كان اقتصاداً زائفاً ! » .. فتسأل مسز روشستر : « هل هذا كل ما احتسبنا عليه ؟ »

— لقد ضررنا جوعاً عندما كان يتولى الإشراف على شئون القوم قبل تأليف اللجنة . كما كان يضايقنا بمخاضاته العلوية في كل أسبوع ، وبقرارات مسائية في كتب من تأليفه ، عن الموت القاجي والتضام ، مما كان يجعلنا نخشى الذهاب إلى أسرتنا !

— كم كان عمرك عندما ذهبت إلى لووود ؟

— نحو عشرة أعوام .

— وقد مكثت هناك ثمان سنوات ، فأنت الآن إذن في الثامنة

عشرة ؟

فرددت بالإيجاب . وإذا ذلك ، قال : « هاتذي ترين فائدة الحساب فلولاها ما استطعت تقدير منك ، لأنه يصعب أن يقطع الإنسان بما إذا كانت سمات الوجه والأسارير لا تتفق مع حقيقة السن كما هو الحال معك . والآن .. ماذا تعلمت في (لووود) ؟ هل تستطيعين العزف ؟ »

— قليلاً ..

— بالطبع .. هذا هو الرد الأكيد ! أذهبي إلى المكتبة .. أعتني إذا سمحت !! ومعلومة على فحني الأمرة : « لأنني اعتدت أن أقول « أفعل هذا » : فإذا هو مفعول !.. أذهبي إلى المكتبة .. وأخذي شجرة معك .. واتركي الباب مفتوحاً .. ثم اجلسي إلى البيانو واغزفي لحناً .

فذهبت إطاعة لأوامره ولكنه ما لبث بعد دقائق أن صباح : « كفى ! إنك تعزفين كأية تلميذة إنجليزية . وقد تكونين أكثر إجادة من غيرك ولكنه عزف أقل مما ينبغي » .. فأغلقت البيانو .. وأظلمت راحة ، فاستمرى يقول : « إن أدبل أرثي صباح اليوم بعض رسومات خطيطة قالت إنها من رسحك ، وإن كنت لا أفهم إذا كانت كلها من عمك أو أن أسأفاً ساعدك فيها ؟ » .. فاعتبرت قائلة : « كلا ، إنما في الواقع من علي ! »

— آه ، هذا بمن كبرياءك !.. إذن ، أرى ما عندك إذا كنت تصرين على أنه من رسحك حقاً ، ولكن لا تقسمي إلا إذا كنت متأكدة ، لأنني أستطيع أن أميز من الأعمال ما هو زائف أو متحل .

— إذن فلن أقول شيئاً حتى تحكم بنفسك ياسيدي !

وأحضرت حافظتي من المكتبة ، فقال : « قرني المتضادة ! » .. فدفعتها إلى مكتبته . واقتربت أدبل ومسز فيرفاكس لمشاهدة الصور ، فقال : « لا أريد تراها » .. هذا الرسومات من يدي مني قرغت منها ، ولكن لا تدعها وجهي كما نحو وجهي ! .. وأخذت يظيل النظر والنعم في كل رسم ، ثم وضع ثلاثة منها جانباً ، حتى إذا انتهى من فحص

الرسم الأخرى : طوح بها بعيداً عنه وقال : « احلبها بالعمز فيرفاكنس
إلى المضدة الأخرى : وتطلعي أنت وأديل إليها »

وبعد ذلك رنا إلى : ثم استطرده قائلا : « دعوى إلى مقعدك والسجى
عن أسئلتى : أرى أن تلك الصور رمتها يد واحدة .. فهل هي يديك ؟ ..
قلت : نعم !

— ومتى وجدت وقتاً لرميها ؟ فقد استغرقت وقتاً طويلاً وبعض
الشكوى !

— رمتها أثناء الأجازات الأخرتين في (لوبيود) عندما لم يكن
لدى عمل آخر :

— ومن أين جئت بالناذج ؟

— من رأسي !

— هذا الرأس الذى أراه الآن بين كضيك ؟

— نعم بإميدى !

— وهل به رياش من الطراز الذى رمتها في الصور الأخرى ؟

— أظن ذلك .. بل أرجو أن يكون به ما هو خير من ذلك وأبدع !

فبسط الصور أمامه وراح يتفحصها عدة مرات ، وفيها هو منهمك
في ذلك ، ساخِر الفارئ بما كانت تحويه . ويحب أولاً أن أستهل بابها
لم تكن رائعة جمال ، وأن موضوعاتها نبئت زاهية في رأسي ، وكانت
عندما رأيتها بعين الخيال .. قيل أن أجسمها — أخاذة رائعة ، غير أن
بلى لم تقو على معاونة خيالى ، فجاءت صورة باهية لما تحتته من قبل ! ..

وكانت الصور الثلاث مرسومة بالألوان المائية ، وتخل أولاهها

شعباً قرية زرقاء تتدرج فوق بحر خضم ، وقد ظهرت نهاية الصورة من
بعيد — كقدمها القريب — غارقة في الظلام والأمواج ، إذ أن الصورة
كانت خالية تماماً من كل أرض ، ولم يكن يهتك ذلك الظلام سوى خيط
من الضياء يكشف عن شراع غارق نصفه ، وقد جثم عليه عراب من
غروب البحر يحمله الداكن وجناحيه المرصعين بالزبد ، بينما أمسك
بمظاهرة سواراً من ذهب تزينة أحجار كريمة استعت في رمتها بكل
ما كان لدى من ألوان ، وحلوت تألقها بكل ما في قلبي الرصاص من
قوة ! .. ولعت العطار والشراع — بين المياه الخضراء — طفت جثة
غارقة لا يظهر منها سوى المزعج التى سقط منها السوار !

أما الصورة الثانية ، فكان جزؤها الأمامى لا يحوى سوى قمة قل
معم ، تكسوه حشائش وأوراق مالت مع النسيم ، وعلى مبعده من الخ
وفوق حلقته ، تليط سماء واسعة زرقاء بضوء الفسق ، بينما ترتفع نحو
السماء صورة نصفية لامرأة يائلى على جيبتها نجم ، وتبدو قسائما شاحبة ،
وكأنها معلقة بضباب من البخار : عينان سوداوان تألفان ، وشعر
ينساب كالظلال ، أو كشحابة قائمة مزقتها يد الأنواء أو مسها كهيولاء ،
وعنق يتعكس عليه ضياء باهت كتور القمر !

أما الصورة الثالثة ، فكانت تمثل جبلا من جبال الثلج الشائعة ،
وهو يناطح السماء في شتاء المنطقة القطبية ، كما تثل حشداً من أهواء
الشياك شرعت رماحها الداكنة في الأفق إلى مسافات بعيدة ، بينما ظهر
في صدر الصورة رأس يمشد على يدين ، ويخطبه خار رفيق تظهر من
خلفه عين غائرة خالية من كل معنى سوى اليأس والقنوط .. وكانت

على الرأس علامة سوداء يثاق بين طبابتها هلال يرصمه شراو كخالع اللون ، يمثل في مجموعه تاجاً ١

وفجأة : سألتني مستر روشستر : هل كنت تشعرين بسعادة وأنت ترمين هذه الصور ؟

— كانت تستغرقني يا سيدى ، وكنت سعيدة بها ! وقبيلارى القول ، وجدت في رجليها أعظم أسباب السعادة التي عرفتها في حياتي !

— ليس في هذا القول مبالغة ، إذ يبدو أن أسباب سعادتك — كما يؤخذ من أقوالك — كانت عديدة ، ولكنني أظنك كنت تعيشين في عالم من أحلام الفنتازيا وأنت تترجبن وترتبين هذه الألوان العجيبة .. هل كنت تجلسين أمامها طويلاً في كل يوم ؟

— لم يكن لدى شيء آخر يشغلي ، لأنني كنت في عطلة ، فأخذت أجلس إليهما من الصباح حتى الظهر ، ثم من بعد الظهر حتى الليل . وكانت ملوك النهار في أيام الصيف معينة لي على إشباع ميولي .

— وهل ارتاحت نفسك نتيجة هذه الجهود الجبارة ؟

— كلا .. لم ترشح على الإطلاق ، إذ كان يعلمني القارق الكبير بين ما نرسم في ذهني ، وما تصنعه يدي . وكنت في كل مرة أنصوّر شيئاً لا أقوى على إبرازه :

— ليس هذا بالتعبير الضحيح ، فقد كنت متشككة من الفكرة التي راودت خيالك ، ولكنك لم تزلت من العلم والمهارة الفنية ما يجعل رسالتك صورة حية كاملة . ومع ذلك ، فإن هذه الصورة عجيبة بالنسبة للشعبنة ! : أما عن الأفكار ، فهي غريبة .. ولعلك شاهدت في

الحلم عيني المرأة السوداءين تألفان ، لأن الكوكب الذي يقضي الصورة ويعلمهما كضيق بأن يبدد تألفهما ! ثم ما معنى ظهور العين خائرة ؟ ومن الذي علمك تصوير الرياح حتى ترسمي رياحاً هرجاء عالية في السماء فوق قمم التلال ؟

وما كنت أحزم حافظة أرواق ، حتى تطلع إلى سماعته وقال في غلظة وانقصاب : « الساعة التاسعة ! كيف تترجبن أدبيل جالسة في انتظارك طوال هذا الوقت ؟ امض يساً إلى فراشها » .. فذهبت أدبيل تقبله قبل أن تغادر الحجرة ، واحتضن هو عجاظتها ، وإن لم يتذوقها بأكثر مما لو كان كليها (بابلوت) هو الذي فعل ذلك ! .. ثم أشار إلى الباب إشارة من ملي صهيئنا ورغب في إقصائنا ، وقال : « طابت ليلتك ! » فتناولت حقيقتي والحيثنا في أدب ، ولكنه رد علينا بإيماء جافة . وهكذا انسحبنا ، حتى إذا خلعت بيسر فيرا فاكس في حجرتنا بعد أن أمسكت أدبيل إلى فراشها ، قلت لها : « لقد أخبرني أن مستر روشستر ليس على جانب ملحوظ من الشذوذ .. »

— نعم .. أليس هو كذلك ؟

— أظنه غاية في القلب والفظاظة ؟

— هكذا يبدو للغريب عنه ، ولكنني تعودت طباعه ولم أجد أعجب منها قط ! ومع ذلك : إذا كان في طباعه شذوذ فيجب أن نتجاوز عنه !

— لماذا ؟

— لأن هذه طبيعته من جهة ، فليس لنا حول ولا قوة في ذلك ، ولأن

الديه من جهة أخرى ، أفكاراً مؤلمة تنكك عليه صفوه وتعذب روحه !

— أية أفكار ؟

— إن له متاعه العائلية .. من ناحية ١

— ولكنه بلا عائلة !؟

— ليست له أسرة الآن ، ولكن .. كان له بعض أقارب على

الأقل .. وقد فقد أشباه الأكبر منذ سنوات فترات .

— أشباه الأكبر ؟

— نعم ، فإن مستر روشستر الخالي لم يطل عهده بتولى شئون هذه الممتلكات ، إنما آلت إليه منذ حوالي سبع سنوات فقط .

— إن سبع سنوات مدة معقولة ، فهل كان شديد التعلق بأخيه بحيث يظل إلى الآن غير قادر على احتياجه ؟

— كلا .. ربما كلا ، فإني أعتقد أنه قد تشب بينهما سوء تفاهم نتيجة لأن مستر رولاند روشستر لم يكن متصفاً مع أخيه مستر إدوارد

وربما كان قد أوغر عليه صدر والده ، إذ كان السيد الكبير يحب المال ، كما كان رافياً في أن تظل أملاك الأسرة وحدة واحدة ، فلم يشأ أن يبددها

بالتقسيم ، ومع ذلك فإنه كان شديد الرغبة في أن يصيب مستر إدوارد ثروة ، هو الآخر ، ليحافظ على كرامة اسمه . ولكن ما أن بلغ مستر

إدوارد من الرشد ، حتى اتخذت بعض إجراءات لم تكن عادلة ، بل أزيلت به كثيراً من الثروة .. ثم اتحد مستر روشستر الكبير مع مستر

رولاند على أن يضمن إدوارد في مركز اعتبره هو مثلاً ، وإن كنت لا أدري إلى الآن طبيعة هذا المركز بالضبط ، ولكنه لم يشأ أن يصفح

عنه ، فقاطعت أسرته .. ومنذ ذلك الحين — منذ سنوات عديدة — وهو

يعيش حياة غير مستقرة ، ولا أحبه أقام في (نورفيلد) مرة لأكثر من أسبوعين كاملين ، لأن وفاة أخيه بلا وصية جعلته مالكا للمساكنة ، ولا عجب في الحقيقة إذا كان يعرض عن المكان القديم .

— ولماذا يعرض عنه ؟

— لعله يراه مقبضاً للنفس !

وكان الرد يتلوى على مراوغة : في حين أنني كنت أطمح في أن يكون أكثر صراحة ووضوحاً ، ولكن الظاهر أن مسز فيرفاكس لم تكن تلك ما يمكنها من الإفصاح ، أو أنها لم تشأ أن تاتي إلى معلومات أكثر صراحة عن أصل وطبيعة الشئ التي كان مستر روشستر يعيش فيها . وقد أكدت لي أن في الأمر سراً لم تكن تعلمه ، وإن ما تعرفه كان من باب الحسد والشك . وكان واضحاً جداً أنها ترعب في أن تسقط هذا الموضوع من حديثها ، ففعلت بناء على رغبتي !

الفصل الرابع عشر

● لم أر مستر روشستر في بضعة الأيام التالية إلا لماماً .. فقد كان يبدو في الصباح جده مشغول بأعماله ، أما بعد الظهر فكان بعض السادة من (ميلكوت) أو الشاع المجاورة يزورونه ويمسكون أحياناً حتى يتعشوا معه . وعندما تحسن التواء قنعه وبات في وسعه انتظار جواده ، راح يكثر من الخروج به ، ولعله كان يود هذه الزيارات ، لأنه لم يكن يعود إلا في ساعة متأخرة من الليل .

وفي تلك الأثناء ، كان ينتظر أن يدعوه أحداً — حتى أخيراً — إلى

حضرته ، كما أن مقابلاتي له لم تعد حدود اللقاء العابر في الودعة ،
أو على الدرج ، أو في القاعة الكبرى ، فكان يمر في أحياناً في تساعلم
وبرود دون أن يعبر وجودي أكثر من إعادة عن كتيب ، أو نظرة
فائرة ، أو التفتاة ، أو البسامة - في بعض الأحيان - كما يفعل السادة
إذا تلتفوا .. ولم تكن هذه الصغريات في مزاجه تكلم صغرى ، لأنني
لم أكن أرى انفسى يداً في تقلباتها ، بل كان مذهها وجزرها يرجعان
إلى أسباب لا تمت إلى بآية صلة !

وذات يوم ، دعا السيد جماعة للعشاء ، وأرسل في طلب حافظة
أوراق لكي يستعرض مخطوباتها بلا ريب ، ثم خرج السادة بعد ذلك
ميكرون لحضور اجتماع عام في (ميكروت) ، كما بلغني من مسر
فيرفاكس ، ولما كانت الليلة مطيرة قاسية ، فإن مسر روشستر لم
يخرج في رفقته ، فلما إن رحلوا ، حتى دق الجرس وجاءني دعوة
لكي أنزل مع أديل إلى الطابق الأرضي ، فستفت لها شعرها ومعدمت
ملابسها ، وبعد أن استوفت من أنني قد ارتديت ثوباً مناسباً لا يحتاج
إلى إصلاح .. ثوباً غاية في الاحتشام والبساطة ، نزلنا معاً ، وأديل
تتسامل إذا كان الصندوق الصغير قد جاء - أخيراً - بعد أن تأخر
حضوره بسبب بعض الأخطاء ١٤ .. وعندما دخلنا حجرة الطعام
أرضابها أن شاهدت علة من الورق المنوى على المائدة ، ويبدو أنها
أدركت أنها بغيتها بغريزتها ، إذ صاحت وهي تجري إلى المائدة :

« صندوق ! صندوق ! »

فقال مسر روشستر بضوئه العميق الساخر ، وهو مضطجع في

متعد كبير يجوار الموقد : « حذار أن تضايقي بأشئك عن تفاصيل
عملية تشريح النعمة أو عن حال أحشائها .. شرحها يتضك في صحت
والزنى السكون يا طفلي .. »

ويبدو أن (أديل) لم تكن في حاجة إلى هذا التحذير ، إذ سرعان
ما انسحبت بكترها إلى إحدى الأرائك ، وانهمكت في حل (الدوارة)
التي كانت تربط القطاء ، حتى إذا أزال ذلك العائق ورفعت بعض أغلفة
فضية من ورق (السلوفان) صاحت بالقمرنية : « آوه .. يا المساء !
كم هي جميلة .. » ولم تزد ، بل مكثت غارقة في تأملاتها الداهلة .
وعندئذ قال السيد وهو ينفض قليلاً عن مقعده ليتطلع إلى الباب الذي
كنت ما أزال واقفة بجانبه : « هل الأمسة لير هناك ؟ آه .. حسناً ،
تفدى .. اجلسي هنا ! .. » ثم جهر مقعلاً إلى جوار مقعده وقال :

— إنني لأحب ثمررة الأطفال ، فلما كانت عريق لا أمك
ذكريات سارة تشعل بينهم .. وما أراي أحتمل أن أقضي مساء برعته
أستمر مع طفل لا تبعدي عني بمقعدك يا مس (لور) ، بل اجلسي
حيث وضعته تماماً .. هكذا ، من فضلك .. ألا أفيحاً للسجالات
المكلفة ، فإني لا أفتأ أنساها ، ومن ثم فليست أروق للعجائز
الساذجات .. وبهذه المناسبة ، يجب أن أذكر عجوزي ، فلا يجعل
أن أغفلها ، لأنها من آل فيرفاكس ، أو بالأحرى كانت زوجة لواحد
منهم .. والدم ، كما يقال ، أشد كثافة من الماء !

ثم دق الجرس وأرسل يدعو مسر فيرفاكس ، فسرعان ما قدمت
وبيدها سلة أشغال الإبرة ، فقال لها : « طاب مساءك ياسيدي :

لقد أوملت أدموك لغرض غيري ، إذ أنني منعت أديل من أن تحبني عن هداياها ، ولذلك فهي مفعمة ، تكاد تنفجر ، تفضل بأن تكون مستعدة لها وكليمة ، وسكون هذا من أعظم الأعمال الخيرية التي قُلت بها في حياتك ! -

والواقع أن أديل لم تكذب ترى مزر غير فاكس ، حتى دعها إلى الأريكة ، ثم بادرت تملأها حجراً بحجرات الصدوق الخفيفة والعجيبة والشمعية ، كما راحت في الوقت نفسه تحفيظ بالشرح والإيضاح بقدر ما حكنتها درايها الكلية باللغة الإنجليزية .. بيتنا عداد المستر روشستر إلى خاطبي قايلاً :

- أما وقد قمت بدور المضيف الكريم ، إذ دبرت الوضع بحيث تسلي كل من الضيفتين زميلتها ، فإني في حل من أن أنصرف إلى ما فيه تسليتي .. قرني معك مسافة أخرى يا أخته لير .. فأنت ما زلت على منأى مني ، بحيث لا أستطيع أن أراك دون أن أعثر عن الوضع المريح في هذا المقعد ، وهو ما لا أعزم أن أفعله !

وصدعت بما أمر ، رغم أنني كنت أؤثر أن أظل في مجلسي ، متوارية بعض الشيء في الظلال .. علي أن مستر روشستر كان ذا طريقة في إلقاء الأوامر ، لا يبلو معها مقر من الإطاعة فوراً .. وكنا - كما قلت - في حجرة المائدة ، والأمر تغير المكان بفيض من النور يشرح النفس ، كما كانت نيران الموقد حراء متأنفة ، والستائر الأرجوانية تتدلى في ألفة أمام النافذة والنور المرتفع .. وكان السكون يمشي كل شيء ، لا يكاد يعكزه سوى حديث أديل الخافت - إذ لم تكن تغزو

على رفع صوتها - يتخلل فترات انصمت فيه وقع المطر وهو يصنع الألواح الزجاجية للنافذة .

● وبدأ مستر روشستر - في جلسته على المقعد المكسو بالدمقس - مختلفاً عما رأيته من قبل ، إذ كان أقل تجهماً ، وكانت على شفاهه ابتسامة ، وفي عينيه بريق يأنق ، بفعل الخمر أو بخيرها .. فليست اللفة من ذلك ، وإن كنت أراه جده محتمل !! وقصاري القول .. كان السيد بعد العشاء في حالة نفسية أكثر انشراحاً وابتهاجاً ، وأكثر تساهلاً مما كان عليه في الصباح من صرامة وجفاء . ومع ذلك ، فقد لاح على قدر غير قليل - نسيباً - من العبوس ، وهو يستد رأسه الضخم على ظهر مقعده المنخفض ، ويطلق وهج النيران على قممات كانتها قدت من صوان - وعينين كبيرتين سوداوين - إذ كانت عيناه واسعتين ، داكنتي السواد - بديعتين كذلك ، وإن لم تكونا تحلوان من بعض تغير يتراءى في أعماقهما أحياناً .. تغير إذا لم يكن لطيفاً ، فهو - على الأقل - يوحى إليك بالظلم !! وكان قد قضى دقيقتين يفرس في النار ، حين التفت إلى فجاء ، ووجد نظرائي عالقة بسحنته ، فقال : ه إنك تفحصيني يا مس لير .. أعترفتني جيلاً 19

وكان علياً في - لو أنني فكرت - أن أحجب عن هذا السؤال بعبارة مبهمة مهذبة ، تتمشى مع ما اصطلاح عليه الناس من عبارات ، ولكن الجواب انزلني من لساني بطريقة ما ، قيل أن أظن : « لا ياسيدي ! » فقال : آه .. لعبري !! إن قولك شيئاً غير

عادي ، فأنت تشبهين الزاهية الصغيرة في قرابة أطوارها ، وهندوها ،
ورزائها ، إذ تجلسين هكذا ، وبذلك مبسوطتان أمامك ، وعيناك
منكبتان عادة على البساط ، لا تفارقانه إلا عندما تصوبان إلى وجهي
نظرات نافذة ، كما فعلت منذ قليل ، مثلاً ! .. فإذا وجه أحد إليك
سؤالاً ، أو أبدى ملاحظة تضطرون إلى التعقيب عليها ، فقلت برد
يكون لأدعاً .. على الأقل .. إن لم يكن جافاً بارحاً .. ما الذي عتبته
برذك ! ؟

— لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغي يا سيدي ، فأنا تلك الملعونة ،
كان يجدر بي أن أجب بأنه ليس من السهل أن أصير جواباً مرغوباً
عن سؤال يخص المظهر والمثيرة ، وبأن الأذواق تتباين إلى حد كبير ،
وبأن الجمال لا يهم كثيراً .. أو ينشأ من هذا القبيل !

— بل ما كان ينبغي أن تجيب بذلك .. إن الجمال لا يهم كثيراً ،
بالفعل ! ولكنك تفرسين مطواة خيطة خلف أذني ، بدعوى التخفيف
من الإساءة السابقة ومحاولة تلطيف وقعها على نفسي ! .. ألا قول لي :
أي عيوب تجدونها في ، من فضلك ؟ .. انتهى فيما أعتقد مكتمل الأطراف
والقصبات ، كأي رجل آخر .. أليس كذلك ؟

— دعني أنكر ردي الأول يا مستر روشستر ، فما كنت أتوى
أي رد قاس ، ولكنها كانت زلة لسان فقط !
— هو ذلك ، على ما أرى ، ولكنك ستؤاخذين بهذه الزلة ،
فانتقديني : ألا يروق لك جيتي ؟

ورقم شعره المنسوج الذي كان متبدلاً على حاجبيه ، فكشف عن

جيتي تنطلق صفحته بالذكاء ، ولا يعنونه عيب سوى نقص ما يتم عن
الأريحية وجب الخمر ، واستطرد : « والآن يا سيدي .. هل أنا أبله ؟ »
— كلا ، على الإطلاق يا سيدي .. ولعلك ترميني بالمخاطلة إذا
سألتك بدوري : هل أنت عجب للإنسانية والخمر ؟

— أعدنا ثانية إلى .. وخزة أخرى من المطواة ، وأنت تنظرون
بأنك ترحبن رأسي ، فحيرد ما قلته من أنني لا أطيق معايشة الانقباض
والنساء العجائز ! (ولتخفف صوتنا هنا) .. كلا يا سيدي الصغيرة ..

لست محباً للبشر والإنسانية بصفة عامة ، ولكني أهل ضميراً بين جنبي
(وأشار إلى المكان الذي تنم عند كلماته) . هذا إلى أنه كان لي فيما مضى
قلب رقيق .. وكنت في شك ، إنساناً شديد الحساسية ، يعطف على
كل من لم يستكمل نضجه ، وكل من لا يبعد من يعوله ، وكل من
يغرته الخط : يد أن القدر عاداني منذ ذلك الوقت .. بل إنه طعنني
يديه ! وأتني لأطرى الآن نفسي على أن غلبت صلها جامداً ، ككرة
صماء من المطاط ، وإن كان ما يزال بهذه الكرة شق أو الثقب ، كما
توسطها نقطة حساسة ، فهل يتيح لي ذلك سيلاً إلى أمل أو رجاء ؟

— رجاء في أي شيء يا سيدي ! ؟

وقلت في نفسي : « لاشك أنه أمرط في احتشاء الخمر ! » ..
ولم أدر عيناذا ينبغي أن أورد على سؤاله العجيب هذا ، كما تساءلت كيف
أفعل بأنه قادر على أن يتحول أو يتبدل من جديد ! .. وعاد يقول :

— إن الحيرة البالغة تتجلى عليك يا آتسة إير ، ومع أنك لا تلقيني
بجمالاً ، إلا أن هذه الحيرة تلاطم مظهرك ، فضلاً عن أنها تريحني لأنها

تقصي عن عشي هاتين العيتين المشرقتين وتغلغلها عني بتأمل زهور
السجادة الصوفية !.. أمشي في حيرتك ، وثق ياسيدتي الصغيرة أنني
الليلة مبال إلى أن أكون أليفاً عبداً للاجتماع بالغير !

■ وما أن قال هذا حتى نهض من مقعده لوقوف ، ثم انكأ على ذراع
الموقد الرخامي ، فتجلت في وفته هذه حقيقة شكله ووجهه ، وصدره
المقروط في الاتساع إفرافاً لا ينسج مع طول أطرافه . ولا ريب عندي
في أن معظم الناس كانوا خليقين بأن يعبروه دعباً . على أنه كان في
هيبته ما يبع من كثير من الكبرياء غير المفتعلة ، وعن بسطة في الخلق ،
وعن عدم اكترات بمظهره ، مع اعتداد متعال بقوة فضائله الأخرى
— سواء أكانت ذاتية أو عرضية — مما كان يعرض ما يشتر إليه من
جاذبية المظهر الخارجي . ويجعل من يراه على أن يثق به ثقة عمياء ١٢
وعاد يكرر قوله : « إن في الليلة ميلا إلى أن أكون أليفاً عبداً
للاختلاط بالغير ، ولذلك أرسلت في طلبك ، لأنني لم أجد في الموقد
والتراب رفقة كافية .. ولا في (بابلوت) ، إذ أن أياً من هذه لا يستطيع
الكلام .. ومع أن أدبل أفضل من هؤلاء خوجة : إلا أنها ما زالت دون
الدوجة التي تصلح فيها للإنسان والسامرة : وكذلك مسز فيرفاكس ..
أما أنت ، فأنا مفتتح بأن في وسعك — إذا شئت — أن تكوني زميلة
مناسبة ، وإن جرتني في أمرك في أول ليلة دعوتك فيها للزول إلى
هنا ، ولقد تسببتك عاماً بعد ذلك ، لأن رأيي ازدحم بأفكار أخرى
أفصلتك بعيداً ، ولكني أعترم الليلة أن أبيع نفسي فأبعد عما يضايقي

من أفكار وأجلب منها ما يسري .. والآن .. يعني أن أستدرجك
لأردادك معرفة ، فتكلمي ١٣ .

وبدلاً من أن أتكلم ، أبسعت ، وإن لم تكن ابتسامة بشوش
أو مستسلمة .. فراح يستعجني : « تكلمي ١٤ »
— فم ياسيدتي ؟

— فيها يعجبك ، فشاركك لك اختيار الموضوع وطريقة معالجته .
ولكني لم أتبس بعرف ، بل قلت أحدث نفسي : « إذا كان يتوقع
أن أتكلم لحد الكلام والنظام ، فسوف يكشف أنه قد أخطأ
الاعتبار ! »

— هل أنت بكاه يا مسز ١٥ ؟

فظلمت بكاه ، وعندئذ مال برأسه نحوى قليلاً ، وغاص في عيني
بنظرة عاجلة ثم قال : « عبيدة ١٦ .. ومتضايقة ؟ .. هذا في موضعه ،
لأنني ألفت طلي عليك بطريقة خفيفة تكاد تكون وقحة ، فأسألك
المعذرة يا مسز ١٧ . والواقع أنني لا أرغب بحال في أن أعاملك معاملة
من هم دوني منزلة .. (ثم قال مصححاً) : أعني أنني لا أدعي لنفسني
عليك تفوقاً ، إلا ما تحمته عشرون عاماً تفصل بين عمرنا ، وقرن من
الزمن أسبقك به في الخبرة : وهذا حق مشروع أتحمس به — كما تقول
أدبل بفرستينا — ويحق هذا التفوق وحده أرغب في أن تتكلمي
بالخلف معي الآن قليلاً ، وأن تحولي أفكارني التي يفسدها ارتكازها
على نقطة واحدة : فهي تتأكل كالسوار الصديء ١٨ . »

ولقد أراد بهذا الشرع أن يكون أشبه باعتذار ، ولكني لم أدع

هذه التنازل يستحقني ، ولو غرد الظاهر : قلت : « يردى أن أسليك يا سيدى ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، ولكن ليس في وسعى أن أقدم موضوع الحديث ، إذ كيف لي أن أعرف ما يسرك ؟ سئلى ما تشاء وما يملك قصارى للرد » .

— إذن أخبرينى أولا : هل توافقينى على أن لي الحق في شيء من السيادة ، والشفاعة — وربما التدقيق — للاعتبارات التى ذكرتها ؟
أخى أنى في سن ولذلك وأنتى خضعت تجارب من كل لون ، مع رجال من مختلف الشعوب ، وأنتى جيت ما يزيد على نصف الكرة الأرضية ، بينا قضيت أنت حياتك في حدم ، ومع فريق واحد من الناس ، في منزل واحد .

— لك ما تشاء يا سيدى .

— ليس هذا جوابا .. أو هو بالأحرى جواب غاية في الإثارة : لأنه يتم بكثير من المروعة ، أجيبينى بصراحة !
— لمست أرى يا سيدى أن لك الحق في فرض أوامرك على غورد أنك تفوتنى سنا ، أو لأنك لعبت العالم أكثر منى .. إن دعواك في السيادة تستند إلى الطريقة التى أفدت بها من وقتك وتجاربك !

— أف ! .. إنك تستدريجيتنى ، ولكننى لن أفر رأيتك ، إذ أنه لا يظلم على حالى ، بل يظهرنى بمظهر الذى يستغل الميزتين — السن والخبرة — في غير أكثراث ، إن لم أكل استغلالا مبررا .. فليدع السيطرة جانباً ، وليكن وليحك أن تلقى منى الأوامر من حين إلى آخر ، دون أن تسألى أبوتأذى من لمجة الأمر .. فهل تقبلين ؟

فأجبت وقلت في نفسى إن مستر روشتر رجل شاذ ، فقد نعى أنه يدفع لى ثلاثين جنيها في السنة مقابل أن أتلقى أوامره . ولاحظ هو على الفور ما أوتسم على وجهى فقال : « إن الأيشامة حسنة جداً ، ولكن .. تكلمى أيضاً ! » .

— كنت أفكر يا سيدى في أن قابلا جداً من السادة يكلفون أنفسهم عناء السؤال عما إذا كان أتباعهم المأجورون يستامون أو يتأذون من تلقى أوامره !

— أتباع مأجورون ! .. ماذا ؟ .. هل أنت تابعة مأجورة عندى ؟
آه ، نعم .. سميت المرتبة .. حسناً إذن .. هل تقبلين على هذا الاعتبار — اعتبار الأوتراق — أن أتسلط قليلاً ؟

— كلا يا سيدى : ليس لي هذا الاعتبار ، ولكن على اعتبار أن تمنى ذلك وأن تعنى بالسؤال عما إذا كان من تعوله مستريحاً في علاقته معك .. صديقه أقبل بكل سرور !

— وهل تقبلين التجاوز عن كثير من الأشكال والعبارات المتصطحح عليها دون أن ترى في التجاوز عنها شيئاً من القحة ؟

— أنا والله يا سيدى من أننى لن أعطيه تمييز بين رفع الكلفة وبين الترفاحة .. ولعلنى أفضل أولاهما ، ولكن الثانية لا يرضى بها من ولد حراً ، ولو تخاضى في مقابلها أجراً !

— غش وخداع ! إن معظم من يولدون أحراراً يتقبلون أى شيء مقابل الأجر .. نعدنى عن تفلسك فقط ، ولا تتجاوزى إلى العموميات التى تجعلها . ومع ذلك ، فإنى أحلمك بعقل على جوابك رغم عدم

دقه .. أما الطريقة التي قبل بها ، والمادة التي اشتمل عليها ، فتعطينان على الصراحة والإخلاص . والمرة لا يصادف كثيراً هذا الطبع ، وإنما يأتي — على العكس — تكافؤاً ، أو تنوراً ، أو غيابة ، أو سوء فهم للمعاني نتيجة ضيق العقل . ولا توجد ثلاث معاني بين آلاف يستطعن الإجابة عن سؤال يمثل ما فعلت .. لست أتعلقك بذلك .. ولكن ، إذا كنت قد خلقت في قالب غير قوالب غالبية البشر ، فلا فضل لك في ذلك ، لأنه من فعل الطبيعة ، بيد أنني أتمسرع في أحكامي ، إذ ما الذي أعرفه عنك ؟ .. إنك قد لا تكونين أفضل وأمثل من غيرك ، إذ قد تكون فيك نقائص وعيوب لا نعتل ، في مقابل محاسنك القليلة !

فقلت في نفسي : : وقد تكون أنت كذلك ! : .

● وافقت عيني بعينه عندما طافت هذه العكرة برأسي ، ويبدو أنه قرأها إذ أجاب وكأنني حدثته بما يدور بخاطري : نعم ، نعم ، إنك على حق .. إن لي كثيراً من العيوب التي أعرفها ولا أحب أن أفضح لها الميراث ، ومن ثم فحاشا لله أن أكون قاسياً لزماء عيوب الآخرين . إن لي تجارب ماضية ، ومجموعة من الأعمال ، ولوناً من الخرساة ، أكنمها في صدري ، لأنها قد تجلب على كثير من حز ، معارف ولومهم . وقد بدأت ، أو قدر لي أن أبدأ — لأنني أحب كغيري من الخاطئين أن أضع اللوم على عائق سوء الحظ والظروف المعاكسة — بسلوك معوج ، مذ كنت في الحادية والعشرين من عمري ، ولم أهد إلى الصراط المستقيم منذ ذلك العهد . وكان محتملاً أن أكون شيئاً آخر ، بل لعني

كنت أعده . تلك طيبة ومطهرة ، وربما أرجح عقلاً ! : . وإلى لأغبطك على راحة البال ، وعلى نقاء ضميرك ، وذاكرتك التي لم يدنسها شيء : : ألا اعلمى يا فتاة أن الذاكرة التي لا تشوبها أية وصحة أو دنس لا بد أن تكون كثرةً نقيصة ، ومعينة لا ينضب من الانتعاش التي .. اليس كذلك ؟

— كيف كانت ذاكرتك وأنت في الثامنة عشرة يا مبدى ؟

— على خير ما يمكن : صافية ، مليئة بالصحة ، لم يلوثها ماء آمن يوصلنا إلى غدير كبريه الرائحة . كنت في الثامنة عشرة مثلك .. مثلك تماماً ، فقد كانت الطبيعة تريد أن تجعل مني رجلاً طيباً يا أخته لير .. رجلاً من أحسن الرجال ، وهاتئذ ترين أنني لست كذلك .. قد تخولين إنك لا ترين ذلك ، وأنا أطمري نفسي إذا قلت لك أنني أقرؤه في حقيقتك — وبهذه المناسبة ، أحلمك بما تغير عنه عينك ، لأنني سرعان ما أترجم لغتها : — وأقسم لك أنني لست شريراً ، ولست وغداً ، ولا ينبغي أن تظنني كذلك أو تنسني في مثل هذه الوصية ، ولكن .. لظروف خاصة أحاطت بي ، ولا أقول لعب في طييعتي ، أصبحت مبتذل الأخلاق ، وآغاً مهتاً — تردى في كل الملمات الرخيصة التي يحاول الأغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم . هل يدعشك أنه أجاهرك بذلك ؟ : . اعلمى أنك ستجدين نفسك — في مستقبل حياتك — مختارة على الرغم منك لتكوني مستودع أسرار معارفك .. مسجدة الناس بالفريضة — كما وجدت أنا — أن ميزتك ليست في الحديث عن نفسك ، وإنما في الإنصات عندما يتحدث الآخرون عن أنفسهم ، وسبشعرون

كذلك أنك لا تصفون إليهم وفي نفسك احتضار وطمع على تركهم
وميلهم ، وإنما بعطف عزيزي يسري ويشجع ، لأنه حال من الطفل !
- وكيف تعرف ؟ وكيف تستفتح هذا كله ياسيدي ؟
- أعرف ذلك جيداً ، وعلى هذا أمضى في حرية وانطلاق ،
وكأنني أدون أفكارى في مذكراتى اليومية .. قد تقولين إنه كان ينبغي
أن أسيطر على الظروف .. نعم كان ينبغي أن أفعل ذلك ، ولكنك ترين
أننى لم أفعل ، وعندما ظلمنى القدر ، لم أوث من الحكمة ما يبقينى بارداً
غير مكترث ، بل استبدت به اليأس ، فتردبت .. وإذا أفكر اشتراكي
اليوم رجل أخرق ، بفسنه وبفادته ، فإني لا أكذب على نفسي زاعماً
أننى غير منه ، ولكنى أضطر إلى الاعتراف بأننى وهو في مستوى
واحد ! كم كنت أود الشات ، والله على ما أقول شهيد ! .. نصبحتي
إليك أن تخلى ثأنيب الضمير يا مس لير ، إذا صادفت ما يغري على
تنكب الطريق الضحيح ، لأن تبيكت الضمير هو سم الحياة !
- يقال إن التوبة شفاء له يا سيدى !
- إنها ليست شفاء له ، ولكن قد يكون الإصلاح هو الشفاء .
وقد كنت أقوى على الإصلاح وما زلت أقوى عليه الآن إذا ... ولكن
أية فائدة في الضمير ، وأنا مثل بالعراقيل والأعياء والفتات ١٩ ..
وقضلا عن ذلك ، لما كانت السعادة قد حُرمت عني - دون ما سبيل
لضادى الحرمان - فمن حق أن أترج السور من الحياة ، وسوف
أناله ، مهما يكن اتنى !
- إذن فسوف تمن في الهبوط إلى الحضيض ياسيدي !

- ربما ، ولكن لماذا أتحذر إلى الحضيض إذا كان في وسعي أن
أحصل على نعمة خلوة ملازمة ؟ وقد أحصل عليها في خلوة وجدة
العسل التي يجتمع النحل من أقدر الأخرش !
- ولكنها سئد عليك ، وستكون مرة المذاق يا سيدى !
- كيف علمت ذلك وإن لم تجربها فقد ؟ كم تتجلى عليك أمارات
الجد والقوة ، في حين أنك تجهلين الأمر ككل الجهل ! .. ليس لك الحق
في أن تعطيني .. أنت التي لم تخط عبث الحياة بعد ، ولا تعلم شيئاً عن
أسرارها مطلقاً !
- إنني أذكرك بكلماتك أنت يا سيدى ، فقد قلت إن الخطأ يسبب
الندم . كما قلت إن الندم وتفرغ الضمير مع الحياة !
- ومن ذا الذي يتحدث عن الخطأ الآن ؟ لا أكاد أعتقد أن
الفكرة التي مضت في خاطري كانت خطأ ، بل أؤمن بأنها وحى أكثر
منها لغوا .. ولقد كانت مريحة ، وفيها عزاء .. وما هي ذى قد أنت
مرة أخرى ! إنها ليست وسوسة من الشيطان .. فإن كانت ، فلأيد
أنها تترى بمسوح الملائكة التوراتية . ولذلك أرى من الواجب أن أتقبل
مثل هذه الضيقة الحسنة ، إذا ظلمت للدخول إلى قلبى !
- لا تبق بها ياسيدي لأنها ليست (ملائكة) حقيقة !
- مرة أخرى .. من أين علمت بذلك ؟ وبأية غريزة تدعين أن
في وسعتي التمييز بين (ملاك) سابق من الملو ، وبين رسول قادم من
العرش السملى .. بين هاد وبين مضلل ؟
- حكمت على ذلك من وجهك ياسيدي ، فقد اضطرب عتقنا

قلت إن الفكرة قد عاودتك ! .. وأنا أشعر شعوراً صادقا بأنها متضادة من تحسك وشقاؤك ، إذا أنت أصغيت إليها :

— كلا .. مطلقاً ! .. إنها تحمل أعظم رسالة كريمة خيرة في العالم . أما قبا عدا ذلك فليست أراك وصية على خميري ، فلا تشغل بالك .. ادخل أيها الغافلة الظريفة !

.. فاه بذلك وكأنه يخاطب رؤيا من الرؤى لا تبصرها غير عينيه ، ثم عقد ذراعيه — اللتين كان قد بطلهما — على صدره ، وكأنه يحضن تلك الرؤيا غير المنظورة ، ثم استطرد بعنفى : ه الآن استقبلت الغائبة القديمة .. الربة المتكررة ، كما اعتقد اعتقاداً جازماً . ولقد أفادنى كثيراً لأن قلبي كان أشبه بمقبرة ، وسيفقد الآن حرماً ! ! .

— الحق يا سيدى ، أنتى لا أفهمك مطلقاً ، فليس بوسعى أن اتعقب الحديث ، لأنه ينبعث من أعماقى .. كل ما أدريه هو أمر واحد .. ذلك هو ما قلت من أنك لست من الطيبة بالقدر الذى كنت ترجوه ، وأنتك تدم على نقائصك . كما أنتى أدركت شيئاً هاماً ، وهو أن الذائكة المكثبة عذاب مقيم . ويخيل إلى أنك إذا ناضت بكل فتوك فإني لن نلبث أن نتيقن أنه من السهل أن تصبح الشخص الذى كنت تشتهى أن تكونه ، وأنتك لو بدأت منذ اليوم في إصلاح أمورك وأفكارك بعزيمة جبارة ، لوجدت بعد سنوات قلائل زادا كبيراً من الذكريات الجديدة التى لا تشوبها شائبة ، بحيث يمكن أن ترجع إليها وأنت مغتبط مسرور : — تفكير عادل وقول صائب يا آنسة ، وإني في هذه اللحظة لأرشف الجحيم بكل همه ونشاط !

— سيدى !

— أنتى أرمى نواباً طيبة في منانة الحجر الصوان . ولا ريب في أن رفائى وهوايانى متصبح غير التى كانت بالأمس :

— بل خيراً منها ؟

— خيراً منها بكثير .. فسوف تكون كالذهب الخالص بالقبة إلى المعدن الخسيس الزائف ! يبدو أنك في شك من فلك ولكنى شخصياً لا يساورنى أدنى شك : إذ أنتى أعرف هدفى كما أعرف العوامل التى تدفعنى إليه . وأنا فى هذه اللحظة أصمم قانوناً كقوانين الميدين والقرص العادلة التى لا تتغير !

— هذا غير ممكن يا سيدى ، وإلا لاحتاجت هذه القوانين إلى هيئة تشريعية جديدة تقرها :

— نعم تحتاج إلى هيئة جديدة باهس إير ، مكونة من مجموعة من الظروف لم يسمع بثلتها ، تحتاج بدورها إلى قواعد لم يسمع بها كذلك ! — هذه الحكمة تبدو خطيرة يا سيدى ، لأن فى وسع الإنسان أن يرى في الحال أنها عرضة لأن يساء استعمالها !

— بالك من حكيمة سدينة الرأى ! .. فلتكن كذلك ، ولكنى أقسم بأرباب أسرى ألا أسئله استعمالها !

— إنك من البشر ومعرض للزلل !

— إني لكذلك ، وأنت مثلى : فإذا قصدت ؟

— يلزم على البشر المعرضين لخطأ ألا ينتحلوا قوة لا يؤتاها سوى القديسين والكاملين من البشر !

١- أية قوة ؟

— قوة القول عن كل غريب غير مشروع من الأعمال ، ولكن هذا حقاً !
— ولكن هذا حقاً .. هدم في الكلمات الصحيحة ، لقد نطقت بها !
... قد يكون هذا صحيحاً !

ثم قلت بعد أن رأيت أن من العبث أن أمضي في حديث كنت أتحفظ في ظلماته ، فضلاً عن أنني وجدت أن شخصية عدائي كانت أعز من أن أتخذ إلى أغوارها ، أو أن أبلغ سطحها الراهن على الأقل .. كما سأورثي للقلق .. ذلك الشعور المبهم بعدم الأمان ، الذي يرافق اليقين بالجهل !

وقال السيد : إلى أين أنت ذاهبة ؟

— سأسلم أدبيل إلى فراشها ، إذ فات موعد نومها .
— هل أنت خالقة مني لأتني أتحذّر في نحو من أبي المولى ؟
— إن لكنت غامضة يا سيدي ، ولكنني غير خالقة بخال ، وإن كنت في حيرة ؟

— بل أنت خالقة ، لأن حبك لنفسك يحميك على الخوف من الزلل والعدا .
— إنني أحس بالخوف فعلاً ، من هذه الناحية ، ولا رغبة لدى في حديث ، فلوغ !

— إذا كان الخوف يساورك حقاً ، فإن ذراتك وحبوبك لم يتطابرا

عنك حتى أنني حسبك غير خالقة ! ... ألا تضحكين أبداً يا آنسة ؟
لا تكلفي نفسك ضياء الرد ، فإنه قل أن أراك تضحكين ، وإن كان في وسعك دائماً أن تضحكي في مرج وابتهاج .. قل أنك لست عابسة بطبيعتك ، بأكثر مما أنا شرير أئيم بطبعي . ويبدو أن قيود (لو ورد) مازالت تؤثر فيك إلى حد ما ، وتتحكم في معالم وجهك ، وتخالفت من صوتك ، وتنقل من أطرافك ، وتحملك تستشعرين الخوف في حضرة رجل لك أن تعتبره أمك أو أباك أو غدومك أو من نشأين . وأنت بسبب هذا الخوف لا تبسمين ، ولا تتكلمين بحرية . ولا تتحركين بسرعة ، ولكنك سوف تصبحين — في الوقت المناسب — على بحيثك وطبيعتك معي ، وعدداً سوف تكتسب نظراتك وحركاتك حياة لا تجرئين الآن على إظهارها ، إذ أنني ألتصق في عيبك بين القينة والأخرى نظرة طائر من نوع غريب ، حينئذ خلف قضبان ، كاسير دائب القلق ولكنه ثابت العزم ، فلو أطلق سراحه لانتطى يعلو في كبد السماء . أما زلت مصبرة على الانصراف ؟

— لقد دقت الساعة التاسعة يا سيدي .

— لا هم .. انتظري لحظة فإن أدبيل لم تنهياً بعد فذهاب إلى فراشها . إن وقفني يا آنسة إير ، ونلهوي إلى الموقد ، ووجهي إلى الحجرة ، ساعدني على ملاحظة الكثير ، ففيا كنت أهدت إليك ، أتيت لي الفرصة لمراقبة أدبيل — فإن لدى أسياًباً خاصة تدعوني إلى اعتبارها مادة عجيبة للدراسة : أسياًباً ربما ، بل سوف أفضي بها إليك يوماً ما — فرائها تخرج من حلقها ثوباً قزانياً صغيراً ، ما أن بسطته أمامها حتى أشرف

وجيها حيوراً ، لأن (القنطرة) تجري في دماغها وتمتزج بعقلها وتقبل نخاع عظامها .. وقد سمعتها تهتف : « يجب أن أجريه .. في هذه اللحظة ! » ، ثم اندفعت تقادر الحجره . وهي الآن مع صوفى - مريبتها الفرنسية - ترتدى الثوب ، وسوف تعود بعد دقائق .. وإلى لأعرف ما سوف أرى .. صورة مصغرة من اللحظة (ميلين فارنس) ، وهي على خشبة المسرح .. ولكن لا داعي لهذا الآن ، فإن مشاعري المرحفة توشك أن تصاب بضربة .. هذا ما أتأني به ، فانتظري لترى حل تتحقق هذه النبوءة !

وبعد قليل ، سمع وقع قدمي أدبل وهي تخطر برشاقة في الردهة ، ثم دخلت وقد تحولت إلى الصورة التي تنبأ بها الوصي عليها ، إذ كانت ترتدى ثوباً من الحرير الوردى اللؤلؤ ، متفتحة عند (الجونلة) - بدل الثوب الرمادي الذي كانت ترتديه من قبل - وقد وضعت حول جبينها إكليلاً من أكمام الورد ، بينما ليست في قدميها جوربين من الحرير ، وصندلين صغيرين أبيضين من الحرير نفسه !

وصاحت بالفرنسية ، وهي تلب إلى الأمام : « هل ثوب جميل ؟ وحذائي ؟ وجوربي ؟ انتبهما لأنني سوف أرقص ! » .

ثم بسطت ثوبها وراحت ترقص عبر الحجره ، إلى أن وصلت إلى مستر روشستر ، فدارت أمامه على أطراف أصابع قدميها في خفة ورشاقة ، ثم ركعت على ركبة واحدة وهضت : « أشكرك ألف مرة يا سيدي على طيبك ! » .. ثم نهضت وأردفت تقول : « هكذا كانت تفعل دائما . أليس كذلك يا سيدي ؟ » .

فكان الرد : « تماماً .. هكذا ! لقد غفاني وجعلني أنفق عليها بغير حساب ، إذ كنت غش الإهاب : تخضر العود يامن لير ، لا يتعتكك من الشباب الآن أكثر مما كان يعتني إذ ذاك ، ولكن ربيعي قد ولى . وإن خلف لي هذه الزهرة الفرنسية الصغيرة ، التي أتمنى أحياناً أن أتخلص منها . ولما كنت الآن لا أقدر (الجدر) الذي نبئت منه بعد أن اكتشفت أنه من النوع الذي لا ينمو إلا بسهاد من ذهب ، فإني لا أميل إليها كل الميل ، لأسما عندما تظهر يظهر مصطنع متكلف كما ظهرت الآن .. إنني أؤيها وأرهبها تطبيقاً للمبدأ الروماني الكاثوليكي الذي يقضي بالكثير عن الخطايا العديدة كبيرها وصغيرها ، بعمل واحد عظيم .. وسوف أشرح لك ذلك يوماً ما .. طابت ليلتك ! » .



الفصل الخامس عشر

● وبالفعل ، شرح لي مستر روشستر الأمر في فرصة تالية .. في عصر يوم قاتلني فيه مصادفة مع أدبل في الحقل . وفيها كانت الصغيرة تلعب مع (بايثوت) وإحدى لعبها ، طلب إلى أن نلزع طريقاً نغذله أشجار الزان على مشهد من الفتاة . ثم أخبرني أن أدبل ابنة راقصة الأوبرا الفرنسية (سيان فارنس) ، التي أحبها يوماً ما حباً جارفاً ، فأبته هي - حسب اعتراف الراقصة له - بحب أشد عتفاً ، حتى خيل إليه يرغم دماغه أنه معبودها ، اعتقاداً منه بأنها كانت تؤثر قوامه الرياضي على جان ورشافة (أبولو بلنديير) ..! ومضى يشول :

— ولقد أزدعاني وتدهني ، يامن لير ، هذا الإيثار من الغالية

ابنة بلاد (الغال) ، للمسيح البريطاني ، فأثارتها في أحد الضاحك ،
وزودتها بحاشية كاملة من الخدم ، وبحربة ، وأتواب من الكشمير ،
وماسات ، ودانلا .. وغير ذلك . وقصارى القول ، بدأت عملية
إفلاس نفسي كمثل مغرم غي ! .. ويبدو أنني لم أوت من ملكة الابتكار
ما يمكنني من أن أخطط للمسيح طرفاً جديداً إلى الغريز والخراب ، وإغا
سلكت الطريق القديم بدقة حقاء ، جعلني لا أجد قدامي إلا مجراه ! ..
ولذلك حتى عل أن ألقى مصير أولئك المدققين الحقن ! فقد اتفق أن
ذرت (سيان) ذات مساء .. ولم تكن تتوقع قدومي - فوجدتها في
الخارج .. ولكن الأمسية كانت حارة ، وكنت متعباً من التجول في أنحاء
باريس ، فجلست في عتبتها سعيدياً بأن أملاً رتي ، بالمواد التي اكتسب
قداسة لأنه حث بها .. كلا .. إنني أياك ، لأنني لم أربها قط أية فضيلة
مقدسة .. على أنها تركت في عتبتها رائحة من روائح (الباسيفيا) تشبه
المسك والعنبر أكثر مما تشبه رائحة القداسة . وبدأت أشعر ولكنك لن
تلبث أن تلقى الضربة التي توقعتها ! .. أصبحت نافذة ، وأن أخرج
إلى الشرفة . وكان القمر ومصابيح الشارع ترسل أشعتها ، والسكون
والهدوء بتيان . كما كانت الشرفة مؤمنة بمفعد أو اثنين فيجلست
وأخرجت سيجاراً ... وسأتناول الآن واحداً إذا سمحت !

وتوقف بعد ذلك فترة شغل فيها بإخراج سيجار وإشعاله ، حتى
إذا وضعه بين شفتيه ونفث تنبأه من دخان (الفاغانا) الشدي في الهواء
المجعد الذي زائله الشمس ، استرسل يقول : كنت أحب الحلوى
كذلك في تلك الأيام يامس إير ، فرحت أأكله - وأغفري لي هذا



وفيما كانت الصغرة تلعب مع (بايلوت) ويأخذها لعبها ، طلب
إلي أن أزور طريقاً تظله أشجار الزان على مسند من الفناء

التعبير السخيف - بالنهام قطع الشيكولاتة نارة ، وبالتدخين نارة أخرى ، وأنا أراقب في الوقت نفسه المارة في الشوارع الحديقة الطراز ، وهم يتجهون نحو دار الأوبرا ، إلى أن شاعدت عربية أثينة مغلقة يجرها جوادان إنجليزيان جميلان . واستطعت - في أضواء المدينة المشرقة - أن أتبين أنها العربية المظلمة التي أعطينا لسيلين ، إذن فقد كانت عائدة ! وبالطبع عثقت قلبي نافذ الصبر وأنا خلف النقصان الحديدية التي أعتمد عليها . وتوقفت العربية كما كنت أتوقع عند باب الفندق ، ثم هبطت شعلتي - وهو الاسم الذي يلائم حبيبتي راقصة الأوبرا - وعلى الرغم من أنها كانت تخفي تحت معطفها ، وهو عمل يماثل لم تكن له ضرورة في أمسية حارة كهذه من أمسيات شهر يونيو ، فقد عرفتها في الحال من قدمها الصغيرة التي أطلت من أهداب ثوبها وهي تضعها على سلم العربية . والحبوب على الشرفة لأضعهم : (يا ملاكي !) ، بصوت لا تسمعه سوى أذن الحب وحده ، وعندئذ وثب شخص خلفها من العربية وقد تدثر هو الآخر بمعطف ، وجلجل كعبه المهبوز على الإفريز ، ثم مر ببقعته تحت قوس باب الفندق .

هل شعرت بالغيرة مرة في حياتك باسمس إير ؟ كلا بالطبع ! ولا حاجة في إلى سؤالك لأنك لم تشعرى بالحب قط ، ولكنك سوف تخبرين الآخرين فيما بعد .. إن روحك نطت في النوم ، ولكنك لن تلبث أن تتلقى الصدمة التي توقظها .. ! أنحسبت أن الوجود كله يمحى في جري هادى كالبحري الذي يسير فيه شبابه ؟! فقطالما ظلت طافية بعينين مغلقتين وأذنين مصبومتين ، فلن نرى الصخور القائمة غير

بعيد عنك في الجوى ، ولن تسمى الأمواج وهي ترغى وتزبد عند سفوحها ، ولكني أقول لك - وأصغى إلى ما أقول - إنك ستصلين إلى مضيق صخري سوف يتقطع عنده استرسال مجرى الحياة كله : ليتحول إلى دوامة ومضرب وزبد وجسوسها ، وعندئذ إما أن تنفضي إلى ذرات فوق الصخور ، أو ترفعك إحدى الموجات وتحملك إلى تيار أهدأ كما هو الحال معي الآن ! .

إني أحب يومى هذا .. وأحب هذه السماء الصلبة وأحب من الدنيا عيوبها وهدوئها تحت هذا الصقيع .. وأحب قصر (نورفيلد) بأثارة العتيفة وعزله الموحشة ، وأشجاره القديمة المليئة بالأشواك ، وبواجهته الخائكة ، ونوافذه المظلمة التي تعكس غيوم السماء .. ومع ذلك فكم كرهت - زمناً طويلاً - مجرد التفكير فيه ، وغررت منه قرارى من منزل مويوه بالطاعون ؟ وكم مارلت أمضت .. .

وصرف على أسنانه ، ثم أطلت إلى الصمت . وتوقفت عن السير ليضرب الأرض بقدميه ، كما لو كانت قد اسبذت به فكرة بغضة ، فقبضته إلى مكانه بحيث لم يفر على الحراك خطوة أخرى . وكان توقفه هذا - ونحن نرقى الطريق - أمام القصر ، فرفع عينيه إلى شرفاته العالية ودمقها بنظرة لم أر مثيلاً لها من قبل .. نظرة زائخة بالألم ، والخزي ، والحلق ، ونفاد الصبر ، والغزو ، والكراهية التي كانت تصطرع في إنسان عينه الكبير المنبسط تحت حاجبه الخيزر . وكان الاصطرع رهيباً بالغا ، ولكن شعوراً آخر ما لبث أن تولد وتغلب ... شعوراً كان ينم عن صلابة ومحترم وإرادة ، فاستقر ياله وهدأت نفسه النائرة ،

وبدلت أساور وجهه ، ثم استرسل بقول : « إنما لذت بالصمت في تلك اللحظة لأنني كنت أسوي أموري مع مصري .. فقد تراسى في هناك طفف ، كإحدى تلك الجنيات الساحرة اللاتي ظهورن لما كنت في مروج (فوريس) ، وقالت وهي ترفع أصبعها : « أحب توريقلد ! » ثم كتبت في الهواء على واجهة القصر ، بين صفي النوافذ الأعلى والأدنى ، بخط حبر غلبي : « أحبها إذا استطعت ! أحبها إذا جرؤت ! » ، فقلت : « سأحبها ، وإنني لأجرؤ على حبها ! » .. ولسوف أبر بوعدي ، فأحطم العنقبات التي تعترض سبيلنا إلى السعادة والخير .. أجل ، الخير .. لأنني أود أن أكون خيراً مما كنت وما أنا عليه الآن .. سأفعل ما فعله حوت (أيوب) إذ عظم الحربة والنبية والمزراق .. كل هذه الأسلحة التي يعتبرها الآخرون حصيداً ونجاسة ، سأعتبرها قنناً وخشباً بالياً متخوراً (۱) .

وأقبلت إذ ذاك (أدبلي) تجري أمامه يلعبها ، فصاح في خشونة : « ابتعدى ! .. اجري بعيداً أبنتا الطفلة ، أو اضربي إلى صوفي في داخل القصر .. » ثم استأنف سيره في صمت . وما لبثت أن تجاوزت على أن أذكره بالنقطة التي انقطع الحديث عندها فجأة ، إذ قلت : « وهل غادرت الشرفة يا صيدى عندما دخلت الأتسة فارتمس ؟ »

(۱) جاء في التوراة وصف للويثان .. أو حوت أيوب .. بأن : « في عيشه تبيت القوة ، وقبته صلب كالخجر وقاس كالرعي ، عند نبوخذ نزع الأقوياء .. سيف الذي لا يلحقه لا يفرم ولا ومع ولا مزراق ولا ذراع ! » (أي أنه أقوى من كل هذه الأسلحة !) .

وكنت أتوقع منه أن يصدم شعوري بعد هذا السؤال الذي كان لا يتناسب الموقف في تلك اللحظة ، ولكنه - على العكس - انتهى من فعله البائس ، واتجه نحوى يغويه ، ثم قال : « آه ! .. لقد نسيت سيلان .. » حينئذ استأنف الحديث : عندما وجدت فانتني تدخل الحديق ، وفي وقتها ذلك القارس ، عجل إلى أنني أجمع فحيحاً ، ثم رأيت حبة الفيرة الخضراء على ضوء القمر وقد رفعت رأسها في الشرفة ، ثم تسللت تحت شترتي ، وبأذرت تيش سوزءاء قاي . يا للعجب ! ..

وقطع الحديث ملباً تعجبه ، ثم عاد يستأنف موضوعه قائلاً : « يا للعجب ! .. كيف اخترت لك من دون الناس جميعاً لأفنى إليك بكل هذه الأسرار ؟ .. وأعجب من هذا أن تصغي إلي في حشوء ، وكأنه أمر عادي لديك أن يروي رجل مثل قصص مثلث الأويرا لغتة غريبة عديمة التجارب مثلك ! ولكن الغريبة الأخيرة تفسر الأولى ، فإنك - كما قلت لك من قبل - إنما خلقت بهذه الجاذبية والرصانة والخير لتكوني مستمعة للأسرار . هذا فضلاً عن أنني أعرف أي نوع من العقول أربطه بعقلي ، إنه نوع لا يمكن أن تنقل إليه العبدوى لأنه شاذ فريد في نوعه ، كما أنني - لحسن الحظ - لا أرى إلى إزدائه .. بل إلى أو فعلت قلن يصيبه مني الأدنى . ومن ثم فكلاً تحدثت كان ذلك أفضل ، إذ سيكون في وسعك أن تمرى عني ، ما دمت لا أمالك لك خيراً » .

وعاد يستأنف الموضوع الأبدى ، بعد أن حاد عنه ، فقال : « بقيت في الشرفة حتى بدخلنا عندهما كما حدثت . وفكرت في أن أكن لها ، ومن ثم مددت يدي من النافذة المفتوحة ، فجذبت الستارة

عليها ثاركا فتحة استطيع المراقبة منها ، ثم أغلقت النافذة كلها ، عدا
ثغرة تشع لأن تنفذ منها وعود العاشقين وعهودهما الحامسة - ثم عدت
مسللا إلى مقعدى فى الشرفة ، وإذا بالاثنتين يدخلان المذبح : وسرعان
ما كانت عينائى على الفتحة . ودخلت وصيفة سيلين فأشعلت المصباح
ووضعت على المنضدة ، ثم انسحبت .. ورأيت العاشقين أمامى بوضوح
وقد أخذ كل منهما يتطلع معطفا . وظهرت سيلين متألفة فى ثوبها
الحريرى اللامع ومجوهراتها التى كانت من هداياى بالطبع ، كما ظهر
رفيقتها فى بزة ضابط ، فعرفت فيه (فيكوت) شابا ، طائشا ،
فاسدا ، كنت أدنى به أحيانا فى المجتمعات .. ولم أفكر قط فى أن
أكرمه ، لأننى احقرته احتقارا بالغا . لما أن تبينت شخصيته حتى
تكسرت أنياب الغيرة ، لأن نازحى لسيلين انطقت فى الحال ،
إذ أن المرأة التى أقدمت على خيانتى من أجل منافس كهذا ، لم تكن
أهلا لأى نصال فى سيلينا ، ولم تكن تستحق سوى الاحتقار ، لا سيما
من رجل مثلى ، كان غريبا سهل الانخداع !

« وأنجنا يتحادثان : فخفض حديثهما من اتعالى ونورنى إلى حد
كبير ، لأنه كان حديثا طائشا ، مصطنعا ، جامدا ، مجردا من
العواطف ، يبعث الملل فى السامع أكثر مما يثير حنقه . وكانت على
المنضدة بطاقة باسجى ، فلما وقع نظرها عليها تحول حديثهما إلى ، فجعلتا
يسبانى بأفحش ما فى وسعهما ، على طرفتهما الرخيصة ، لا سيما سيلين
التي راحت تعدد عيوني الخاصة ، أو (عاهاتى) كما أسمتها ١٩ : مع
أنها كانت - عادة - تتحدث بجملة شديدة عن نعيمه (رجلها

الجميل) .. أنا ! وهى فى هذا تختلف كل الاختلاف عنك أنت التى
صارحتى فى المقابلة الثانية بأنك لا تربتى جميلا . ولقد أذهلتى الفارق
وقدذاك و ...

● وجاءت أدبيل بخرى مرة أخرى ليقول : « لقد جاء جون يا سيدى
ليخبرك بأن وكيلك قدم ويرغب فى مقابلتك »

— آه .. فى هذه الحالة ، يجب أن أوجز : فتحت الباب ودهمتها
وحررت (سيلين) من رعايق وهمايى ، ثم ألقنيتها بمغادرة الفندق ،
وقدمت لها كيسا مليئا بالنقود لتفقاتها العاجلة ، غير حائل بعويلها ،
ونوباتها المستورية ، ونوسلاتها واحتجاجاتها وانتفاضاتها .. ثم حددت
مع (الفيكوت) موعدا فى غابة (بولونيا) . وفى الصباح التالى حظيت
بمنازلته ، ثم غادرت برضاة فى إحدى ذواغيه القاصرتين الضعيفتين
ضعف جناح الفروج (الككوت) عند نفسه ، طائشا أننى قد انتهيت
من الاثنتين . ولكن .. شدا ما كان أسنى ، إذ كانت سيلين قد جاءتني
بهذه الصغيرة (أدبيل) قبل الحادث بسنة أشهر ، مؤكدة أنها ابنتى ..
ولعلها كذلك ، وإن كنت لا أجد على عيها أية قرينة ثم عن أبوتى
ها .. بل إن كلنى (بايلوت) يشبهنى أكثر منها ٢١ . وبعد انقضاء
سنوات على انقطاع صلتى بالأم ، هجرت المرأة طفلها وهربت إلى
إيطاليا مع موسيق أو مطرب . ولم أكن أعترف بأى حق طبيعى لأدبيل
يلزمنى بالاتفاق عليها ، لأننى لست والدتها ، بيد أننى سمعت بأن
الطفلة مهملة إهمالا تاما ، فاشتغلنا من أرواح باريس ، ونقلنا إلى هنا

لنزع عرق نظيفة في تربة خليقة إنجليزية بالريف . وقد احتلت إليك
ممنز فيرفاكس لتعلمها . ومن المحتمل بعد أن عرفت الآن أنها ابنة
غير شرعية لراقصة فرنسية ، أن ترى رأياً آخر في وظيفة والطفلة
للقى تحت وعاءيك . وقد نجيتين يوماً ما لنكتري بالثك وجدت مكاناً
آخر ونظمتي إلى أن أبحث عن معلنة أخرى . أتيس كذلك ؟

— كلا . إن أدبل غير مسئولة عن أخطائها أو أخطائك ،
وأنا أعزها . بل لاني بعد أن عرفت الآن أنها عشيمة الآبون ، متبودة
من أئنها ، وغير معترف بها منك يا سيدي ، سأزاد تشبهاً بها عن ذي
قبل . وكيف يمكن أن أفضل فداء مدانة من امرأة غنية قد نكره معلمتها
كرأيتها لشيء مزعج مثالي لراحة ، على قيمة صغيرة وحيدة يمكن
الاطمئنان إلى صداقتها ؟

— أهذا هو الضوء الذي تنظرين فيه إلى الأمر ؟ حسن ، يجب
أن أذهب الآن ، وأنت أيضاً ، لأن الظلام يهبط .

ولكنني مكنت بضع دقائق أخرى مع (أدبل) و (بايفوت) ،
وجريت مع الصبية تسليق ، ثم لعبنا بالكرة والمضرب . ولما دخلنا
خلعت عنها قبعتها ومغطتها ، ثم أجلسنا على ركبتين ، وتركنا ساعة
نثر كما شأنا ، دون أن أحاول ودعها . بل دون أن أفكر في
نأنيها على بعض المهنات النافذة التي كانت ترتكها عندما تشعر بأن
ثمة من ينص على تصرفاتها ، والتي كانت تكشف عن سطحية في
سلوكها ، لعلها ورتبة عن أمها . ففقدت كانت لها — برغم ذلك —
فضائل ، وكانت ميالة إلى أن أقدر فيها كل ما هو طيب إلى أقصى

حد . ورحت أنفوس في مجراها وملاعها ، بحثاً عن شيء يقربها من
مستر روشستر ، ولكنني لم أفر بظائل ، إذ لم أجد ما يؤكد الصلة
بينهما ، ومن ثم أمنت لفظة التي كانت خليقة بأن تلقى منه مزيداً من
العناية لو ثبت أي شبه بينهما وبينه !

● ولم يبق لي استعراض القصة التي رواها لي مستر روشستر إلا حين
أويث إلى غرفتي الخاصة في الليل . وكما قال هو : كان من المحتمل أن
مادة القصة لم تحو — في حد ذاتها — شيئاً غير عادي : فإن هيام رجل
إنجليزي موسر براقصة فرنسية ، وحبائتها له ، كانا مما يحدث في المجتمع
كل يوم ولا ريب . بيد أنه كان ثمة شيء عجيب — بكل تأكيد —
في نوبة الانفعال التي تملكته وهو يعبر عن رضائه الخالي بطابعه ، وعن
سروره المتجدد حديثاً بالنصر القديم وما حوله . ومضيت أتأمل طويلاً
هذه الحال ، ولكنني أقلعت تدريجاً عن التفكير فيها ، بعد أن وجدتني
لا أستطيع فهمها في الوقت الحاضر . ثم تحولت إلى التفكير في مسلكه
الشخصي معي . في الثقة التي وجدني أهلاً لأن يضعها في ، بقدر ما
لخصافتي وفطنتي ، والتي تقلبها — من ناحيتي — على هذا الاعتبار !
كان مسلكه يحوي منذ أسابيع ، أكثر انسياقاً من ذي قبل . ولم
أمكن أحاول أن أعترض طريقه قط ، ولكنه كان إذا لفتني مصادفة
يرحب بي ويتبادل معي بعض العبارات . وكان أحياناً يئسني في . وإذا
دعاني رحياناً إلى حضرته ، كان يؤثرني باستقبال ودي يبعث في نفسي
الشعور بأن في القوة حقاً على تسليته ، وأنه إما كان يتشد هذه الأحاديث

المسألة لإدخال السرور على نفسه ، كما كنت أنا أشدها لأقيد منها !
فقد كنت - في الحقيقة - أقل من حديثي نسبياً لأنصت إليه ، وهو
يتحدث كيفما يشاء . وكان بطبيعته محدثاً ليقاً ، محباً لأن يفتح أذهان من
يجهلون العالم لتلقى ومضات من مناظره وطرائقه . ولست أعنى مناظره
القاسية وطرائقه الخبيثة ، وإنما أقصد تلك التي تشتت طراقتها من
جلدها وذويعها . وكنت شديدة الانغياط باستقبال الآراء الجديدة
التي كان يقدمها ، وبشغل الصور الجديدة التي يرسمها ، ويتبعه إلى
المناطق الجديدة التي يكشف عنها الستار دون أن يروعني أو يزعجني
بإطاعة تضايقتي أو تؤدي مشاعري !.. ولقد حررتني بساطة أفكاره
من قيود التحفظ الأليم ، كما جلبتني إليه صراحته الودود ، المستقيمة
المخلصة ، التي أخذت يعاملني بها ، حتى كان يغيل لي أحياناً أنه قريب
أكثر منه عندي !.. على أنه ظل برغم ذلك يستبد في بعض الأحيان
برأيه في لغة أمرة ، ولكنني لم أكن أهم لذلك ، إذ أدركت طبعه
وطريقته . ولقد بلغ من شعوري بالسعادة والامتنان بهذا اللون الجديد
من ألوان الاهتمام في حياتي ، أن كففت عن الحزن إلى أن يكون في
أقارب ، وبدأ لي أن مصيري الذي كان كالحلال الصغير أخذ يكبر
وينمو ، وأن الثغرات التي كانت في كياني قد امتلأت ، وأن صفتي
تحسنت ، وأني إزدادت قوة وبدانة !

أثراني كنت بعد ذلك أرى مستر روشستر دميماً ؟ كلا أيها
القارئ ، فإن الاعتراف بالجنيل وبالعبث من خصاله - وكلها كانت
تبعث على السرور والإيمان - جعلت وجهه أحب شيء أرى في

رؤيته ، كما كان لوجوده في أي غرفة إشراق يفوق أكثر النيران
تألقاً !.. ولكنني - في الواقع - لم أنس أخطائه ، ولم يكن في وصفي
نسيانها ، لأنه كان يذكرها دائماً أمامي . إذ كان متعاليماً ، مسخرأ ،
قاسياً على من هم دونه ، وكنت أعرف في طوايا نفسي أن عطفه على
تقابله شدة جائرة على كثيرين آخرين ، ثم إنه كان دائب المهمل والاكنتاب
إلى درجة كبيرة .. وكنت أجد - عندما يرسل في طريقي لأقرأ له -
جالساً في مكتبته بمفرده ، ورأسه معتمد على ذراعيه المعتودتين . فإذا
رفع رأسه ، رأيت عيوساً مكشفاً ، بل خبيثاً ، يظلم أساريه ! ولكنني
كنت أعتقد أن همه وصرامته وذوته الخلفية السابقة - وأقول السابقة
إذ بدا أنه أصلح من شأنها - إنما نشأت من إحدى صدمات القصور
القاسية .. وكنت أعتقد أنه بسيفته رجل ذو ميول طيبة ، وعبادتي
سامية ، وأذواق صافية ، تفوق ما كنت في نفسه الظروف ، وما يشه
فيه التعليم ، وشجعته عليه القدر .. بل كنت أعتقد كذلك أن فيه
خامات طيبة وإن بدت إذ ذاك مضطربة معقدة . ولا سبيل لي أن
أنكر أنني كنت أحن لما يمزجه مهما يكن ، ولا أقص بالكثير من
أجل التحقيق عنه !



● وبالرغم من أنني أطفأت الشمعة ووقدت في الفراش ، إلا أنني
لم أستطع النوم ، إذ رحنت أفكر في نظرتي عندما توقفت في الطريق ،
وأخبرني كيف تحلل له مصيره شجعاً متصبأ وأغراء على أن يكون
سعيداً في (نورشيلد) . وتساءلت :

— لم لا ؟! ما الذى يبعده عن المنزل ؟!.. و دخل سيقاوه مرة أخرى عن قريب ؟!.. لقد أخبرني مسز فيرفاكس أنه قل أن أقام هنا أكثر من أسبوعين كاملين ، وها هو ذا الآن قد مكث ثمانية أسابيع ، فلو رحل لكان هذا التحول باعثاً على الحزن والغم ..!.. ولنفرض أنه تغيب طوالت الزبيع والصيف والخريف ، فكيف سيبدو أشعة الشمس مقيضة والأيام فارغة ، إذ ذاك ؟

ولست أدري هل استسلمت للنوم ، أو أتيت فظلت مستيقظة بعد هذه المخاطر .. وإنما الذى أدره هو أنني انتهيت مفروعة على صوت همهمة غامضة ، شاذة ، كتيبة — خلفها تبعث من الحجرة التى تقع فوق حجرتي مباشرة — فتميت لو أتت كنت قد تركت الشمعة موقدة لأن الليلة كانت رهيبة الظلام ، ولأن روجي المعنوية كانت مظلة ، واستويت جالسة في فراشي ، ألهف السمع ، ولكن الصوت كان قد مكث . وحاولت أن أنام من جديد ، ولكن قلبي راح يخلق قلقاً . كانت طمأنينتي قد تبددت ، ودقت الساعة التى في الطرف الأقصى من اليوم معلنة الثانية .. وفي تلك اللحظة ، خيل إلى أن شيئاً مس باب عرقى ، وكان أصابع قد احتكت بالواحه وهى تتحسس طريقها في الردهة المظلمة .. وقلت : « من هناك ؟ » .. ولكنني لم ألتق رداً ، قسرت في كيائي بعودة الخوف .. ثم تذكرت في الحال أن الذى مر بغرقى ربما كان (بايلوت) الذى كان كبيراً ما يتخذ سبيله إلى عبة غرفة مسر روشستر ، إذا قدر لباب المطبخ أن يترك مفتوحاً ، وقد رأيته بنفسي راقداً هناك في أكثر من صباح ..!.. وهذا نفس لهذا

الخاطر هو أن ما ، فرقدت من جديد ، وأخذت الصمت يهدئ أعصابي ، ولما كان السكون الشامل يعمشي أثبت كله ، فقد بدأت أشعر بالنعاس يعاودني . بيد أنه لم يكن مقدوراً لي أن أنام في تلك الليلة ، فاستعاد أحد الأحلام يراودني ، حتى ولى مذعوراً وقد أزعجه حادث جدد له النخاع في عظامي !

وكان الحادث في هذه المرة ضحكة شيطانية خافتة ، مكبوتة ، عميقة ، خيل إلى أنها تبعث في قلب مفتاح باب عرقى بالذات .. وكان رأس سريري قريباً من الباب ، فخييل إلى في أول الأمر أن الضحكة الشيطانية قد وقفت بجانب سريري ، أو بالأحرى ربهت عند وسادتي ، فهضت وجعلت ألتفت حولي ، ولكنني لم أر شيئاً . وفيما كنت ألهلج ، عادت الضحكة غير الطيعة ، وأدركت أنها جاءت من خلف الألواح الزجاجية . وكان أول ما فكرت فيه أن أنفض وأحكم رتاج الباب . ولكن الخاطر الثاني أعاب في أن أصبح : « من هناك ؟ » ..

... كان هناك شيء يخور ويث ..!.. وبعد قليل سمعت خطوات تتباعد في الردهة إلى سلم الطابق الثالث . وكان قد أقبح أخيراً باب يمنع الوصول إلى ذلك السلم ، فسمعت هذا الباب يفتح ويغلق ، ثم ران السكون .. فقلت في نفسي : « أكانت هذه جريس بول ؟ وهل يصلحها الشيطان ؟ » .. وصار من المستحيل أن أظل مفردة بنفسى بعد هذا ، بل يجب أن أذهب إلى مسز فيرفاكس ، فبادرت أن أرتدي معطئي وشالي ، ثم سميت المزلّاج وفتحمت الباب بيد ترتعد . وكانت

بالجوز شمعاً تشتعل ، خارج الباب مباشرة ، وعلى البساط ، فذهبت للأمر . ولكن دهشتي كانت أشد عندما رأيت الجو مليداً وكأنه امتلأ بالدخان !.. وفيما كنت أنطلق إلى اليمن وإلى اليسار ، لأتبين مصدر هذه الجدايل الزرقاء من الدخان ، فطئت إلى رائحة احتراق قوية .

ثم سمعت صوت صرير يبعث من باب موارب .. هو باب حجرة مستر روشستر .. وثبتت أن الدخان كان يتدفق منه أشبه بسحابة كثيفة ، فلم أعد أفكر في مسز فيرفلاكس أو في جريس بول أو في الضحكة . وفي لحظة واحدة كنت بداخل الغرفة ، فإذا بالسنة الذهب تتدلع حول الفراش ، والسائر تشتعل .. وفي وسط اللهب والدخان ، كان مستر روشستر مسترقاً في النوم لا يتحرك ولا يرمق ! فصحت وأنا أهزه : « أفق !.. استيقظ !.. » لكنه لم يفعل أكثر من أن تقلب وتغمغم ، فقد ذهب الدخان بوعيه وسلبه رشده .. ولم تكن هناك لحظة يمكن إخضاعها ، إذ أن أغلبية السرير نفسه كانت قد اشتعلت . فاندفعت إلى الخوض والإبريق .. ولحسن الحظ كان أحدهما واسعاً والآخر عريضاً ، كما كان كلاهما مملوءاً بالماء ، فحملتهما عالياً وأغرقت الفراش ومن فيه . ثم أسرعت إلى حجرتي فبعت بإبريق وأغرقت الفراش من جديد . ووقفت بعون الله إلى إخماد النار التي كانت تلهبهم .

وأخيراً ، أفاق مستر روشستر على أزيز النار وهي تنطق . بفعل الماء ، وعلى صوت تحطم الإبريق الذي طرخته من يدي بعد أن أفرغته ، وعلى رذاذ الماء الذي صببته عليه متعمدة ، قبل كل شيء ::



ولم تكن هناك لحظة يمكن إخمادها ، إذ أن أغلبية السرير نفسه كانت قد اشتعلت

وأمرت برغم الظلام أنه قد استيقظ ، لأنني سمعت يهلو بألوان عجيبة من اللغات ، عندما وجد نفسه راقداً في بركة من المياه . ثم صاح : « هل ثمة ليضان ؟ » .. فأجبه : « كلا يا سيدي ، ولكن كان ثمة حريق . قم فقد غرقت وساتيك بشعة » :

— بحق شياطين البلاد المسيحية كلها ، هل هذه (جين إير) ؟ ماذا فعلت في أيتها الساحرة العرافة ؟ من بالحجارة غيرك ؟ هل تأمرت على إغراق ؟

— ساتيك بشعة يا سيدي ، فأستحلفك بالله أن تقوم إذ ديرك بعضهم شيئاً ، وليس في وسعك أن تكشف في الحال عن هو المذبر زما الذي دبره !

— ها قد فت الآن ، ولكنك تخاطرين بإحضار الشعة . انظري دقيقتين حتى أجد ثياباً جافة إذا كان قد بقي شيء جاف .. أجل ، ها هو ذا ثوب العرقة (الروب ذي شامبر) .. اجري إذن !

وهرعت وجلت بالشعة التي كانت ما تزال في الردة ، فتناولها من يدي ثم راح يطلم الفراش الذي اسود واحترق ، وإلى الملامات الميتة ، والبساط السابح في المياه .. وسألني : « ما هذا ؟ ومن فعله ؟ » .. فرويت له في إيجاز ما جرى : الضحكة العجيبة التي سمعتها في اليوم . وقع الأقدام الصاعدة إلى الطابق الثالث .. الدخان ورائحة النار التي قادني إلى حجرته .. أية حالة كانت الأمور عليها هنالك وكيف أفرقه بكل ما وقع بين يدي من مياه .. وكان يصغي إليّ في اهتمام ورزانة ، وكلما أوغلت في حديثي تجل على وجهه من آيات الفلق قوي ما كان

عليه من أمارات الدخس . ولم يتكلم على الفور بمجرد أن انتهت من روايتي . فأنته : « هل استدعي مسز فيرفاكس ؟ » :

— مسز فيرفاكس ؟ كلا .. لماذا بالله تستدعيها ؟ ما الذي في وسعها أن تفعله ؟ .. لا تذكرى صفو نومها !

— إذن ساجي ، بالخادمة (لياه) وأوقف جون وزوجته . — كلا مطلقاً .. بل التزمي الهدوء ! .. أراك تتلفعين بشال ،

فإذا كان لا يدفك جيداً فخذى عيافتي التي هناك وتدرى بها ثم اجلسي على المقعد ذي المسندين ، والآن ضعي قدميك على الكرسي الصغير لتبعديهما عن الليل . سوف أتركك بضع دقائق ، وسأخذ معي الشعة ، فأبق حيث أنت إلى أن أعود ، والتزمي سكوت الفئران ، إذ لا بد لي من أن أزور الطابق الثالث .. وتذكرى أن عليك ألا تتحركي أو تستدعي أحداً !

ودهب ، فظلت أرقب النور وهو يتصدد معه . وانجاز الردة في خنق خفيفة للغاية ، ثم فتح باب السلم بأدنى جلبة مستطاعة وأغلق خلفه قبل أن تخفى آخر أشعة للشعة .. وهكذا تركني في ظلام دامس . وأرحت السمع فلم تنه إلى أدنى أية ضوضاء . وانقض وقت طويل .. وما لبث السام أن تملكني ، وشعرت بالبرد برغم العباءة .. وأخيراً ، ألم أجد أية فائدة في الانتظار ما دمت لن أوقف أحداً من أهل المنزل . وحممت بأن أتعرض لضرب مستر روشستر — إذ يعود فيجئني قد عصيت أوامره — ولكنني ما لبثت أن سمعت قدميه تدوسان بساط الردة ، ففتت في نفسي : « أرجو أن يكون هو ، وليس شيئاً

أسوأ ؟ .. وأقبل هو - فعلا - صاحب الوجه - بادی الاكتاب ، ثم قال بعد أن وضع الشمعة على منضدة الاغتسال : « لقد اكتشفت كل شيء ووجدته كما قلزت ! » .

كيف يا سيدي ؟

فلم يمر جواباً ، بل وقف وبذاه معشودتان ، ورأسه مطرق إلى الأرض . وبعد دقائق سألت في صوت يظلم عليه الشلوك : « لقد نسيت ما قلت لي .. هل قلت إنك شاهدت شيئاً عندما فتحت باب مخدعك ؟ » .

— كلا يا سيدي .. كانت الشمعة على الأرض فقط .

— ولكن ، ألم تسعى ضحكة عجيبة .. وما أرى إلا أنك سمعت هذه الضحكة من قبل ، أو شيئاً من هذا القبيل !

— نعم يا سيدي .. فهناك امرأة تتولى الخياكة - وتدعى (جريس بول) - تصحك بذاك الطريقة .. إنها مخلوقة عجيبة !

— تماماً ، جريس بول .. لقد أصاب جلدك ! .. إنها كما تقولين عجيبة .. جداً ! حسناً سأفكر في الأمر . وفي الوقت نفسه يسرني أنك الشخص الوحيد - ما عداي - الذي يلم بالتفاصيل الدقيقة لحادث الليلة . أنت لست برؤاة حذراء فلا تتحدثني بشيء عن ذلك لأحد !

ثم أشار إلى الفرائش وعاد يقول : « والأذن عودتي إلى حجرتك وسأرتاح كل الراحة بقية الليل على أريكة بجوهر المكتبة .. لقد قاربت الساعة الرابعة وسوف يستيقظ الخدم بعد ساعتين » .

— طابعت ليلتك إذن يا سيدي !

ثم همت بالرحيل ، فظاھر بدهشة تناقض غاية التناقض ما طلبه

من مبادرة بالعودة إلى حجرتي وصباح : « ماذا ! هل تغادرنني في الحال ، وهذه الطريقة ؟ » .

— ألم تقل بأن في وسعي العودة !

— ولكن ، ليس دون أن تصادقني .. ليس دون كلمة أو اثنين

أعير بهما عن تقليدي وعرفاني .. وبالاختصار : ليس بهذه الطريقة المبتسرة الجساقة . إنك أنقذت حياتي ، بل إنك انتزعني انتزاعاً من أبواب مينة مروعة . أجبني . فكيف تقاربتني كما لو كنا غربيين لا يعرف أحدهما الآخر ؟! صدقني على الأقل !

وبسط يده ، فاوله يدي . وإذا ذاك أمسك بها أولاً في إحدى يديه ، ثم أطبق عليها راحتيه وقال : « لقد أنقذت حياتي ، ويسرني أن أدين لك بهذا الدين الضخم ، وليس في مقبولي أن أقول أكثر من هذا .. بل لائق ما كنت لأحتفل أن أدين لطفوك على قيد الوجود بمثل هذا الالتزام . بيد أن الأمر يختلف معك ، فقلت أشعر بأن فضلك هذا عيبه يثقل عليّ يا جين » .. وتوقفت عن الكلام ، وأخذ يتفرس في ، والكلمات تضطرب على شفثيه ، ولكنه حبسها ، فقلت : « طابعت ليلتك مرة أخرى يا سيدي ، وليس في الأمر دين أو فضل أو التزام ! » .

— كنت أعرف أنه سينالني غير على يديك بطريقة ما ، وفي وقت ما .. قرأت ذلك في عينيك يوم شاهدتك لأول مرة ، ولم تكن عيناً نظرتك وإنسانك اللذان أدخلنا البهجة على نفسي . إن الناس يتحدثون عن العواطف الطبيعية ، كما سمعتم يتحدثون عن وجود (الملاك ، الطبيب) ، وقد آمنت الآن بأن في المرات - مهما تشبعت في الخيال -

بلدوا من الحقيقة .. طابت ليلتك يا حافظتي العزيزة !

وكانت في صوته حيوية عجيبة ، وقد نظرته ناز غريبة : فقلت :
وسعدني يا سيدى أنتى كنتى ما تزال منقطعة . بالمصادفة ! .. ثم صمت
بالانصراف فقال : « ماذا ! .. هل ستصبرين ؟ » .

— يا نى أشعر ببرد يا سيدى .

— ببرد ؟ .. أجل .. بل إليك تنفخين في بركة ماء ! اتعني إذن

يا بـ نـ !

ولكنه قل مسكاً يدي : فلم أستطع تخليصها . وفكرت في حيلة
أندرج بها . فقلت : « أظننى سمعت مسز فورفاكس تتحرك يا سيدى .. »
فأرغى أصابعه وقال : « حسناً ، فارقتى ! .. » وانصرفت ، فغذيت
إلى فراشى ، ولكنى لم أفكر في النوم إطلاقاً ، بل ظلت — إلى أن
لاحظت تباشير الفجر — كمن يطوح بها بحر يوجج وسار ، ولكنه ليس
هادئاً الصفر وإنما تنساب تحت أمواج مباحبه تيارات العناء والشاغب .
وكان يغيل ليلى أحياناً أننى أرى خلف مياهه العنيفة شاطئاً جليلاً ، ثم
لا يلبث الأمل بين حين وآخر أن يوقظ زبعة منبهة تحل روحى ظافرة
إلى هدنى .. إلى ذلك الشاطئ الجميل ، ولكنى لم أستطع بلوغه حتى في
الليل ، لأن عاصفة مضادة كانت تجرى إلى الخلف ، أى أنتى كنت
بين عاملين : كان الفضل مقاوم الهذيان ، والتميز يغشى من الهوى ..
واستحال على أن أستريح وأنا محبومة هكذا ، فنهضت بمجرد أن طلع
فجر اليوم !

الفصل السادس عشر

● كنت أنتى — بقدر ما كنت أحنى — أن أقابل مسز روشستر في
اليوم الثالث لتلك الليلة البلاء الساعدة .. كنت أصبو إلى أن أسمع صوته
مرة أخرى . ومع ذلك كنت أرجف من أن تلقى عيناى بعينيه . وكنت
طوال الفزع اليأس من الصباح أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى :
ومع أنه لم يعد أن يدخل إلى حجرة الدراسة ، إلا أنه كان يعرج عليها
في بعض الأحيان ، ولذلك كان في هاتف يؤكده أنه سيزور الحجرة
في ذلك اليوم .. غير أن الصباح انقضى كالعادة ، دون أن يقع ما يعوق
سير الدرس . على أننى لم أكده أنتى من تناول الإفطار ، حتى سمعت لغطاً
بحوار غدد مسز روشستر ، وكان مزيجاً من أصوات مسز فورفاكس
و (ليا) والطاحية .. بل وصوت زوجها (جون) بالهتجة الغليظة ،
وتناحت إلى أذن — خلال اللغط — صيحات متعددة : « من رحة الله
أن السيد لم يترق في فراشه ! .. » « من الخطر دائماً أن نظل إحدى
الشروع موقفة في الليل ! .. » « من عناية الله أن أوتى من حضور الذهن
ما يجعله يتذكر لإريق الماء ! .. » « من عجب أنه لم يوقظ أحداً ! .. »
« عسى ألا يصاب ببرد بعد نومه على أريكة المكتبة ! .. إلخ .

ودار لغط كثير ، أعقبته أصوات مسح الحجرة وتنظيفها ،
وترتيب محتوياتها .. وعندما مررت بتلك الحجرة في طريق تناول الغذاء
بالطابق الأسفل ، شاهدت من خلال الباب المفتوح أن كل شيء قد
استعاد نظامه التام : فإعداد الفراش الذى كان مجرداً من ستاره . وكانت
(ليا) منتصبة فوق قاعدة النافذة ، تسمح ألواحها الزجاجية التى جعلها

الدخان ممتعة . وهنبت بأن أحاطها رغبة في معرفة السبب الذي يعزى إليه ذلك الحادث ، ولكنني ما إن تقدمت حتى شاهدت شخصاً آخر في الحجرة : امرأة تجلس على مقعد يحول الفرائس ، وتحيط دوائر أسنار جديدة .. ولم تكن تلك المرأة سوى (جريس بول) !

هنالك تجلس رابطة الجلاش ، عخلدة إلى الوجوم كالعادة ، بثوبها البني القضااض ، ومرواتها - ذات المربعات - ومنايلها وقلنسوتها الناصعة البيضاء . وكانت منهكة في عملها الذي بدا أنها استغرقت فيه بكل أفكارها دون أن يترامى على جبينها الجأهد ، أو على أساورها المألوفة شيء من الامتعاض أو القنوط الذي يتوقع المرء أن يراه على أساور امرأة شرعت في ارتكاب جريمة قتل في الليلة السالفة ، فإذا بالضحية المقصودة تبعها إلى عرينها ، وتتهما - كما اعتقدت - بالجريمة التي أرادت تنفيذها .. لذلك تولفتي الدهشة وتملكني الحيرة .. وفيما كنت أفكر في نفسي ، رفعت عينها دون أن ترتفع أو يتضجر وجهها بحمرة أو شحوب ينم عن انفعال في النفس أو شعور بالإثم أو خوف من اكتشاف أمرها . بل إنها قالت بلهجتها الفاترة المتعذبة : « صباح الخير يا آتسة » ثم تناولت دائرة أخرى وشريطاً آخر ، واسترسلت في خياطتها فقلت أحدث نفسي : « سوف أجرى عليها بعض الاختبار » فإن مثل هذا التكم المطلق يفوق كل تصور وإدراك ! .. ثم قلت لها : « صباح الخير يا جريس » هل حدث شيء هنا ؟ .. لقد خيل إلى أنني سمعت جميع الخدم يبادلون الحديث منذ هنيهة ! .

كل ما هنالك أن السيد كان يقرأ في فراشه ليلة أمس ، فاستغرق

في النوم والشعلة موقدة ، فثبت البيران في الستائر : ولكنه لحسن الحظ تيقظ قبل أن يمتد التهب إلى مقارن السيرير وإلى النوافذ والأبواب ، فتمكن من إخماد الحريق بقاء الإبريق .

فقلت بصوت خافت : « ياله من أمر عجيب ! » ثم مددت إليها نظراتي وقلت : « هل أيقظ مسرر رويستر أحدًا ؟ .. ألم يسمعه أحد يتحرك ؟ » .. فرفعت عيني إلى مرة أخرى ، وكان فيهما في هذه المرة ما يعبر عن الشعور بالجرح . وبدأ لي أنها تشخصني بحذر شديد ، ثم أجابني قائلة : « إن الخدم ينامون بعيداً جداً كما تعلمين يا آتسة ، فمن المحتمل أنهم لم يسمعو شيئاً .. أما حجرة مسرر فيرفاكس وحجرتك فأقرب الحجرات إلى غرفة السيد » ولكن مسرر فيرفاكس قررت أنها لم تسمع شيئاً على الإطلاق لأن من يطلعون في التن ينقل نومهم » .

ثم توقفنا قليلاً قبل أن نستطرد ، وهي تتظاهر بعدم المبالاة ، برغم ما كان في فحشها من دلالة ومعزى : « ولكنك شابة يا آتسة ، بل أنت أصغر توماً ، فلعلك سمعت ضججة ما ؟ » .. فقلت وأنا أخافت من صوتي حتى لا تقوى على سماعه (ليا) التي كانت ما تزال تصفأل الواح النوافذ الزجاجية : « لقد سمعت فعلاً .. وظننت في أول الأمر أنها من بابلوت ، ولكن بابلوت لا يستطيع الضحك .. وأنا واثقة من أنني سمعت ضحكة .. ضحكة عجيبة ! .. فتناولت خيطاً جديداً سمعته بعناية : ثم أدخلته في ثقب الإبرة بيدي ثابته ، وغالت برابطة جلاش ثامة : « ليس من المحتمل - فيا أعتقد - أن يضحك السيد وهو في مثل هذا المظهر .. فلا شك أنك كنت تعلمين يا آتسة ! » .

قلت بشيء من الانفعال بعد أن أثارني يبرودها السليط : « بل
إني لم أكن أحلم ! » .. فطلعت إلى مرة أخرى بنفس العين المضحكة
الواعية ، ثم سألتني : « هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكة ؟ »

— لم أجد فرصة للتحدث إليه في هذا الصباح .

فعدت تسألني : « ألم تفكري في فتح بابك والتطلع إلى الردهة ؟ » ..
وبدا أنها تستجوبني وتحاول أن تسترعب أخباري مون أن أظعن . وعطرتني
أنها إذا اكتشفت أنني أعرف أو أرتاب في جرمها ، فقد تحاول أن تأتي
معى بعض الأعيان المحببة . لذلك رأيت من الحكمة أن أكون على حذر ،
قلت : « بل على العكس .. أغلقت بابي بالمزلاج » .

— إذن فليس من عادتك أن تغلقه بالمزلاج في كل ليلة قبل أن
تأوى إلى فراشك ؟

بالشيطانة ! .. إنها تود أن تعرف عادتي لترسم عخطها على هذا
الأساس ! .. وتقلب الحلق على حكمتي فأجبتها بحدة : « كنت - قبل
الآن - كبيرة ما أغفل بإغلاقه بالمزلاج ، لأنني لم أكن أجد ضرورة لذلك
ولا كنت أعلم بوجود خطر يتهددني أو كثر أعتشاء في قصر
(ثورنفلد) .. أما في المستقبل (وضعت على مخارج الكلمات التالية)
فسوف أبدأ اهتماماً بالغاً لاتخاذ كل حيلة وضمان قبل أن أخرج على
الاستلقاء على فراشي ! » .. فكان جوابها : « من الحكمة أن تفعل ذلك ،
فإن منطلقنا هذه عادة .. فيما أعلم .. ولم أسمع في حياتي قط أن المصوصي
حاولوا السيطرة على القصر منذ اتخذ سكناً ، برغم ما به - كما هو معروف -
من مصاف في صوان الآتية ، تساوى مئات الجبهات ، وبرغم أن عدد

الخدم هنا قليل جداً بالنسبة إلى قصر كبير كهذا ، نظراً لأن السيد
لا يقيم هنا طويلاً ، فإذا جاء - وهو أعزب - لم يحتاج إلى خدمة كثيرة .
ولذلك فإني أرى دائماً أن من الأفضل اتخاذ الحيلة ، بإزصاد الباب
ببجود ولوج المراء مخدعة . كما يحسن وضع المزلاج ليحول بين الإنسان
وبين أي شر قد يحوم حوله . إن كثيراً من الناس يا آنسة يكتلون كل
شيء للعناية الإلهية ، ولكني أؤكد لك أن العناية الإلهية لا تمنع من اتخاذ
الحيلة ، وأن الله يبارك هذه الوسائل إذا ما استعملت بعذر وقطة ! » .
وعندئذ انتهت من اللقاء خطيباً .. وكانت خطبة طويلة بالنسبة
لصمتها المألوف . وقد ألقاها برزانة المداخلات الدجاجلات . بينما ظننت
أنا واقفة جد مبهوطة أمام ما بدا لعيني من رباعلة جاشها النادرة ، وريائها
الحيوي . ثم ما لبثت الطاهرة أن دخلت ليغزل لنا : « إن غداً الخدم
يامرز بول سبعة على الثوب ، فقل تشغولين بالثوب » .

— كلا .. فقط ضعي شراي وبعض العصيدة على مائدة ، وسوف
أحلبها إلى الطابق العلوي .

— ألا ترغين في قليل من الخبز ؟

— قطعة صغيرة منه ، وقطعة من الجبن .. فقط !

— والماعز ؟ (نشاء من جاز النخل) .

— لا داعي له الآن ، سأزول قبل موعد تناول الشاي وأدبته بنفسى .

• وعندئذ انفتحت الطاهرة نحوي لتخبرني بأن مسز فيرفاكس في انتظارى
فانصرفت إذ ذاك . ولكنني لم أكذب أسع شيئاً من حديث مسز فيرفاكس

عن حريق السائر - لأنني كنت - أثناء تناول الطعام - مستغرقة بكل أفكارى الحائرة في أطوار (جريس بول) التي بدت لي لغزاً غامضاً ، كما كنت أشد استغرافاً في محاولة إدراك مركزها في (ثورفيلد) ، وفي التساؤل : لماذا لم يلق بها في غياية السجن في ذلك الصباح ، أو - على الأقل - لماذا لم تطرد من خدمة سيدنا ؟ .. لقد أعلن في الليلة الماضية جرمها فيما يشبه الجرم والتأكيد - فإني سيب غنى منعه من إعلان اتهامها ؟ ولماذا طلب مني كذلك أن أخفي الأمر وأكتمه ؟ .. كان من العجيب أن يبدو هذا السيد الجسور المنتقم ، المتعالي ، تحت راحة عمامة من أحط خدمه بحيث لا يبرق - بعد أن رفعت يدها للقضاء عليه - على أن يتهمها علانية ، على الأقل ، بمحاولة اغتياله ، إن لم يسع إلى عقابها على جرمها ! ولو أن (جريس) كانت شابة جميلة ، لوجدت ما يعملني على الظن بأن ثمة عواطف وإحساسات أرق من البصر والخوف ، هي التي ألقت قلب مستر روشتر نحوها ، أما وهي على ما كانت عليه من دمامة وكهولة ، فإن هذا الظن لم يكن مستغافاً .. ورحمت أقول لنفسي : ولكنها كانت شابة في يوم من الأيام - وكان شبابها معاصراً لشباب سيدنا - فقد أخبرني مستر فيرفاكس أنها تقيم هنا منذ سنوات عديدة - ولا أحسب أنها كانت حسنة ، ولكن لعلها كانت تنعم بأصالة في الرأي وقوة في الأخلاق عوضاً عما كان يتقصها من الميزات الشخصية . إن مستر روشتر من حواة الخلق الحازم والأطوار الغريبة ، وجريس غريبة الأطوار على الأقل ، فإذا لو أن نزوة من نزواته السابقة - وهي قلقة تهوّر جداً بالنسبة لطبيعة رجل مثله على جانب كبير من سرعة

الانفعال وصلاية الرأي - أسبلتني إلى رحمتها - فتكنها نتيجة لعدم تبصره من أن تفرض على أعماله سلطة خفية لا يفرى على الإفلات منها ، ولا يفرى على إخفاها ؟ .. ولكن ما إن بلغت هذه النقطة من الحس والتخمين ، حتى تاملت لحياتي جريس - أو مستر بول - بقائهما الربعة الخالية من الروث ، وبوجهها الدمع الجاف .. بل الغليظ ، فقلت لنفسي : كلا : مستحيل ! إن افتراضي لا يمكن أن يكون صحيحاً .. ومع ذلك - وهذا هتف في الصوت الخفى الذي يابعث عادة من قلوبنا - فأنت كذلك لست جميلة ، ومن المحتمل أن مستر روشتر يستأنفك - أو على أية حال هذا ما ظالماً أحسنت به .. وفي ليلة أمس .. تذكرى كلماته : تذكرى نظراته .. تذكرى صوته ! :

وتذكرت كل ذلك بسلام .. تجددت بوضوح ذكرى طبعته ، ونظراته ، ولغته .. وكنت إذ ذاك في حجرة الدرس وأقبل ترسم ، قلت عليها وأمسكت قلماً الرصاص أوجهه ، فطرت إلى وكأنها أدوعت ثم قالت بالفرنسية : « ماذا بك يا آتس ؟ .. إن أصابعك ترعد كورقة من أوراق الشجر ، ووجنتك متوردة .. في حرة الكرويز ! » .

- إنني أشعر بالحر بسبب الخشاش !

فعدت إلى رسمها - وعدت إلى تفكيري - بادرت نفسي من رأيي تلك الفكرة البغيضة التي استبدت في بشأن جريس .. تلك الفكرة التي جعلتني أشعر .. ولقد قارنت نفسي بها فوجدت أننا نقيضان .. ألم تقل ببسي ليفن - ألمرية السابقة بقصر جيتسبيد - حين زارتني في (لو وود) إنني سيدة بكل مافي الكلمة من معنى ؟ .. لقد كان ما قاله حقاً .. بل إنني

أصبحت أبدو خيراً مما كنت عندما رأيته يسي ، إذ ازداد لوني نوراً ،
وجسمي امتلاء .. وشهوت أكثر حيوية ونشاطاً بعد أن ازدهرت آمالي
وتضاعفت أسباب هثائي .

وتطلعت ناحية النافذة وأنا أقول : « إن المساء يقترب وقد انقضى
النهار دون أن أجمع صوتاً لمستر روشستر أو وفقاً لقدمي في المنزل ،
ولكنني سأراه بكل تأكيد قبل أن ينقضي الليل ! » .. وبقليل ما كنت أعتني
بالفداء في الصباح أخذت أتألف عليه الآن ، لأن طول الأرقاب أعياني .
حتى غلبت نافذة الصبر لا أقوى على مزيد من الاحتمال .. وعندما
أسدل الغس أستاره بالفعل ، وغادرتني أخيل تفضي وتلعب مع مرييتها
الفرنسية (صوفي) في غرفة الأطفال : اشتدت في اللهفة ، فرحت أترقب
رئين الجرس صبي أن يبدى في الطابق الأسفل ، كما رحت أتصنّف
لعل (ليلاه) تصعد برسالة لي . وكان يقول لي أحياناً أنني أسمع وقع
قدمي مستر روشستر ، فكنت أستدير إلى الباب متوقعة أن يفتح ليدخل
السيد عندي .. ولكن الباب ظل مغلقاً . ولم تدخل سوى الظلمة التي
أقبلت خلال النافذة .. يبدو أن الوقت لم يكن قد تأخر كثيراً .. فقد اعتاد
أن يرسل في ظلي في الساعة أو الثامنة . ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة
بعد ، ولا شك أن آمالي لن تخيب تماماً في هذه الليلة لأن لدى أشياء كثيرة
أريد أن أقضي بها إليه .. لسوف أتناول مرة أخرى موضوع جريس
بول لأسمع رده .. مسأله بسيطة : هل يعتقد حقيقة أنها هي التي أقدمت
في الليلة الماضية على تلك المحاولة البغيضة ؟! .. وإذا كان الأمر كذلك ،
فلماذا يحفظ بشرها سراً مكتوماً ؟! .. ولن أحفل إذا آثاره قضوي

وأخضبه ، فقد أصبحت أعرف كيف أعضبه ثم أرضيه ، على التوالي ..
بل إنني لأجد في ذلك متعة كبيرة ! ولكن غريزة أمانة كانت تمنعني
من التعلل إلى أبعد من حدود الإثارة . وعند هذه النهاية ، كان يلذ لي
أن أجرب مهارتي ، وأنا محظوظة بكل آيات الاحترام ، وبكل ما يليق
بمركزتي ، فأجاده بلا خوف أو انفعال مما يليق في وجهه على السواء .

وأخيراً ، دوى وقع أقدام على السلم ثم ظهرت (ليلاه) .. على أنها لم
تأت إلا لتخبرني بأن الشاي معد في غرفة مسز فير فاكس . فتأهبت على
القور مغتبطة بتزولي ، لأن ذلك يقربني — على الأقل وكما توهمت — من
مستر روشستر . فلما اجتمعت بالسيدة في حجرتها قالت : « لاشك في
أنك بحاجة إلى فنتجان من الشاي .. لقد أكلت قليلاً جداً في الغداء ، وأحسني
ألا تكوني اليوم بصحة جيدة ، لأنني أراك متوهجة الوجه ضموماً ! » .
— أوه .. أنا بخير ، بل أحسن حالاً من أي وقت مضى .

— إذن يجب أن تبهني على ذلك بما تبدين من شهوة للطعام ..
هل تسبحين بلى ، وعاء الشاي إلى أن انتزع هذه الإبرة من الخيط ١٤
ويعاد أن تجزت مهمتها قامت تسدل ستار النافذة ، بعد أن كانت
قد رفعت لتتم فيما اعتقد بأكثر قسط من ضياء النهار : بعد أن أدلم انقضى ،
واشتدت الظلمة .. وعادت تقول : « أليس معتداً هذا المساء ، ولو أن
المساء ليست ضافية الأديم ولا تكشف عن نجومها . وعلى كل فلا شك
أن مستر روشستر قد نعم بيوم يتناسب رجله » .

— رجلاه ؟ هل رجل مستر روشستر إلى مكان ما ؟! لم أكن أعرف
أنه رجل .

— آوه ١.. لقد خرج فور تناول طعام الإفطار .. ذهب إلى قصر
مستر إيشتون في (ليام) ، على مسافة عشرة أميال من الجانب الآخر
لقرية (ميلكوت) . وأقلب الظن أن هناك جماعة ستلقى هناك : اللورد
البحرام ، والسيرجورج لين ، والكولونيل دنت ، وغيرهم .

— وهل تتوقعين عودته الليلة ؟

— كلا ، ولا غداً .. بل أظن من المحتمل جداً أن يمكث أسبوعاً
أو أكثر ، فإن هؤلاء القوم الظرفاء ، العصريين ، إذا اجتمعوا ، أحاطت
بهم الأناقة والرشاقة وأسباب البهجة والانتشراح ، وتوقرت لهم من
أسباب اللهو والتسلية ما لا يحسدون معه داعياً إلى سرعة تفرق الشمل . وفي
هذه المناسبات — بوجه خاص — يكون الرجال ميتعين ، منشورين ،
وإن قصر روشستر في اجتماعات من مواهب العديدة وخفة روحه ما يجعله
محبوباً لدى الجميع .. إن السيدات يشغفن به ، وإن لم تصدق أن شكله
يرشحه لأن يروق في أظفارهن بالذات .. ولكنني أعتقد أن له من مؤهلاته
ومواهبه ، ورياضته وروحه وكبره عتده ، ما يعرض أي عيب في مظهره .
— وهل توجد في (ليام) سيدات ؟

— هناك مسز إيشتون وأيتها اللات — سيدات شابات في غاية
من الأناقة في الحقيقة — كما أن هناك القبيلة بلاتش ، والنبيلة ماري
البحرام ، وهما من أجل النساء فيما أعتقد . والواقع أنني شاهدت بلاتش
منذ ست أو سبع سنوات عندما كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها
إذ قدمت لتشهد حفلة راقصة أقامها مستر روشستر في عيد الميلاد .
وبالتك رأيت حجرة الطعام في ذلك اليوم ، وكيف كانت مزودة بأغل

زينة ، ومضاءة بالألوان المشرقة . كما أعتقد أن الحاضرين بلغوا خمسين
من السيدات والسادة ، كلهم من أكبر الأشراف في المقاطعة . وكانت
مس بلاتش انجرام أجل الموجودات في ذلك المساء .

— اتقولين إنك رأيتها باسمز فيرلاكس ، فما شكلها ؟

— نعم رأيتها ، لأن أبواب حجرة الطعام كانت مفتوحة على
مضاربها . ولمناسبة عيد الميلاد سمح للخدم بأن يجتمعوا في القاعة
ليستمعوا إلى بعض السيدات ومن يقين ومنعزل . ودعاني مستر وشستر
للدخول ، فجلست في ركن هادئ أراقب وأشاهد ، فلم أر في حياتي مثل
ذلك المشهد الرائع ، وكانت السيدات ترتدين أفخر الثياب .. معظمهن
أو الشابات على الأقل .. فتجل جمالهن ، ولكن مس انجرام كانت ملكتهن
بكل تأكيد !

— ماذا كان شكلها ؟

— قاعة القاعة : جميلة الصلور ، متحيرة الكثيف ، ذات نحر
طويل ورقيق ، وعجا أحر صاف في لون الزيتون ، وقصات ثييلة ،
وعينين كحليتين مسز روشستر : سوداوين كبيرتين لها وميض الجواهرات .
هذا إلى شعر جميل حالك السواد ، تفتت في تسوية وعفصت من الخلف
على هيئة تاج من الضفائر ، وأسدلته من الأمام خصلات ثم أر في حياتي
ما ي فوقها طولا ونعومة وانساقاً .. وكانت ترتدي ثوباً ناصع البياض ،
وتضع على كتفها وسدراها وشاحاً بلون الكهرمان ، عقدته على جانب
من خصرها وأرخت أعدايه الطويلة المزركشة إلى ما تحت ركبتها ..

وكذلك كانت تضع في شعرها زهرة بلون الكهرمان ، تناقض لون
جدائلها الباقية :

.. لقد كانت بالطبع موضع إعجاب شديد ؟

.. نعم في الحقيقة ، لا حياءاً فحسب ، وإنما لما أثرها وعاشها الأخرى ..
فقد كانت واحدة من فئتين بمصاحبة سيد عزف على البيانو ، كما كنت
مع ميسر روشستر :

.. ميسر روشستر ؟ لم أكن أعرف أنه يحسن الغناء ؟

.. أوه .. إن له صوتاً عبقراً جليلاً ، ودفقة موسيقياً مرمفاً .

.. ونفس الجرام .. كيف ترين صوتها ؟

.. صوت غنى وقوى جليلاً . وكانت تغني بأدبة الابتهاج والمرح ،
وقد تعمت بالإسقاء إليها .. ثم عزفت فيها بعد ، ولست ممن يستطيعون
الحكم على الموسيقى ، ولكن ميسر روشستر يستطيع ذلك وقد سمعته
يقول إن أداءها على جانب ملحوظ من المهارة .

.. وهذه النيفة الحناء ذات المواهب .. ألم تزوج بعد ؟

.. لا يبدو ذلك ، قلت أظنها وأختها تملكان ثروة كبيرة ، لأن
معظم أملاك اللورد انجرام العجوز كانت موقوفة على وريث معين ،
ولذلك استولى ابنه الأكبر على كل شيء تقريباً !

.. ولكنك أتساءل : لماذا لم يعل إليها أحد من النبلاء الأثرياء

أو السادة .. ميسر روشستر مثلاً .. إنه غنى ، اليس كذلك ؟

.. بلى ، ولكن الفرق بين عزميهما كبير كما ترى ، فإن ميسر
روشستر في حوالي الأربعين من عمره بينما هي في الخامسة والعشرين :

.. وماذا في هذا ؟.. إن كثيراً من الزوجات غير المتعادلة تعقد في
كل يوم .

.. هذا صحيح ، ولكني لا أتصور أن ابني ميسر روشستر أبد
فكرة في هذا الصدد .. إنك لم تأكل قط ، بلى إنك لم تذوق شيئاً
تقريباً منذ بدأت في تناول الشاي !

.. كلا .. إنني شديدة العطش ، بحيث لا أقوى على أكل شيء ماء ،
فهل تسبحين لي بقلح آخر ؟

وكنيت أهم بالعودة مرة أخرى إلى احتفال زواج ميسر روشستر
بد (بلانش) الحناء ، لولا أن أفيل دخلت إذ ذاك ، فالتفت الحديث
يجري آخر ! .. وعندما خلوت مرة ثانية إلى نفسي ، رحبت أستعرض
المعلومات التي حصلت عليها ، وجعلت أنطلع إلى قلبي لأعبر غور
الأكاره ومشاعره ، وأحاول أن أعيد ما جمع منها في بيده الخيال الشاسعة
إلى حظيرة العقل والإدراك . وأفتت حكمة من نفسي ، استدعيت إليها
الذاكرة شاهدة على الأماني والرياحات والمشارع التي خالجتني منذ ليلة
أمس ، وشاهدة على حالي العقلية العامة التي اتفقت فيها منذ أسبوعين
تقريباً ، ثم تقدم العقل فروي بطريقته المأدلة قصة واضحة غير متدفقة ،
أظهر فيها كيف رفضت ما هو حقيق ، والتهمت بسرعة ما هو مثالي
خيالي .. ثم نظفت بالحكم التالي :

لم ينقسم نسيم الحياة قط من هو أحق من (جين ليو) .. بل ليس
ثمة من يبرها بلاهة وتعلقاً بالخيال وهي تنعم نفسها بالكاذيب المعسولة
وتنتعج السقم كأنه رحيق الحياة !

وقلت أحدث نفسي : أنت ... أثيرة عذبة مستر روشستر ؟
هل أوتيت القدرة والقوة على مرضاته ؟ هل أنت من الأهمية يمكن
عنده ؟ إليك عني فإن حافلتك تستعني ! لقد استقيت السرور والابتهاج
من عبارات عابرة تدل على الإيثار .. عبارات ذات معنيين بديهي سيد
كريم المحدث ، ورجل خبير بالعالم ، نحو مزمومة غريبة : كيف
تجربين أيها الغرة المسكينة الحقة ؟ ألم يفر حيك لذاتك ومصالحك
الخاصة على جعلك أحكم وأعدل من ذلك ؟ لم تعيدني لنفسك في هذا
الصباح المشهد التقصير الذي وقع في الليلة الماضية ؟ ألا عطى
وجهك وأخجل ؟ لقد قال شيئاً في امتداح عينك ، أليس كذلك
أيها النعمة العبداء ؟ ألا فافتحي جفونهما الذابلة ، وتبينى تضاهتك
اللعينة ! ليس يجدي امرأة أن يغارها من هو أرفع منها ، ولا يمكن
أن يعترم الزواج منها .. بل إنه يلجئون من النساء جريماً أن يدعن الحب
ينفذ في قلوبهن ، لأنه إذا لم يقابل بمثل ، أو إذا لم يدركه أحد ، سوف
يلتهم الحياة التي تغذيه .. وحتى إذا اكتشفت أمر هذا الحب ولقي من
يستجيب له ، فلا بد من أن يؤدي إلى سراب خادع .. إلى تقار موجلة
لا خلاص منها ولا نجاة .

ألا أصغى إذاً يا جبين زير إلى الحكم الصاغر عليك : غداً ضعي
المرأة أمامك ، وارسمي بالفتاير صورتك بكل أمانة وزاخرة دون أن
تظلي من شأن أي عيب أو نقص فيك . ودون أن تخدعي أي سطر من
سطور التجاعيد الحسنة ، أو تخفي أي شامة لا يعجبك . ثم اكثبي
تحفاً : (صورة معدة عديمة الأهل ، عديمة المال ، عديمة الجمال) :

وخذي بعد ذلك قطعة من العاج الناعم - ولديك قطعة معدة في صندوق
الرسم - ثم اخرجي لوحة الألوان ، وامزجي أحدثها وأجملها وأزهارها
واختاري أرق الأقلام المصنوعة من شعر الجمال - ثم ارسمي أجمل وجه
يمكن أن تتصوره بأخف الظلال ، وأبدع الألوان - طبقاً للوصف
الذي سمعته من مسز فيرفاكس عن بلانش انجرام : ولا تنسي حقائق
شعرها الأسود كجناح الغراب أو عينيها الشريقتين : ماذا ! إنك
ترتدين بفياك إلى مسز روشستر ، لتخذي منه نموذجك ! النظام !
لا تدعي أنفك يسيل ، ولا يمال العواطف أو الأسمى ، ولن أحصل
منك سوى التعقل والحزم ! تذكرى الأسرار الجليلة المهيبة ، ولكنكم
مع ذلك منسجمة متناصفة .. وتذكرى الجيد والبحر الإغريقين ..
ووضحي للعين الدراع المرفوعة التي تهب الأنظار : وكذلك اليد البيضاء
الرفيعة . وإياك أن تخدعي انخام المساسي ، والسوار الذهب ، وارسمي
الثوب بأمانة بما فيه من دنس غالية : ودعس يائس .. وكذا الوشاح
الجميل والوردة الذهبية ... ثم سمى ذلك (بلانش .. سيدة مهلبة
عريقة الأصل) .. وكلما خيل إليك في المستقبل أن مسز روشستر
يحسن بك الظن . أخرجي هاتين الصورتين ، وقارني بينهما - وقولي :
« من المحتمل أن يظهر مسز روشستر بحب هذه السيدة النبيلة إذا هو
آثر النضال من أجل هذا الحب - ولكن هل يعمل أن يعير فكرة جديدة
لهذه العاية المعدمة الحقة ؟ » .

وقلت في حزم : سوف أفعل ذلك .. وإذا وثقت نفسي على
ذلك العزم ، هدأت ثم استغرقت في النوم .

ويرت يوعدي .. وكفى ساعة أو اثنان لكي أوسم سورتي
رسماً خطيباً بالقلم . وفي أقل من أسبوعين آمنت صورة مصغرة في
لون العاج من بلاش التبرام كما تخيلتها ، فهدت بوجهها الجميل الذي
ما أن فارته برأسي الذي رسمته بالطباشير ، حتى ظهر الفارق شامعاً
يضطربني إلى مزيد من ضبط النفس .. ولقد أفدت من هذه المهمة ،
لأنها شغلت رأسي ويدي ، كما عززت وثقت الانطباعات الجديدة
التي وددت ألا تعني من قلبي .. وقبل أن يغضي زمن طويل : كنت
حققة في أن أهيئ نفسي على انتظام النتائج الذي أرغمت مشاعري على
الإذعان له ، إذ أنني استطعت بفضل أن أواجه الأحداث التالية بهدوء
بليق في ، ولو لا هذا التأهب لمواجهة الأحداث ، لما أصبحت قادرة
على الاختفاء بهدوءي - ولو ظاهرياً - أمامها !



الفصل السابع عشر

• انقضى أسبوع ولما تصل أنباء جديدة عن مستر روشستر ،
واكتملت عشرة أيام دون أن يعود . وقالت ممر فيركس إنها لن
تبعث إذا جو غادر (لياس) فاجبه مباشرة إلى لندن . ومنها إلى
أوروبا . فلا يرى أحد وجهه في (ثورفيلد) قبل مضي عام .. فلقد
طالما غادرها من قبل في هدوء .. بغتة ، وعلى غير توقع ! وبدأت
- عندما سمعت هذا منها - أشعر ببرودة عجيبة تتملك قلبي . كنت
أسلم نفسي - في الواقع - لإحساس بحية الأمل ، يجعلني عليه سقيمة ..
بيد أنني سرعان ما تمالكت زمام رشدي ، واستجمعت مبادئي ،

فما لبثت أن هيمت على مشاعري - ونفابت بقدره عجيبة على الخطأ
الذي كنت أخطئ فيه إذ ذاك ، وأخذت أسنين مدى الخطأ الذي
أوحى إلي بأن حركات مستر روشستر أهمية حيوية بالنسبة لي . ولست
أعني أنني حققت من شأن نفسي بالمذكور الدليل في أنني دونه شأنًا
ومكانة ، بل إنني - على العكس - رحمت أقول لنفسي : « ليس لك
سيد (ثورفيلد) شأن ، فما عدا أنك تتوالى القرب الذي يمنحك
إياه في مقابل تعلم الفتاة التي يكتلها ، فخلق بك أن تحمدى له فضله
إذا هو أولئك المعاملة المحترمة الكريمة التي يجوز لك أن توقعها عندما
تؤدين واجبك .. وثق أن هذه هي الرابطة الوحيدة التي يجوز قيامها بينك
وبينه ، فلا تتخذيه محوراً لمشاعرك المرحفة ، من اغتباطاتك ، إلى شجونك ،
إلى غير ذلك .. إنه ليس من طبيعتك ، فالزني مقامك ، واحترمي نفسك ،
ولا تغدق كل ماني قلبك وروحك وقواك من حب مشرب على شخص
لا يتشده - وحيث لا يقابل مثل هذا الحب بغير الأصدقاء » .

ومضت تؤدي على الهدوء . ولكن أفكار أميعة ظلت
تراود رأسي بين البينة والأخرى عن أسباب تيرولي مبارحة (ثورفيلد) .
وظللت - على الرغم مني - أصبوغ في ذهني إعلانات ، وأؤلف
تكلمات بشأن المراكز الجديدة التي قد أحصل عليها إذا أنا بارحت
مركزى الزمان .. ولم أر داعياً لكبح هذه الأفكار عني أن تنبت
وثوقاً ما وسعها من ثمرات :

وبعد أن انقضى على غياب مستر روشستر زهاء أسبوعين ، جاء
البريد المطبوع إلى بيبي فيركس ، فالتفت ناحيتي وقالت : « إنه من

مستر روشستر ، وأفلتا سنعم الآن ما إذا كانت عودته متوقعة أو غير متوقعة ؟ !

وفيما كانت نفث انخافم الشمع وتنصفح الخطاب ، استرسلت في تناول قهوتي ، إذ كنا على مائدة التطور . وكانت القهوة ساخنة ، فعزوت إليها ذلك الوميض المتقد الذي تورديه وجهي فجأة .. أما لماذا ارتجفت يدي ؟ ولماذا السكب برحلي في الطبق نصف ما كان في الفصجان ؟ فأمور لم أفكر أن أفكر فيها .

وقالت مسز فيرفاكس وهي ما زالت تمسك بالخطاب أمام منظرها : حسن .. لاني أفكر أحياناً في أننا نعيش في مسكون مفرط ، ولكن هاجى الفرصة قد سنحت للاثمالة في العمل . لفترة وجيزة على الأقل .. وقبل أن أجمع للنسي بأن أسأفاً أيضاً ، وبطت شريطاً في مرولة أدبيل صادف أن انكث ، كما قدمت شاة قطعة من الفطائر . ثم أعدت ملء كؤوبها باللين .. وأخير ؟ قلت في غير الكثرات : « أفكر من غير المحتمل أن يعود مسز روشستر في القريب العاجل » ؟

— بل إنه سيعود بكل تأكيد .. بعد ثلاثة أيام كما يقول ، أي في يوم الخميس القادم . ولن يكون بمفرده ، وإن كنت لا أرى كم من سادة (لباس) سيأتون معه ، فقد أرسل بوصى بإعداد خير حجرات النوم ، ويتنظيف المكتبة وحجرات الاستقبال . وسوف أستعين بفندق جورج .. في ميلكوت — وبأى مكان آخر ، على تزويد المطبخ بالأيدى العاملة .. فضلاً عن أن السيدات سيصلحن وصيفاتين ، ومياقي السادة بخمسة ، ومن ثم فسوف ينزل البيت !

ثم التهمت مسز فيرفاكس فطورها ، وخرجت لتبدأ في القيام بواجباتها . ولقد زدهت الأيام الثلاثة بالعمل كما توقعت ، وكنت أحسب أن جميع حجرات (ثورنكلد) نظيفة ومرتبحة أحسن ترتيب ، ولكنني تبيئت أنني كنت محطلة عما دءا إلى الاستعانة بثلاث نسوة . ولم أر في حيائي من قبل أو منذ ذلك الحين ما شامتة من كنس ومسح ومن غسل الأبواب والنوافذ . ونفث الأيسطة . وإزال الصور ثم إعادة إلى أماكنها ، وحقل المرايا والريشات . وإشعال النار في مدفآت المدافع . وتهوية أغطية الأسرة وحشباتها . وكانت أدبيل تنوالب بين هذا كله ، وكانما استخفيها الطرب لمشاهدة الاستعدادات التي كانت تتخذ لاستقبال المجاعة ، والأمل المرتقب في وصولهم . وكانت تدعو صوفي للعناية بزيئتها وملابسها وإعداد ما كان بحاجة منها إلى الكي ، وتهوية الجلبدها منها ، ثم ترتيبها .. ! ولم يكن لها من شغل سوى أن تحوم في الحجرات الأمامية ، وتب فوق الأسرة ، وتتاقى على الحشبات والوسائد المتركة أمام المدفات التي كانت النار تنطلق فيها وتتر خلال مدافعها . أما الواجبات الدراسية ، فقد أعطيت أدبيل منها ، لأن مسز فيرفاكس حملني على معاونتها : فكنت أقضى النهار في مخزن الأطعمة ، أعالونها والعلانية ، أو بالأحرى أوعفهما ! .. وتعلمت كيف أصنع حلوى (الكسترة) ، والكعك المحشو بالجلين ، والفطائر الفرنسية ، وكيف أنظف الطيور من ريشها ، وأزين صحائف الحلوى :

• وكان من المرتقب أن تصل الجماعة بعد ظهر يوم الخميس ، وأن بعد العشاء في الساعة السادسة . ولم يعد لدى - في تلك الفترة - وقت للاستقراق في أفكارى الواهمة ، بل اعتقد أنني كنت ككفيري ، بادية النشاط والاغتياب ، على أنني كنت أصاب - بين فترة وأخرى - بصدمة يفتقر معها سرورى ، فأجدنى قد انقلبت على الرغم منى إلى عالم من الشكوك والمواجيس والتخمينات الكثيرة .. وذلك عندما كانت عيناي تفتان مصادفة على الباب القام على السلم المفضى إلى الطابق الثالث . وكان قد ظل مغلّقاً بضعة مستمرة في الفترة الأخيرة . وكنت أراه من حين لآخر يفتح بيده ، ثم تنقلت خلاله جريس بول بقلنسوتها النظيفة ومرولتها البيضاء ، ووشاحها الناصع .. وكنت أظفر سروراً عندما كنت أراها تنساب إلى خارج الباب ، وتسلق في الرعدة بخطاها المداودة المكتومة - وهي تتنعل خفياً طريقتين - وعندما كنت أشاهدها تتطلع إلى مخادع النوم المائلة بالمرج والمرج ، ثم تلتق لإحدى الخادومات ، من اللاتي استزجرت مؤقّتاً ، بنصيحة عن خير وسيلة لتسقى المدفأة ، أو لتنظيف رفها الرخامى ، أو إزالة البقع عن الجدران المكسوة بالورق ثم تهب إلى المطبخ - وكان من عادتها أن تغيب إليه مرة في اليوم - فتناول غداها ، أو تدخن غليوناً ، ثم لا تلبث أن ترجع - حاملة عشاءها - إلى صومعتها .. إلى الحجرة الممتعة التي أوردت لها في الطابق العلوى ، ولم تكن تنضى مع زميلاتها سوى ساعة واحدة من كل يوم ، أما بقية وقتها ، فكانت تقضيه في إحدى الحجرات المنخفضة السقف ، والمبذبة بشبّ البوط ، في الطابق الثالث ، حيث تجلس منهكة في

الحفاكة ، دون ما أؤس أو ريق ، وكأنها حية في (زُرْزارة) ١ . وكان أغرب الأمور كلها ، أن أحداً من أهل القصر لم يكن يرغبها أو يعجب لعاداتها ، أو يتحرى عن مركزها وعملها ، أو يرئى لوحدها وعزلتها ، سوى .. وإن كنت قد سمعت مرة إلى جزء من حديث دار بين (لياه) وإحدى الأجيريات ، وكانت (جريس) محور .. وكانت لياه قد قالت شيئاً لم أسمعه ، فأجابها الخادمة : « ولعلها تحصل على أجر طيب ؟ » .. فقالت لياه : « نعم ، لىأتى أتناول مثل أجرها ، لا أعنى بذلك أنني أنظر من ساعة أجرى ، إذ لا يخل ولا تغيير في ثورتيه ، ولكنه لا يعدل خمس ما تناوله جريس ، وهي خادمة بلا عمل سوى أن تذهب إلى المصرف في (ميلكوت) كل ثلاثة شهور ، فلا عجب إذا ادخرت ما يكتفى لأن يعمل نفسها لو أنها شامت أن ترحل .. بيد أنها - فيما اعتقد - قد ألفت الحياة في القصر ، كما أنها لم تتجاوز بعد الأربعين من عمرها ، وما زالت قوية قادرة على أي شيء ، فلم يؤن بعد أن تعزل العمل » .

فقالت الخادمة : « أظننا نعيد العمل ؟ » .. فقالت لياه بلهجة لها مغزاه : « آه .. إنى تفهم ما يجب عليها عمله ، وليس كل إنسان يستطيع ملء مكانها ، ولو أعطى الأجر الذى تناوله ؟ » .

— ليس الأمر كذلك ! إننى لأتساءل هل السيد ؟

وكانت تهم بالاسترسال في حديثها ، لولا أن حانت من (لياه) الظافة فشهدتى .. وإذا ذلك وكثرت ريفتها بمرفقتها .. وسمعت المرأة تهمس : « أحي لا تنرى ؟ » .. فهزت لياه رأسها ، وانقطع الحديث

بطبيعة الحال ، وكل ما أدركته هو أنه يوجد في (ثورنفلد) سر وأنى
أقصى عدداً عن الإلزام بهذا السر .

● وقدم يوم الخميس .. وكان كل شيء قد أعد تماماً في الليلة
السابقة .. فازدانت الأسرة باستائر وشيت بالزهور . وبالخفة مشقة
ناصعة البياض . وبخاضد الزينة مشقة : وأثابت مصقول : وزهور
انتفدت في أوان .. وبدت الحجرات والقاعات في أبهى ما يمكن أن
تصنعه أيدي البشر .. كما كان الجو لامعاً ، وقد صقلت الساعة الكبيرة
ودرجات السلم وسياجها ، حتى بدت برآقة كالزجاج .. وفي حجرة
المائدة ، كان الصوان يأنق بإخض من مصاف ، بينما انتشرت في قاعة
الاستقبال وطلوع النوم الرئيسي أوان حقلت بأربع الزهور .

ولذا حان الأصيل ، ارتدت مسز فيرفاكس ثوباً من (الساتان)
الأسود — كان غير ما لديها من ثياب — وقفازاً . وساعة من الذهب .
فقد كان متوطناً بها أن تستقبل السيدات وترافقهن إلى الحجرات المعدة
لهن ، وغير ذلك . أما أدبلي ، فلم تكن أمامها — كما اعتقدت .. فرصة
لاستقبال المدعوين في ذلك اليوم . فأمرت مربيتهما بأن تلبسها ثوباً
قصيراً من الحرير ، لإرضاء لها .. ولما أنها ، فلم تكن في حاجة إلى
تغيير ملابسها . لأنني لن أدعي لمغادرة حجرة الدراسة التي غدت
« ملاذاً أرناح إليه في أوقات الضيق » !

وكان اليوم من أيام الربيع الصافية ، المعتدلة : التي نكثرت في أواخر
مارس وأوائل أبريل ، فتفيض على الأرض بهاء وكأنها تبشر بوفود

الصيف . وبدأ النهار يعتكر : ولكن المساء كان حاراً ، فجلست في
غرفة الدراسة أشغل . وقد تركت النافذة مفتوحة .. ودخلت مسز
فيرفاكس ترفل في ثوبها ثم قالت : « لقد تأخر الوقت ، ولكنني سعيدة
لأنني أمرت بإعداد الطعام بعد الموعد الذي ذكره مسز روشستر
بساعة .. فهاهي ذي الساعة قد بلغت السادسة ولم يحضروا . وقد أرسلت
جون ليراقب الطريق ، إذ لا سبيل إلى التطلع إلى مسافة بعيدة في اتجاه
ميلكوت » .. ثم مضت إلى النافذة وقالت : « ها هو ذا ! » وأطلت
من النافذة تسأل : « هل من أنباء يا جون ؟ » .. فكان جوابه : « إنهم
قادمون يا سيلتي ، سيصلون بعد عشر دقائق ! » .

وجرت أدبلي إلى النافذة ، فعبثت متوخية أن أقبل جانباً خلف
الستائر ، بحيث أستطيع أن أرى هون أن يراني أحد .. وبدت الدقائق
العشر التي ذكرها (جون) طويلة جداً ، ولكنني سمعت أخيراً جلبة
العجلات ، ثم تقدم أربعة فرسان تبعهم عربان مفش حنان تمطشان بأوشحة
ترقرف وريش يتأوج .. وكان بين الفرسان سيدان في زهرة الشباب ،
تشعل عليهما الجرة والجسارة ، بينما كان الثالث مسز روشستر نفسه ،
على جواده الأسود — الذي كان يسمى (مسرور) — وقد أخذ
(بايلوت) يثواب أمامه .. وإلى جانبه كانت تركب سيدة ، على جواد
أخر .. وكان الاثنان في طليعة الجماعة .. وكانت بزة ركوب السيدة
ملوينة ، تكاد تكتس الأرض ، بينما وأح وشاحها الشفاف يتلاعب
مع التسم ، ويختلط بتداليل شعرها الفاعم . وصاحبت مسز فيرفاكس :
« من أين جاء ! » .

وهو ولت هابطة إلى حيث كان ينبغي أن تقف ، وما لبث الركب أن استدار حول أحد أركان القصر ، ثم اختفى عن الأنظار . وتوسلت أدبيل إذ ذاك أن أعياها تنزل بدورها ، ولكنها أخذتها على ركبتيها وأقنعها بأن من الواجب ألا تظهر أمام السيدات ، سواء الآن أو فيما بعد ، إلا إذا أرسل في طلبها ، حتى لا يغضب مستر روشستر . وكان من الطبيعي أن تلطف بعض الدموع عندما أبلغتها ذلك ، ولكن ما إن أظهرت لها مشيئ الحزم ، حتى وضعت أخيراً بتجفيف دموعها :

ودوت في البهو أصوات الإيتاج .. خطيئاً متناسقاً من أصوات الرجال العميقة ، ونبرات السيدات التي تشبه زنبق الأجراس القصية ، يعلوها صوت سيد (ثورفيلد) الرنان وهو يحكي قصائده الجسناوات وخيوطه الظرفاء النازلين تحت سقفه . ثم سمعت خطرات خفيفة على الدرج ، أعقبها وقع أقدام في الردهة ، وضججكات ناعمة رقيقة ، وضجيج فتح الأبواب وإغلاقها .. وما لبث السكون أن ران لحظة ، فقالت أدبيل التي كانت تنابع كل حركة بانتياء : « إنهن يغيرن ملابسهن ! » . ثم تهتت وقالت بالقرنسية : « عندما كانت ماما تستضيف في بيتنا أناساً ، كنت أتبعها أينما ذهبت ، سواء في الصالون أو في مخادعهن . وكثيراً ما كنت أفرج على النساء وهن يسرحن شعورهن أو يرتدين ملابسهن .. كان ذلك شائعاً جداً .. وهذه الطريقة يتعلم الإنسان ! » .

— ألا تشعرين بخوف يا أدبيل ؟

— نعم يا أخته ، فقد مضى علينا أكثر من خمس أو ست ساعات دون أن نأكل شيئاً .

— حسناً .. الآن والسيدات في غرفهن ، سأجترى على النزول لأتيك بشيء تأكلينه .

وغادرت (مألوى) في حيلو . فهبطت سلماً خفياً إلى المطبخ ، الذي وجدته زائراً بالخدم الذين جاءوا برفقة سيادهم .. ولكنها تمكنت من الحصول على ما أريد من طعام ثم عدت بسرعة .. على أنني ما كنت أبلغ الردهة ، حتى سمعت طينياً يهني إلى أن السيدات يوسكن على مقادير حجراتهن .. ولم يكن في وسعي أن أقدم نحو حجرة الدراسة ، دون أن أرى بعض تلك الأبواب . ولكني أضافت أن أفتأ بما كنت أحل من أطعمة ، تسمرت في مكاني الذي كان مظلماً — في العادة — خلوه من النوافذ . وقد اشتدت ظلمته إذ ذاك لغروب الشمس وتجمع الغسق .

وسرعان ما أخرجت الحجرات ساكناتها الجميلات : الواحدة تلو الأخرى ، وقد ارتدت كل منهن ثوباً قشياً يلتصق في الأصل : ووقفت لحظة في طرف الردهة من الناحية الأخرى ، فتحدثن قليلاً ، ثم عطفن الدرج في سكون ، وبلا ضوضاء ، وكأنهن حباة مؤلفة تتحلى من فوق أحد التلال .. ولقد ترك هذا المنظر الجماعي في نفسي أثراً الأناقة عالية القوم لم أعياها من قبل .. ووجدت أدبيل تسترق النظر من فرجة باب حجرة الدراسة ، بعد أن تركته موارياً ، ثم صاحت بالإنجليزية : « أوه . يودى لو أذهب إليهن .. أنظرن أن مستر روشستر سوف يرسل في طلبها بمجرد انتهاء العشاء ؟ » .

— كلا .. الواقع أنني لا أظن ذلك ، فإن لدى مستر روشستر

أموراً أخرى تشغل تفكيره . دعى السيدات وشائين الهالة ، فخلعت
تشاھدتيهن غداً .. هالك طعام العشاء .

وكانت في الواقع جوعانة ، ومن ثم شغل حلم اللذائج والقطائر
تفكيرها فترة . ولقد أحسنت صنماً حين أحضرت هذا الطعام ، وإلا
لنقضت أنا والفناء وصوفى - التي أعطيتها قطعاً - لفرمان من العشاء ،
إذا كان كل إنسان في الطابق الأسفل مشغولاً عنا ، وقد استغرق العشاء
وفقاً لطويلا . فلم تقدم الحلوى إلا بعد أن جاوزت الساعة التاسعة ،
ثم أخذت الخدم يهرولون بصيصيات القهوة . وظلت أدبل ساهرة إلى ما بعد
موعد نومها . إذ صارحتني بأن النوم لن يوانيتها ظالماً ظلت الأبواب
- في الطابق الأرضي - مفتحة وتغلغ ، والناس في هرج ومرج .. هذا
إلى أنها كانت تمنحني أن تأتي دعوة من مستر روشستر بعد أن تكون قد
خلعت ثيابها ، وعندئذ أية خسارة تكون ! .. لهذا انصرفت إلى
تسليتها بالقصص ، حتى زهدت في الإصفاة فصحبها إلى الردهة ..
وكان البيو - في الطابق الأرضي - مضاء ، فوجدت الفتاة نائمة في
مشاهدة الخدم وهم يروحون ويغدون ، حتى إذا انقضى شطر كبير من
الليل ، انبعثت من حجرة الاستقبال موسيقى من البيانو الذي نقل إليها ،
فجلست وأدبل على رأسى الدرج تصغى . وسرعان ما ارتفع مع صوت
البيانو صوت غنى الثبرات .. صوت سيدة كانت تغني بأعذب الألحان .
ثم شاركتها في الغناء رجل ، فلما انتهى ذلك اللثنائي تعالت الضحكات
والهاندات . ولكنني وقد أصحنت السمع طويلا ، اكتشفت فجأة أن
أذنّي أخذتا تحللان الأصوات التي اختلعت وامتزجت ، وتحاولان

تمييز صوت مستر روشستر خلافاً : وعلى الرغم من أنني وفقت إلى
ذلك ، فإني وجدت أمامي مهمة أخرى ، هي محاولة استيعاب ما كان
يقول !

ودقت الساعة الحادية عشرة . فطلعت إلى أدبل التي كانت تنكبي
إلى كفتي . فإذا بعينيها مغلقتان بالنوم ، فحملتها إلى فراشها . أما السيدة
والسيدات . فلم يأووا إلى حجراتهم إلا في نحو الساعة الواحدة صباحاً !
وكان اليوم الثاني في جمال سابقه .. كمرسته الجميلة أرحلة إلى مكان
غريب . فانطلقوا قبيل الظهر . بعضهم على ظهور الجياد ، والبعض
الأخر في العربات . وشهدت اللعاب والإياب : فوجدت أن من
الحرام خلّت - كما كانت من قبل - قبلة الأنظار .. وكان مستر
روشستر يسير بجانبها على جواده - كما كان يفعل عنه قديمهما - على
معدة من الآخرين . وأبدت تلك الملحوظة إلى مسز فيرفاكس - التي
كانت واقفة معي خلف الناظرة - قائلة : « لقد قلت إنه ليس محتملاً
أن يفكر في الزواج . ولكن انظري كيف يبدو واضحاً أن مستر
روشستر يفضلها على غيرها من السيدات ! .. فأجابني ! » نعم ..
لئن أجرو الآن على القول بأنه معجب بها دون شك ! ..

- وهي معجبة به .. انظري كيف تميل برأسها نحوه ، وكأنها
تتمسك إليه بسر خاص .. كم أود أن أرى وجهها ، فإني لم ألقه حتى
الآن !

- سوف تشاھدنيها هذا المساء ، فقد أبلغت إلى مستر روشستر بأن
أدبل نهاراً إلى أن يقدمها للسيدات : فقال « أوه . دعها تدخل إلى حجرة

الاستقبال بعد العشاء ، وأطلقنى إلى مس لير أن تراقبها ..

نعم .. قال ذلك نادياً منه فقط .. ولا حاجة إلى الذهب .

لقد أخبرته بأنك لم تعودى الاختلاط بالناس ، وأنتى لا أملك ترافحين للظهور أمام جماعة مرحلة .. أكثرها من الغراب .. ولكنه أجاد بليجته السريعة : « هراء .. إذا عارضت وتغبريا بأن هذه رغبتى الخاصة ، فإذا أصبرت على الاعتراض فقولى لى لى سأذهب وأجىء بها .. فى حالة عدم الامتثال ١ . ١ »

سأنتبه عن هذا العناء .. سأذهب إذا كان لا مهرب أمامى ، ولكنى سأفعل ذلك كرامة .. هل ستكون هناك يا مرسير فراكس ؟

كلا : فقد توصلت إليه أن يضىئ ، فقبل توصلانى : والآن سأخبرك كيف تضادى الاضطراب الذى يلازم المرء حين يلج مكاناً يضطر فيه إلى تكلف الرسميات ، فإن الدخول هو أبغض ما فى المهمة : ينبغي أن تدعى إلى غرفة الاستقبال وهى خالية - قبل أن تغادر السيدات حجرة المائدة - واختارى لك ركناً هادئاً ، اتخذى فيه مقعدك ، ولا حاجة تدعوك إلى البقاء طويلاً بعد دخول السادة ، إلا إذا راق لك ذلك .. فقط دعى مستر روشستر براك هتاك : ثم تسالى دون أن يراك أحد !

هل تعتقدن أن أولئك القوم سيمكثون طويلاً ؟

وبما أسبوعين أو ثلاثة .. لا أكثر ، لأن السير جورج لين الذى انتخب أخيراً عن مقاطعة (ميلكوت) سيضطر إلى السفر إلى (لندن) بعد عيد الفصح ليتبوأ مقعده ، كما اعتقد أن مستر روشستر

سوف يرافقه ، وإنه ليدعشنى أن طالبت إقامته فى (ثورنفيلد) حتى الآن :

• ورحت أرقب - يضىئ من الارتياح والفرح - اقتراب موعد الذهاب إلى حجرة الاستقبال ، ومعى أمانتى (أديل) التى استخفها الفرح طوال اليوم ، بعد أن سمعت بأنها سوف تقدم فى المساء للمدعووات ولم تهدأ لها نائرة إلا عندما تولت صوفى إلياسا ثيابها ، ثم سكنت سكناً تاماً عندما بدأت عملية تسوية جدائل شعرها ، فبدت فى رزاة القاضى : ولم تكن فى حاجة بعد أن ارتدت ثيابها إلى أن أتبها إلى المحافظة على هندامها ، إذ جلست فى مقعدها الصغير وحيطة ، بعد أن رفعت أهداب ثوبها ، حتى لا تشخ ، ثم وعدتني بالألا تتحرك من مكانها حتى أصدق بنورى .. وسرعان ما فعلت ذلك ، بأن ارتديت أفخر ثوب لى - وهو الذى اشتريته لى مس تميل فى يوم زفافها ، وقد ظل محتفظاً بجدته - ولم ألبث كذلك أن سويت شعرى ، وازيقت بجليشى الوحيدة : ألدبوس اللؤلؤى ، ثم خيطنا اللرسج :

ولحسن الحظ ، كان لغرفة الاستقبال مدخل آخر غير المدخل المفضى إليها من حجرة المائدة ، فوجدناها خالية ، والبيران تشعل فى مدقاتها ، والشموع نضىء جنياتها وكانت أديل ما تزال تحت تأثير التهييب الذى استبد بها ، فجلست صامتة لا تلبس بحرف ، على المقعد الصغير الذى أرشدنا إليه ، ثم جلست أنا بجانب قاعدة إحدى النوافذ ، وتناولت كتاباً حاولت أن أقرأ فيه .. وجاءت أديل بمنعدها عند قدنى ،

وسرعان ما لمست ركبتي فقلت : ماذا بك يا أميل ؟

... هل أستطيع اقتطاف زهرة واحدة من هذه الزهور الفاخرة
يا آسة لأنهم بها زيتي ؟
... إنك تبالين في التكيف في زيتك يا أميل ، ولكن في وسعك
أن تأخذى زهرة .

ثم تناولت بيدي زهرة من إحدى الزهريات ، ثبتها في وشاحها ،
فتهدت الصعداء ، وكأنما كاس سعادتها قد أثرت . وعندئذ أدبرت
وجهي لأعني ابتسامة لم ألق على كبتها ، إذ كان في أعين الباريسية الصغيرة
البالغ شبابها ما يدعو إلى الضحك بقدر ما كان يدعو إلى الألم . وما لبثت
أن ارتفعت الأصوات الخافتة ، عندما تحركت المنارة التي تفصل بين
الغرفتين ، فظهرت حجرة المائدة وقد انسكبت من ثيابها الأشياء
على طاقم مخلوي من القصة والزجاج يشغل مائدة مستطيلة . وكانت
بعض السيدات يقفن عند المدخل ، فما أن دخلن قاعة الجلوس حتى
انسلت الستار خلفهن . ولم تكن السيدات يزدن على ثمان ولكني
خلتين أكثر ، عندما تراهن على الدشوك . وكانت بعضهن بمشوقات ،
وأكثرهن برتدين ثياباً بيضاء ، فلما دخلن وقفت أحيين في دمان ،
فردت واحدة أو اثنتان متين تحين لإحشاء الرأس ، بينهما حلفت في
وجهي اليافيات . ثم انتثرن في الحجرة ، يذكورن يغفلون الرشيق
يسرب من الطيور البيضاء : واضطجع بعضهن فوق الأرائك والمتكات ،
والتفت البعض الآخر حول المنضدة ، وانغمسن على الزهريات ، ثم
أحطن بالمرقد وهن يتحدثن بأصوات خافتة ولكنها واضحة النبرات ،



وجبات (أميل) بمقعدها عند قديم ، وسرعان
ما لمست ركبتي ، فقلت : ماذا بك يا أميل ؟

كما أوحى لي بأنها عادة فين .. ولم أعرف أصلا من إلقاء بعد .. ولكن في وسعي أن أذكرها الآن : فأولا ، كانت هناك مسر إيشتون وابنتها .. وكانت السيدة ذات حسن وجه في صياها - ولا ريب - وقد ظلت محبظة بهما . أما ابنتها ، فكانت كبيرا - وهي آبي - صغيرة الجسم ، متوترة الحركات ، تبدو كالطفلة في وجهها وتصرفاتها ، في حين كانت الثانية - لويزا - أطول قامة ، وأكثر أناقة ، ذات وجه غاية في الجمال .. أي كانت الشقيقتان في بهاء الزين .

أما الليدي لين ، فكانت شخصية قوية ، بديلة ، في حوالى الأربعين من عمرها ، متصبية القامة ، بادية الكبرياء ، ترتدي ثيابا غالية ، ويطلع شعرها الفاحش تحت ريشة أزوردية اللون ، وبين طوق من الخيوطات .. وكانت مسر كولوويل دنت أقل ألفة في المظهر ولكنها كانت في صفاء النهار : ذات قامة نحلة ، ووجه متنعف رقيق ، وشعر جميل : وكانت في ثوبها الأسود الساتان ووشاحها الدنلا تعجني أكثر من السيدة السابقة التي كانت تسبح في قوس قزح من الأضواء :

أما الثلاث المتميزات - ولعل الفضل الأول في ذلك واجع إلى طولن المفرط - فكان الليدي انجرام - أرملة اللورد انجرام - وابنتها بلانش وماري : كن ثلاثين من أخصخ الموجودات قامة .. وكانت الأرملة فيما بين الأربعين والخمسين من عمرها ، تحفظ بهال قدها ، وقد ظل شعرها طامح السواد ، كما بدا تحت ضياء الثريا على الأقل ، وكذلك ظلت أمساتها كاملة . وكان معظم الناس يعتبرونها من أجمل السيدات بالنسبة لسنها ، ولكن هيتها وأساربرها كانت ثم عن كبرياء

لايحتمل ، وكانت تقاطيع وجهها رومانية ، بينما كانت عيناها تومضان بالقسوة والغضب مما ذكرني بعيني مسر (ريد) .. أرملة غالي : وكانت ابنتها - بلانش وماري - متعادلتين في تكوين البنية ، وإن كانت ماري أرفع جسما بالنسبة إلى طولها ، بينما كانت بلانش ممتلئة أحب بديانا (ربة الصيد) ! .. ولقد أخذت - بطبيعة الحال - أوليا اهناما خاصا ، أولا لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق مع ما وصفتها به مسر فيرفاكس ، وثانيا لأرى كم كانت تشبه الصورة المصغرة التي رسمتها ، وثالثا - وهو الأهم - لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق في رأيي مع فوق مسر وروستر . وأخيرا آتيت أنها تتفق في كل شيء مع الصورة التي رسمتها ، والأوصاف التي عدتها مسر فيرفاكس : رأس نيل ، وكنتان منجلوتان ، ونحر جميل ، وعينان سوداوان تحيط بهما عالات سوداء .. أما وجهها فكان يشبه وجه والدتها تماما ، وبزيده عنه شيابا ، كما كان لها نفس الجبين المنخفض والتسعات المتعالية ، ونفس الكبرياء ، ولكنها كانت تضحك باستمرار .. وإن كانت ضحكتها تنضج بالهكم والسخرية ، تماما كذلك التعبير الذي كان يرسم على شفتها المقوسة في زهو وعجرفة .

ويقال إن العبقرية هي الاعتداء بالنفس .. وإذا لم أستطع أن أقول إن بلانش كانت عبقرية ، فليست أنكر أنها كانت شديدة الاعتداء بنفسها : فقد خاضت في الكلام عن علم النبات مع مسر دنت . ويبدو أن هذه لم تكن قد درست هذا العلم ، وإن قالت إنها تحب الزهور ولا سيما البوية منها .. أما مس انجرام - بلانش - فكانت على إلمام تام بهذا العلم ، فأخذت

تكشف عن معلوماتها في زهو واقتدار ، ثم لاحظت أنها إنما كانت تعبت بالسيدة وتلاعب بجهلها .. وإن دل هذا على شيء من المهارة ، إلا أنه ليس دليلاً على طيبة النفس . وكانت تعترف بمهارة ، وتغنى بصوت رعيم ، وتحدث الفرنسية بطلاقة . أما (ماري) ، فكانت أرق والطف من بلانش ، كما كانت أكثر إشفاقاً ، وأدق قسبات ، وقد أوتيت بشرة أنصع من بشرة أختها التي كانت في منة الأسبانيات .. وإنما كان ينقص ماري الفعور بنشوة الحياة .. كان وجهها يقتصر إلى التعبير وإن كانت عيناها لتلمعان ، ولم يكن لديها ما تقوله ، ولذلك جلست في مقعدها غارقة إلى الصمت ، مسمرة في مكانها ، أشبه بتمثال في عرابه .. وكانت الشقيقتان ترتديان أنصع الثياب .

أفكان لي بعد ذلك أن أعتقد أن بلانش انجرام من النوع الذي يحصل أن يقع عليه اختيار مستر روشستر . لم أستطع أن أجزم بذلك لأنني لم أكن أعلم بنوقه في دنيا الجمال النسوي ، ولو أنه كان يميل إلى العظيمة لوجد فيها التزوج للعظيمة ، فضلاً عن أنها كانت مهذبة وعلى جانب كبير من الرشاقة . ولذلك أعتقد أن معظم السادة كانوا يعجبون بها ، وأنه هو، لذلك كان معجباً بها فعلاً . وبدأ لي أنني عثرت على الدليل ، ولكني أبعد أكثر صحائب الشك ، تزييت لأشاهدتها معاً .

ولا تحسب - أيها القارئ - أن أدبيل ظلت طوال الوقت جالسة لا تتحرك ولا تريم في مقعدها عند قدمي . كلا .. فلما عندما دخلت السيدات ، نهضت ثم تقلعت للقائهن يوفار واحترام ثم قالت لمن في وزانه : « يوم سعيد ياسيداتي ! » .. فنظرت إليها من انجرام ساخرة

وصاحت : « أوه .. ياها من دمة صغيرة ! » .. وقالت اليدى انجرام : « أظنها الفتاة التي يتولى مستر روشستر الموصاية عليها .. الفتاة الفرنسية الصغيرة التي كان يتحدث عنها .. أما مستر دنت فقد تناولت يدعا في رفق وعلقت عليها قبلة ، بينهما صاحبت آني وأويلا إيشتون في صوت واحد : « ياها من طفلة جميلة ! » .. ثم دعناها إلى أريكة جلست عليها ، وكادت تخفى بينهما ، ثم راحت تحدث ثارة بالفرنسية ، وثارة أخرى بالإنجليزية ركيكة . ولم تسترع الصغيرة انتباه الشابات وحدهن ، بل اجتذبت انتباه مستر إيشتون واليدى لين ، ونعمت بتدليل الجميع .

* * *

● وأخيراً ، جىء بالقهوة ودعى السادة للدخول . وظللت جالسة في ظل السنارة التي كادت تمجيبني عن العيون .. ودخل الرجال بعد أن أزيحت السنارة التي كانت تفصل بين الحجرتين جانباً للمرة الثانية .. وكان دخولهم الجماعي كدخول السيدات في روعته : كانوا جميعاً يرتدون الملابس السوداء ، ومعظمهم عاول القائمة ، وبعضهم في زهرة الثياب ، والواقع أن هنرى وفردريك لين كانا شعلة من نار ، بينما كان الكولونيل دنت رجلاً عسكرياً جليلاً . أما مستر إيشتون - قاضي المقاطعة - فكان سيئاً في مظهره ، ناصع الشعر ، بينما كانت حاجباه وموالبه تحتفظ بسوادها ، مما يجعله يبدو كالكوالد النبيل الذي يظهر على المسرح .. في حين كان الأورد انجرام الصغير كشيقيته في ملوك القائمة وجمال الحيا ، وإن كان يشاطر ماري نظرتها الفائرة ، سوله في

العاطفة أو الهمة : ويبدو أنه كان ينعم بطول الأطراف أكثر مما كان ينعم بشاطئ الدم ولشاط الدخن :

وأي منستر روشستر ؟ إنه لم يلبث أن أقبل في النهاية .. ولم أكن أنظر إلى القبر - الذي يفصل بين حجرتي المائدة والامتثال - ولكنني مع ذلك رأيته يدخل ، وسرعان ما حاولت أن أركز انتباهي في تلك الإبر التي كنت أجعل بها كبسلي الشيكى ، وألا أشغل تفكيري بغير العمل الذي كان بين يدي ، وأن أقصر نظرائي على الخرز القضي والخيوط الحريرية التي كانت في حجرى .. على أنني رأيت شخصه يفرزني : فلم أجد مناصاً من تذكر اللحظة التي شاهدته فيها آخر مرة - عقب أن أدبت له ما اعتبره خدمة جليلة - فأمسك يدي ، ثم جعل يتأمل وجهي بعينين تكشفان عن قلب مترع ، يتلهف على الإلصاق بمواطن لي فيها نصيبه .. ما كان أغربني إليه في تلك اللحظة ١ . فإذا حدث بعد ذلك وغير موقفه بالنسبة لي ؟ لكم غدونا - رغم ذلك - متباعدين غريبين إلى حد لم أكن أتوقع معه أن يخبرني ويحدثني ، ولذلك لم أعجب عندما اتخذ لنفسه مقعلاً في الجانب الآخر من الحجرة ، ثم مضى يتحدث مع بعض السيدات ، دون أن يلتفت نحوي .. وما أن وجدت أن انتباهه قد تركز عليّ ، وأن فيه وسعياً أن أرتو إليه دون أن يلحظني ، حتى تحولت عياني بالرغم مني إلى وجهه دون أن أقوى على السيطرة على جفونهما التي كانت ترفع لتحقق مقلتاى فيه . ورحلت أشخص إليه ، وأستشعر في التطلع إليه سروراً شديداً : سروراً غالياً ولكنه حاد أليم .. غالياً كالذهب الإبريز ، ولكن له طرفاً كالصلب يخر ويبيث على الألم ..

سروراً كالذي يشعر به رجل أوشك أن يقضى عليه الظلم ، فلما عثر على بئر واستطاع أن يزحف إليها ، وجدها مسجمة ، ولكنه مع ذلك لم يتوان في الاختفاء عليها ، لينهل من مائها وكأنه جرعات قدسية مبلوكة !

ما أصدق القائل بأن الجلال في عين الرائي : كان وجه سيدي الشاب الزينوي اللون ، وجهه الضخم ، وحاجباه البارزان الغامخان ، وعينه العصفان ، وأساريره القوية ، وفه الحازم المنجهم .. كانت كل هذه الملامح تنم عن النشاط والنعم والحزم ، ولكنها لم تكن تكتن حيلة حسب قواعد الجلال ! .. بيد أنها كانت عندى أكثر من حيلة .. كانت زائخة بعمان وساطان ملكاً على كل نفسى واستنبا مشاعري فأسلماها إليه ليقيدها ، ويفرض عليها سطوته .. إنني لم أكن أود أن أخيه ، وإن القارئ ليعلم كم جاهدت لأنتزع من نفسي ما عثرت عليه من بنور الحب .. ولكن هذه البتور بعثت من جديد - عندما رأيته لأول مرة بعد فراقنا - وحثت وترعرت وامسوت على سوتها .. كان يجملى على حبه دون أن ينظر إلى ١

ورحت أقارنه بضيوفه ، فاستصغرت شأن ما أوتيته آل (زين) من رشاقة وكياسة ، وما كان عليه اللورد انجرام من أناقة بشوبها تنعم : بل ما فيمة وجادة الكولونيل دنت العسكرية : بجانب ما كان يقبدي على منستر روشستر من روح ذاتية طليعية وقوة خالصة غير مجلوبة : لم أشعر ببل أو انعطاف نحو مظهرهم وأساليبهم ، وإن خيل إلي أن معظم من يرونهم لا يملكون سوى أن يصغفهم بالجاهلية : بينما يصمون منستر

روشرت على التو بدعامة الخلقطة واكتئاب المنظر .. ورأيت السادة يتسبون ويضحكون فلم يجتذبي شيء من هذا ، بل خيل إلي أن لضوء الشموع وروحا نيرا ما في ابتسامهم ، وإن في زئير الجرس مغزى يفوق ما في ضحكهم .. ورأيت مستر روشتر يتسم ، فإذا بأسأريه الكاخة تلين ، وإذا بعينه تزدادان إشراقا وروقة ، وإذا بأشبعهما حلوة نائلة .. وكان في تلك اللحظة يتحدث إلى لويزا وأبي إيشتون ، فعجبت لما إذ كانا تصمداً عطفلين يهدوئهما أمام تلك النظرة التي بدت لي جنة نفاذة : كنت أتوقع أن ترخيا عيونهما وأن تتسرح وجنتاهما ! .. على أنني اغتبطت لعدم تأثرهما بأية حال ، وقلت في نفسي : « إنه ليس بالنسبة لما كاهر بالنسبة لي ، إنه ليس على شاكلتهما ولكنه - فيما أعقد - على شاكلتي .. بل أنا واثقة أنه كذلك ، حتى يخيّل إلي أنه من أفاري ، لأنني أفهم لغة وجهه وحركاته .. ولئن باعدت بيننا المراتب والثروة كل الباعد ، فإن في ذهني وقلبي ودمي وأعصابي ما يربطني عقلياً به ! .. فهل كان حقاً أنني قلت منذ أيام قلائل أن لا شأن لي به سوى أنني أتناول مرتبي من يديه ؟ ألم أحرم على نفسي التفكير فيه إلا على ضوء أنه صراف المرتب ؟ .. ياله من تحديف في حق الطبيعة ! .. لقد أحطت بكل شعور طيب خالص قوى ، بدافع من نفسي ، ولكن يجب أن أعني عواطفني وأن أحتج أمل وأن أتذكر أنه لا يستطيع أن يحفل بي كثيراً ! وإذا قلت إنني على شاكلته فليس معنى هذا أنني أوتيت من القوة ما يؤثر فيه كما يؤثر هو ؟ ، أو أنني أوتيت صره الجذاب ، وإنما أعني فقط أنني أشاركه في بعض الأذواق والأحاسيس ، ولذلك يجب - وأكرر

ذلك دائماً - أن تغفل بعينين مفصلتين إلى الأبد ، ورغم ذلك .. فلا بد لي من أن أحبه ما ظلت لي نفس يتردد ورأس يفكر .
وقدمت القهوة .. وكانت الخبوية قد شاعت في قلوب السيدات ، فقدون كالقنابر - بعد دخول الرجال - واستعالت الأحاديث رشقة طروية ، وراح التكوّنيل ذنت ومستر إيشتون يتجادلان في أمور السياسة ، في حين مضت زوجتاها تصفيان ، بينما أخلت الأرملتان التيللان - ليدى لين وليدى انجرام - تسامران معاً . أما اتسير جهورج - الذي نسبت أن أصفه - فكان سيداً ضخم البناء وفيه الهبة يادى النشاط ، وكان واقفاً أمام أريكتهما وقعد القهوة في يده ، وهو يفوه بكلمة بين الفينة والأخرى . وكان مستر فردريك قد أخذ له مقعداً بجانب ماري انجرام ليطلعها على نقوش مجلد فاخر ، وهي ترنو وتبتسم من حين إلى آخر دون أن تكثر من الكلام على ما يظهر . بينما انكأ اللورد انجرام الفاره ، القاتر ، بشراعية المعقودتين على ظهر المقعد الذي جلست فيه لعي إيشتون الصغيرة الحساء ، التي كانت ترفع إليه عينيها وتحدث معه وكأنها عصفور صغير - فقد كانت تحبسه أكثر مما تحب مستر روشتر ! - على حين جلس هنري لين على مكتباً عند قدي لويزا ، تشاركه أدبيل التي راح يحاول أن يكلمها بالفرنسية بينما كانت لويزا تفصحك من أخطائه .

فمع من كانت بلاتش انجرام تسمر إذن ؟ .. كانت واقفة بمفردها أمام المتصدة ، وقد أختت في رشاقة على (ألبوم) للصور وكأنها تنظر أن يسعى إليها أحد ، ولكنها لم تنظر ملويلا ، بل اختارت بنفسها زميلاً

لها .. إذ كان مستر روشتر قد غادر كويلا ولم يبق إيشتون ووقف
بفردة أمام المصضة من الناحية الأخرى ، فقدعت بلانش ووقفت
بجانب المدفأة . ثم قالت : « كنت أظنك غير مغرم بالأطفال يا مستر
روشتر » .

.. لست مغرمًا بهم :

.. إذ أن ما الذي أغراك على أن تتعهد دية صغيرة كهذه ؟ (ثم
أشارت إلى أديل واستطردت تقول) : من أين التقطتها ؟
.. لم التقطها ولكنها تركت بين يدي .

.. كان يجب أن ترسلها إلى المدرسة .

.. لم يكن ذلك في وسعي ، لأن نفقات المدارس باهظة :

.. ولكنك فيما أعطد جثثها بمعلمة ، فقد شاهدت شخصاً معها
منصة قليل .. أترأها خرجت ؟ .. آه ، كلا .. ها هي ذى ما تزال
خلف ستارة النافذة .. إنك تستأجرها بالطبع .. وأعتقد أنها تكلفك
الكثير .. بل الكثير جداً ، لأنك تؤويهما الاثنين !

وقد غقت - بل بالأحرى تميت - أن تدفعه تلك الإشارة من
السيدة إلى أن يحول نظره ناحيتي . ووجدتني - على رغي - أزداد
انكشافاً في الظلال ، ولكنه لم يلبث عيبي ، بل قال في غير اكتراث وهو
يتطلع أمامه مباشرة : « لم أفكر في الموضوع بعد ! »
.. كلا .. إنكم يا معشر الرجال لا تهتمون بالافتصاد والتدبير .

ويحسد أن تسمع رأى (ماما) في المعلمات ، فقد تولى تعليمي وتعليم
ماري .. فما أعتقد - لا يقل عن اثنتي عشرة معلمة في صغرنا ، فكان

نصفين كرميات بغضبات ، والنصف الآخر محببات ، وكلهن هراء ..
أليس كذلك يا ماما ؟

.. هل تكلمي بي يا زوجي ؟

وأوضحت الشابة لأماها الموضوع فقالت : « لا تذكرى يا عزيزتي
المعلمات ، فإن مجرد ذكرهن يثير أعصابي . فقد قاسيت من قصورهن
وشذوذ طباعتهن ما لم يقاسه الشهداء . وأنا أشكر السماء التي خلصتني
الآن منهن » .

وانحلت مز دنت على السيدة (الطيبة !) ، وهمت شيئاً في
أفها . وتبينت من الرد أنها كانت تنبهها إلى وجود واحدة من هذا
الجنس اللعين ، إذ قالت الميلى : « فليكن ! .. ولعلها تفيد من ذلك ! » ..
ثم استطردت بصوت خافت ولكنه مازال عالياً بحيث أسمعته :

.. لقد لاحظتها ، وأنا ماهرة في علم القراءة وأرى فيها كل عيوبه
ملائقتها ! .. فسألهامستر روشتر بصوت عال : « وما هي هذه العيوب
يا سيدتي ؟ » .. فأجابته وهي تميز فلقسوتها ثلاث هزات وكانها تنفثه
بخطورة ما لديها : « سأفحص بها في أذنك ! » .

.. ولكن حب الاستطلاع سوف يفتّر أمام شهوى الطعام ، فإن
نفسى تهوى الآن للعشاء (١) .

.. سل بلانش فإنها أقرب إليك مني !

.. لا تخجل على يا ماما ! .. ليس لدى غير كلمة واحدة عن تلك

(١) يتناول عليه القوم في بعض المجتمعات وجبتين في المساء ،
أولاهما في بداية المسيرة ، والثانية عندما يكتهل المساء قليلاً .

الفصيلة كلها : إنهم أذى ١ ولا أعنى أتى فاصبت منهم كثيراً ، لأننى كنت أعكس عليهم الأمر ، فكلم دبرت مع (تيودور) مكائد ضد معلمائنا مس ويلسن ومسر جريز ومدام جويير ... أما مارى فكانت أكمل من أن تشترك فى مكائدتنا بتحمس . وكان أبداع مزاحنا مع مدام جويير ، أما مس ويلسن فكانت مخلوقة مسكية ، بدنية ، سريعة اليكاه ، كسيرة الخاطر ، وقصارى القول أنها لم تكن أهلاً لأن نتجشم عنها محاولة التغلب عليها . بينما كانت مسر جريز لفظة عديمة الإحساس .. لا تتأثر بأية لطمة ، ولكن مدام جويير كانت مسكية ، ومازلت أذكرها وهى دائمة مانجة عندما أخرجنها عن طورها فأراقت شاربنا وفشت خبزنا وزبدنا ، ثم طوحت بكتبتنا إلى السقف ، وأثارت شوشرة بالمسطرة والدرج وحاجز الموقد وأسياع النار .. أتذكر يا تيودور تلك الأيام المرحية ؟

فأجابها الورد انجرام منشداً : « نعم . أذكرها بكل تأكيد . وكانت (العضا) المسكية العجوز .. كما كنا نسمى معلمتنا النحيلة .. تصرخ : يا لكم من أطفال أشقياء ! .. وعددت كنا نغفلها ألا نحاول تعليم صغار أذكيا مثلنا ، مادامت هى نفسها جاهلة ! » .

— كنا نفعل ذلك حقاً . وهى تعلم يا تيودور أننى كنت أساعذك على تعليم واضطهاد معلمك المضطع الوجه مسر فاينج الذى أباح لنفسه أن يتبادل الحب مع مس ويلسن ، وقد رأيتما يتبادلان النظرات والتنهيدات ثم اتفضح أمرهما ، فطردهما ماما لسوء سلوكهما ! .. أليس كذلك يا والدنى اليدى ؟

— بلا شك وقد أحسنت صنعاً . وأعنى أن هناك ألف سبب يدعو إلى عدم احتال أية علاقة بين المعلمين والمعلمات فى منزل تراعى فيه النظم . وأول هذه الأسباب ...

— أوه يا ألى الحسنة . وفرى علينا عتاء تعداد هذه الأسباب فكلنا نعرفها : خطر القدوة السيئة للأطفال الأبرياء ، وتشبث الأفكار ، وما ينتج عن ذلك من إهمال الواجب ، وما يلزم ذلك من قحة وعصيان وتفريع عام .. هل أنا مصيبة يا بارونة انجرام ؟

— أنت يازينبى مصيبة الآن .. وعلى اللوام !

— إذن فلا حاجة إلى مزيد من القول ولنغير الموضوع .

ولكن لى لم نسمع هذه الإشارة أو لم نكثرث بها فقالت بصوت ناعم كصوت الأطفال : « لقد اعتدت ولويزا أن تنهكم على معلمتنا كذلك ، ولكنها كانت مخلوقة طيبة ، تحتل كل شئ .. ولا يثيرها شئ .. فلم تغضب منا قط . أليس كذلك يا لويزا ؟ » .

— بلى يا لى .. كنا نفعل ما يروق لنا : نسلو على درجها وصندوق أشغالنا ، ونغلب محتويات كل الأدراج ، ولكنها كانت طيبة القلب ، لا تبخل ولا تضن علينا بكل ما كنا نغلبه .

وقالت مس انجرام وهى تلوى شفتيها فى ضحيرة وشكم : « أظننا الآن قد أخذنا فكرة موجزة عن جميع الملمات الموجودات ، ولكى تضادى أى جزء ، أرى أن نتحول إلى موضوع آخر ، فهل تقرنى على هذا رأى يا مسر زوشستر ؟

— أنا أؤيدك يا سيدتى فى هذا رأى كما أؤيدك فى غيره .

— إذنا سأخذ على عاتقي فتح الموضوع الآخر = هل تحب الليلة للقاء ؟

— إذا أمرت يا دونا بيانكا !!

— إن إرادتنا الملكية تقضى بأن نبيء رثيث وغيرهما من أعضاءك الصوتية باستيفور لتكون في خدمة جلالتي !

— من ذا الذي لا يود أن يغي بمصاحبة عازفة قسبة مثلك ! فصاحت بلا تش :

« لست أحفل بالفتى .. إني أعتد أن عازف الكمان (حافظ) شخص موهوب ولابد : على أنني أحب بوتويل الأسود ، فني رأت أن لا قيمة للرجل عالم يثبت فيه الشيطان بعض الفضل .. وليقل التاريخ ما يقول عن جيمس هيورن — مثلا — فإني أراه عين البطل المتوحش ، القاسي ، قاطع الطريق ، الذي لا أثر دني أن أقبله زوجا ! » .. فصاح روشستر : « أتسمعون بإسادة ؟ » من منكم إذن بشبه بوتويل ؟ .. فأجاب الكولونيل دلت : « أظن الاختيار قد وقع عليك بالذات ! » — أشكرك كثيرا .

● وفي بهاء وجلال ، جلست مس لإنجرام إلى اليانو ، ونشرت ثوبها الناصع الفضفاض حوها كأنها ملكة ، ثم أخذت توقع مقدمة رائعة ، وهي تتحدث في الوقت نفسه ! وكانت — في تلك الليلة — تبدو شديدة الاعتداد وترى من وراء كلماتها وحركاتها إلى أن تهر المستمعين ، لا أن تثير إعجابهم فحسب ! .. كان جليا أنها تعدد إلى الظاهر بالإقدام

والجرأة في الرأي ، فندمهم . فقد صاحبت وهي ما تزال تعزف على البيانو : « أود . لقد سمعت شبان اليوم !! إنهم مخلوقات مسكينة .. لا يصلحون لأن يحفظوا الواحد منهم خطوة واحدة ، أبعد من حديقة (بابا) ، ولا حتى أن يبلغ باب هذه الحديقة إلا بإذن من (ماما) وتحت رعايتها ! .. إنهم مخلوقات نافهة ! .. يستغرقهم الاهتمام بوجوههم الجميلة ، وأيديهم البضة ، وأقدامهم الصغيرة ، كما لو كان الرجل شأن بالجلال .. وكأنما الرشاقة ليست امتيازاً مقصوداً على المرأة ، وحفا مشروعا من حقوقها ، وميراثا موقوفا عليها ! .. إني أعتبر المرأة اللطيفة وصحة في جبين الخليفة الجميل .. أما الرجال فيجب ألا يشغل خواطرهم سوى أن يكونوا أقوىاء وشجعان ، وليكن شعارهم : « الصيد والقتل » ! أما ماعدا ذلك فلا يساوي قلامة ظفر . هذا هو نهجي لو أنني كنت رجلا ! .. وتوقفت عن حديثها لحظة ، لم يقاطعها فيها أحد : ثم استرسلت تقول : « إني مصممة على ألا يكون زوجي — إذا ما تزوجت — منافسا لي ، وإنما يجب أن يكون سيفا مشحودا ، فليست أطيع أن يزاحمني على عرشى ، ولا أن يقسم عواطفه بيني وبين الصورة التي تعالمة في المראה . والآن ، غن يا روشستر ، وسأعزف لك : فمكان جوابه : « كل طاعة ! » :

— ها هي أغنية قرصانية ، وتعلم أنني مشغولة بالقراءة .

— إن أوامر تلقينا شغنا مس لإنجرام كفيفة بأن تبحث روحا وحياة في وعاء من اللبن والماء .

— حذار! إذن من ألا يروق لي غشاؤك فأخرجاك بأن أريك كيف
تغني هذه الأغنية ؟
— إنما هذا لغراء بالعجز ، ولذلك سأحاول ألا أوفق ؟
— اجعل بالك إلى أنك لو أخطأت عمداً متعمداً ، فسوف أبكر
عقوبة مناسبة !
— على من إنجرام أن تكون حليلة ، لأن في وسعها أن ترفع
عقوبة لا يحتملها بشر .
— ها .. أوضح .. فسر !
— معدلة يا آنسة .. لا حاجة إلى شرح ، إذ ينبغي على إحسانك
الموقف أن يفورك بأن تعقوبة واحدة ، تغني عن عقوبة الإعدام .
فصاحت : « غن ! » .. ثم لست البتة مرة أخرى ، وزاغت
تصاحبه وهو يغني برفق زاهر بالحياة .. وقلت في نفسي : « حان أن
أنسل إلى الخارج » .. ولكن الصوت الذي تغال القن سمرني في مكان .
لقد أخبرتني مسز فيرفاكس أن مسز رويستر عذب الصوت ،
والواقع أنه غنى بصوت رقيق قوي عظيم ، ألقى فيه شعوره وقوته
فتلذذ من الأذن إلى القلب ، حيث أبقت الأحاسيس بصورة عجيبة ..
وانظرت حتى انتهت آخر الثمرات العميقة الزائفة ، وعاد الحديث
يتدفق من جديد بعد أن كان قد توقف لحظات . وعندئذ يارحت الركن
الذي كنت ألوذ به ، وخرجت من الباب الجانبي الذي كان لحسن
الحظ على مقربة مني ، ثم أفضى بي ممر ضيق إلى البهو . وفيما كنت
أجتازُه تبين لي أن صندل مفكوك ، تتوقفت لأربطه ، وركعت من

أجل ذلك على بساط عند أول الدرج . وصعدت باب قاعة المائدة يفتح ،
ليخرج منه أحد السادة . وعندما هفت على عجل ، وجدتني وجهاً
أوجه معه .. مع مسز رويستر ، الذي سألتني : « كيف حالك ؟ »
— بخير يا سيدي .
— لماذا لم تأتي وتعديني في قاعة الاستقبال ؟
وفكرت في أن ألقى عليه نفس السؤال ، ولكنني لم أشأ أن أمتنع
نفسى تلك الحرية فأجبت : « لم أشأ أن أضايك ، لأنك كنت مشغولاً
يا سيدي » .
— ماذا كنت تفعلين أثناء غيابي ؟
— لا شيء ، بالذات .. كنت أعلم أديب كالاعتاد .
— وكنت ترددين شعرياً عما كنت عندما وأنتك لأول مرة .. !
— ماذا جرى ؟
— لا شيء ، مطلقاً يا سيدي .
— هل أضايك يرد في تلك الليلة ، عندما كنت تفرقيني ؟
— كلا إطلاقاً .
— عودى إلى قاعة الاستقبال ، فإنك غادرتها مبكورة جداً .
— أنا متعبة يا سيدي .
فتأملني لحظة ثم قال : « ممكنة هو؟ ما .. لماذا ؟ أخبريني ! ! »
— لا شيء .. لا شيء .. يا سيدي . لست بمكثبة .
.. ولكنني أؤكد لك أنك كذلك .. مكثبة جداً بحيث تكفي بضع
كلمات أخرى لأن تحلق عيتك بالدموع .. بل إنها تملأها الآن في الواقع ،

وتلعب فيها وتسبح ، وهامى حتى دمعة تسلك خلال الأهذاب وسقطت على الأرض . ولو كان لدى متسع من الوقت ولا أحتسب أن يمر بنا خادم ثائر ، غر ، لعرفت ماذا يعنى كل هذا ١ .. حسناً ، سأنبئ لك العابر الليلة ، ولكن اعلمنى أن عليك أن تظهرى بحجة الاستقبال كل مساء . هذه رغبتي فلا تهملها . والآآن اذهبي وأرسلى صوفى إلى أجيل . فلابت ليبتك يا ...

ثم توقف عن الكلام ، وعرض شفته وغادرتى فجأة !

الفصل الثامن عشر

كانت هذه الأيام في قصر (ثورنفلد) مرحلة طروباً ، يشكو ما كانت زاهرة بالعمل والنشاط .. وكما كانت تختلف كل الاختلاف عن الشهور الثلاثة الأولى التي قضيتها تحت سقف ذلك القصر في سكوت وتوازن رتيب مل ، وعزلة موحشة . وغيل إلى أن جميع المشاعر الحزينة قد أفضيت إقصاء عن القصر ، وأن كل الإحساسات الكثيرة قد انحابت وتنسيت ، لتحل عليها الحياة النابضة في كل مكان ، ولتشيع الحركة طواك كل يوم .. ولم يعد في وسعك الآن أن تجتاز الردهة التي كانت فيها مضى ساكنة هادئة ، أو تدخل الحجرات الأمامية ، التي كانت يوماً ما خالية من الناس ، دون أن تلقى وصيفة رشيقة لإحدى السيدات ، أو وصيفة غندوراً لأحد السادة .. وكذلك كان المطبخ ومخزن الساق وقاعة الخدم والبهو الأمامي ، كلها زاهرة بالحياة . ولم تكن عرقات الاستقبال لتخلو وتجمع إلا عندما ينطلق سكانها إلى الخلاء بدعوة من

للمياه الزرقاء والشمس المداخلة في ذلك الربيع البهيج ، وحتى عندما كان الطقس يمتكر ، وعندما كانت السماء تمطر أياماً بلا انقطاع ، لم تكن أية رطوبة تقوى على أن تصد المدعوين عن الاستمتاع بإقامتهم . إذ سرعان ما كانت تضاعف ضروب التسلية المترتبة وحدها وتياجين ، بسبب توقف أسيااب القهر في الخارج .

ولقد تسامت عما كانوا موشكين أن يفعلوا في أول مساء رؤى فيه تغير ما اعتادوا من أسباب التسلية ، فإذا بهم يتحدثون عن التنو بالكغاز والأحاجي ، غير أن أجيل لم أفهم ما كانوا يقصدون .. وسرعان ما استدعى الخدم ، ونقلت موائد حجرة الطعام ، ونظمت الأنوار تنظيماً جديداً ، ووضعت المقاعد على هيئة نصف دائرة في مواجهة القبو الذي كان يفصل بين الحجرتين .. وبينما كان مستر روشستر وسائر السادة يشرفون على هذه التغييرات ، هوجت السيدات بقو عن التخرج صاعداً نازلات ، وعن ينادين وصيفاتهن ، كما استدعيت مسز فيرفاكس لتبلى بمعلوماتها عما في القصر من أوشحة وملابس وأقشة من كل نوع ، وفنحت صواوين (خزانات) خاصة في الطابق الثالث ، ثم أخرجت عثراتها من (جونيولات) موشاة مستديرة كالأطواق ، وأزياء سوداء وغلالات حريرية ، وثياب ذات أهذاب مزركشة بالدنلا .. إلى غير ذلك من أشياء أرسلت إلى الطابق الأرضي مع الخادعات ، فأخبرت منها مجموعة أرسلت إلى مقصورة تتصل بمجرة الاستقبال .. في تلك الأثناء ، عاد مستر روشستر يستدعي السيدات ليبلغن حوله ، وشرح يختار من يبين عدداً تتألف منه فرقته ، وهو

يقول : « ستكون مس انحرام من زمركى بطبيعة الحال ! » .. ثم اختار
أعريبات هن آى إيشتون وشقيقها لويزا ومسز دنت ، وبعد ذلك التفت
إلى - « وكنت بالمصادفة قريبة منه أثبت لمسز دنت مثبك سوارها الذى
كان قد انك - فسانى : « هل تلعين ؟ » .. وهزرت رأسى ورفضت ،
فلم يلح ، وكنت أخشى أن يفعل ، ولكنه تركنى أعود فى هدوء إلى
مقعدى المعتاد ، ثم انسحب مع زميلاته خاف انتشار ، بينما جلست
الزمره التى يرأسها الكولونيل دنت على المقاعد التى صفت على شكل
هلال . ولحنى مسز إيشتون ، فاقترح - على ما يبدو - اشتراكى معهم ،
ولكن الميذى انحرام رفضت الاقتراح على الفور ، إذ صحتها تقول :
« كلا .. إنها تبدو من الغباء بحيث لا تستطيع الاشتراك فى لعب من
أى نوع » .

وقبل أن تنقضى فترة طوبلة ، دق الجرس وانفتحت الستار .
ومن خلال القيو ، شوهد السير جورج لين - الذى كان مسز روشستر
قد اختاره ضمن فريقه - وقد التفت بملاءة بيضاء ، وانفتح أمامه على
إحدى المناضد كتاب ضخم ، ووقف بجانبه آى إيشتون تنادى بعبارة
مسز روشستر ، ونجس فى يدها كتاباً آخر .. وقرع الجرس فى مروح
شخص لم نره ، وإذا بالصغيرة أدبل - وقد أصرت على أن تكون من
فريق الوصى عليها - تب إلى الأمام ، فتشر حولها الزهور من سلة كانت
تحملها على ذراعها ، ثم ظهرت مس انحرام بقامتها البديعة ، وقد ارتدت
حلة بيضاء وانتشج رأسها بوشاح ملوئل والثف حول جبينها لإكليل من
الورود ، وإلى جانبها كان يسير مسز روشستر ، ثم اقتربا معاً وركعا

أمام المنضدة ، بينما اتخذت مسز دنت ولويزا إيشتون مكانيهما خلفهما ،
وقد ارتدتا ملابس بيضاء . وتلا ذلك احتفال صامت كان من السهل أن
تلين فيه حفلة زواج ما أن انتهت حتى تشاور الكولونيل مع أفراد
زمرته مناهسين ثم صاح الكولونيل : (عروس !) .. وإذا ذلك الحنى
مسز روشستر ، وجعلت الستار ، إذ عرف فريق المتلعين الكلمة التى
أريد بالنظر أن يرمز إليها !



• وانقضت فترة غير وجيزة ، قبل أن ترتفع الستار مرة أخرى .
وكشف ارتفاعها فى هذه المرة عن منظر أكثر تنسيقاً من سابقه ، إذ
لاحظت أن حجرة الاستقبال قد رفعت درجتين عن مستوى غرفة
الطعام ووضع على قمة الدرج العلى حوض كبير من الرخام عرفت
فيه أحد الأحواض التى تزين البيت الزجاجى فى الحقيقة ، ولابد أنهم
تكيدوا عتاء فى نقله ، لكبر حجمه وظله ! .. وبجانب هذا الحوض ،
شوهد مسز روشستر جالساً على البساط ، وقد ارتدى أوشحة ، ووضع
على رأسه عمامة ! .. وكانت عيناه الحالكتان ولونه الأسمر وأساريره
الشرقية ، توأم ثيابه ككل الموضة ، فبدا نموذجاً رائعاً لأعير شرق .
وسرعان ما ظهرت مس انحرام وقد ارتدت بدورها ثوباً شرقياً ولفت
حول خصرها وشاحاً قرمى اللون وعقدت حول رأسها متديلاً موسى
ورفعت إحدى ذراعيها البضتين تستد بها حرة وضعتها برشاقة على
رأسها ، فكانت أشبه بأميرة يهودية فى العهود القديمة ، بقوامها ومعارف

وجيها ولون بشرتها وشكلها العام .. وكان ذلك هو الدور الذي تود بلا زيب أن مثله .

واقتربت من الخوض وانحفت عليه وكأنها تنأهب لنأج جرتها ، ثم رفعت رأسها مرة أخرى ، فظاهر الجالس إذ ذاك على حافة البئر بأنه يخاطبها ويتنسم منها شفاً ، فبادرت تنزل جرتها على يدها وتقدمها له لبشر ، وعندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة فتحها واترع منها أساور وقرطين ، فظاهرت بالدمش والإعجاب ، ثم ركعت فوضع الحلل الغالية عند قاميها ، وثبت الأساور حول ذراعيها ، والقرطين في أذنيها .. تلمأ كالشهد الذي ورد في قصة (عازر) و (رلفه) — في النوراة — لا تنقصه سوى الإيل !

ومرة أخرى تلاشت رؤوس ثلة المتكهنين .. وكان جلياً أنهم لم يتفقوا على الكلمة أو العبارة التي يصورها ذلك المشهد ، وأخيراً تساءل الكولوتيل ذنت : (أوجه الكل ؟) ، وإذ ذاك تزلت الستار مرة أخرى .. وعندئذ انفتحت لثالث مرة لم يظهر من غرقة الاستقبال سوى جزء منها ، وحجبت الباقي ستار من قماش داكن خشن .. وكان الخوض قد نقل لتوضع في مكانه منفصلة من خشب أبيض ومنعد من مقاعد الملبخ ، يكشفهما للأنظار نور خافت ينبعث من مصباح ذي غطاء من (الباطة) ، بعد أن أطفئت جميع الشموع . ووسط هذا المنظر المتواضع ، جلس رجل وقد ابتكأ على ركبتيه يدين مقبوضتين ، معرقاً إلى الأرض ، فحرفت فيه مستر روشتر على الزخ من وجهه المألوف وملايسه المشعة — إذ كان معقله يتدلى عند إحدى ذراعيه كما لو كان قد تمزق ظهوره في عراك —

وعلى الرغم من أساريه البائسة المتجمعة ، وشعره الكث المتفتش ، كما يحق معاله .. وفيها كان يتحرك سمعنا صليل سلسلة تكبل قدميه ومصميه ، وصاح الكولوتيل : « إصلاحية ! » .. وبهذا الفعل الغر ، ثم انقضت فترة كافية لأن يستعيد المثلون ثيابهم العادية ويرجعوا إلى حجرة الطعام ، ودخل مستر روشتر يقوم مس انجرام التي كانت تطرى براعته في التجميل قائلة : « أقبل أنني لم أحبك بقدر ما أحبتك في شخصيتك الثالثة .. أي قاطع طريق شهم مغوار كان يحتمل أن تصبح لو أنك كنت في سن تصغر عن سنك يوضع سنوات ١٤ .

فأسألوهم ويحول وجهه نحوها : « هل زال كل السناج عن وجهي ؟ »

— نعم للأسف . فها يرني له أن لا شيء يتناسب مع أديم وجهك مثل

هذا الغلاء الذي ينم عن انجرام !

— إذن فأنت تسمين بطلا يكون من قطاع الطرق ؟

— إن بطلا بإيجليزياً من قطاع الطرق بل في الأهمية عندي قاطع طريق إيطالي ، ولا يبرهما سوى قرصان من الشرق .

— حسناً . مهما أكن فلا تنسى أنني زوجك ، بعد أن عقد قراننا

منذ ساعة أمام جميع هؤلاء النهود !

فقهقبت عالياً وقد تضرجت وجتاحتها . واسترسل مستر روشتر يقول : « والآن جاء دورك يادلت ؟ » .. وما أن اتضحت الثلة الأخرى حتى احتل روشتر وفرقه الأماكن الشاغرة . فجلست مس انجرام على عيني زعيمها ، يتأمل المتكهنون الآخرون سائر المقاعد على جانبيها . ولم أعد إذ ذاك أرقب المثلين ، ولا عدت أنتظر رقع الستار في لحظة

وشوق ، وإنا استأثر المفرجون بكل النباهي .. وأخذت عيناى
تجلبان على الرغم منى - ودون أن أمكث مقاومة - نحو المقاعد المصطفة
في نصف الدائرة ، بعد أن كانتا عالقين بالقبو الذى يفصل بين
القاعتين .. بل لئن لم أعد أفقه أى مشهد كان الكولونيل وغريفة يطلونه ،
ولا أية كلمة وقع عليها اختيارهم ، ولا كيف انطلقوا بعد ذلك .. ولكنى
مازلت أسمع المشاورة التى كانت تعقب كل مشهد ، وأرى مستر
روشستر وهو يستدير إلى مس الخمرام ، وأراها وهي تستدير له ، كما
شاهدتا وهي تحيل برأسها حتى تمس كفه بمحاذاتها القامة وتترك خصلاها
تسوج على وجنته ! .. وألقى أننى ما زلت أذكر حتى الآن بعض
ما شعرت به في تلك اللحظة إزاء ذلك المنظر .

ولقد أخبرتك .. أيها القارئ .. أننى تعلمت أن أحب مستر
روشستر : لم يكن في معنى ألا أفضى في حبه لغيره أنى وجدته
يكف عن الاهتمام بى ، أو لأننى كنت أفضى ساعات في حضرته
فلا يحول عينيه نحوى مرة واحدة ، أو لأننى رأيت كل اهتمامه قد
استحوذت عليه سيده عظيمة تربية أن يمسى طرف ثوبها أثناء مرورها ،
وتبادر فشيخ بعينها السوداوين عن وجهى إن اتفق أن وقفا على وكأنا
كانت تقولها عن شيء أحقر من أن يسأله أية ملاحظة أو اهتمام ..
نعم ، لم أفر على أن أكتف عن حبه لغيره أننى تأكدت من أنه لن يلبث
أن يتزوج من هذه السيدة بالذات ، ولا لأننى كنت أقرأ يومياً نوابه
نحوها فيما كان يبدو عليها من اطمئنان متعجرف ، ولا لأننى كنت
أشبه منه نحوها في كل ساعة ضرباً من التردد ، يبدو فاتراً ، ويرى

إلى حلها على أن تحرى هي وراعه ، إلا أنه كان في فتوره أسراً ، وقى
صبرته جازفاً لا سبيل إلى مقاومته 1

● لم يكن في هذه الظروف ما يخفف من وقدة الحب أو يقصيه ،
بل كان فيها ما يدعو للأسى والتمنوط . ولعل القارئ يرى في كثير من
هذه الظروف ما يثير الغيرة ، إذا كان في وسع امرأة في مكانى أن
تفار من امرأة في مكان مس الخمرام ، ولكنى لم أكن غيوراً أو أننى
لم أشعر بالغيرة إلا فيما ندر ، لأن طبيعة الأمل الذى كنت أفايه
لا تتطوى على شيء من معنى هذه الكلمة .. لقد كانت مس الخمرام
تحت مستوى الغيرة ، أى أفعال من أن تثير هذا الشعور ، ومعدرة
لهذا القول الذى يبدو متناقضاً في ظاهره : فإنى أعنى أن أقول : إنها
كانت رائعة في مظهرها ، ولكنه لم يكن مظهرها أميلاً غير مجلوب .
وكانت حسنة ذات معلومات عديدة مثيرة ، ولكن عطفها كان خائفاً
بقدر ما كان قلبها جميلاً بطبيعتها ، لا تنضح في تربته زهرة من نقصاء
نفسها ، ولا تمنع ثمرة إلا عنوة واضطناعاً .. أجل ، لم تكن طبيعة
النفس ، ولا ضادقة في مظهرها ، ولقد كانت ترد ما تفرقه في
الكذب من عبارات طائفة ، دون أن تعرض رأياً أو تكون لها فكرة
خاصة ، كما كانت تظاهر بالإحسانات المرفعة دون أن تعرف كيف
تعطف وتترفق لأنها مجردة من الصدق والحنان . ولطالما كشفت عن
هذه الحقيقة بما كانت تنسب به - دون داع - من كراهية حضور
لصغيرة أدبل ، فكانت تدفعها بظلمة واحتقار إذا اقتربت منها مصادفة ،

بل إنها كانت تطرد أحياناً من الحجرة وتعاملها على الأقدام ببرود وخشونة . وكانت عمون أخرى غير عيني ترقب هذه الظواهر الخلقية عن كثب وباهتمام ودفقة .. نعم كان مسر روشستر - عريس المستقبل بالذات - يفرض رقابة مستمرة على العروس المزمعة ، ومن هذه النقطة ، وهذا الحذر ، وهذا الوعي منه لعروب حسناؤه ، كان يقع الألم الذي راح يضيقني !.. فقد رأيت أنه سوف يتزوجها لاعتبارات عائلية ، وربما لأسباب سياسية ، لأن مركزها وعلاقتها كانت ثلاثية ، وشعرت بأنه لم يمنحها قلبه ، لأن مؤهلاتها لم تكن جديرة بأن تسوز بهذا الكثر منه . وكانت هذه هي النقطة !.. النقطة التي تمت الأعصاب وأثارتها .. النقطة التي أكثدت الحصى وغدتها ، أي أنها لم تستطع أن تغلب له وتستهيئ قلبه !

ولو أنها وقفت إلى الظفر في الحال ، فخضع واستسلم لها ووضع قلبه عند قدميها ، لغطيت وجهي واستلثرت إلى الجدار ، ولأثرت الموت - على سبيل المجاز - من أجلهما .. ولو أن مس انجرام كانت امرأة طيبة نبيلة ، وبهت القوة والحاسة والحنان والعقل ، لو جئتني في نضال مع نمرين : الغيرة والفتنوط !.. كنت إذ ذاك لا أملك إلا أن أصحب بها - ولو تحرق قلبي وتبدد - اعترافاً بضيقها ، ولقضييت بقية ألامي في حنوء ومسكنية .. وكلما زاد تنفوقها المطلق ، تضاعف إعجابي بها وميلى لحياء المسادة . أما وقد كانت الأمور على ما ذكرت ، فإن مشاهدة جهود مس انجرام لبقت مسر روشستر ، ومشاهدة ما كانت تحيى به من فشل .. فشل لم تكن تظنن إليه ، وإنما كانت تعال أن كل

رمية كانت تصيب المرء ، فكانت تزدحم مغفرة بأنها نجحت ، في حين أن كبريائهما واعتدادهما بنفسهما كانا يقضيان عنها الرجل الذي شامت أن تقتنضه وتسهر به .. كانت مشاهدة هذا كله ، تسلمني إلى الضمعال لا ينقطع ، وإلى كبت لا يرسم !.. ذلك لأني كنت أرى - عندما فشلت هي - كيف كان في وسعها أن تنجح ، فإن المسام التي كانت ترتطم بصدر مسر روشستر ثم تسقط عند قدميه دون أن تنال منه ، كانت خفيفة بأن تهز قلبه المتكبر ، وأن تبعث الحب في نظراته العابسة ، وأن تلهي من وجهه الساعر ، لو أن اليدين اللتين أطلقتهما كانتا أربع وأكثر ثباتاً من يدي مس انجرام .. وأكثر من هذا ، أن غزو قلب مسر روشستر كان ميسوراً دون ما أسلحه !

ووجعت أسائل نفسي : لماذا لا تقوى على أن تكون أكثر تأثيراً عليه ، وقد تسنى لها أن تقترب منه إلى هذا الحد ؟.. إنها ولا شك لا تستطيع أن تحبه حباً صادقاً ، ولا تستطيع أن توليه قلباً زاهراً بالحب ، وإذا فلا حاجة بها إلى رسم الانبسامات على شفتيها بهذا الإصراف ، ولا إلى بذل نظراتها دون ما حساب ، ولا إلى اصطناع هذه المظاهر البالغة الإفتقان ، وهذه الرشاقة المتعددة الألوان .. وإنما يخيل لي أنها تغلب أقرب إلى فؤاده ، لو أنها جلست ساكنة بجانبه ، واقتصدت في كلماتها ونظراتها .. ولقد شاهدت في وجهه آيات جده مختلفة عن هذا التجهيم الذي يعلوه الآن ، وذلك عندما كانت تخاطبه في مروح منبث دون ما تكلف أو افتعال ، وحاضر عن غير اصطناع وتزويق وحناورات مرسومة !.. إنها لن تتكلف أكثر من ثقل المواقف

على علائها .. فتجيب - عندما يسألنا - في غير تظاهر ، وتحاطبه ،
عندما تدعو الحاجة ، دون اصطلاح الاقتران .. فقل هذا المسلك لا يلبث
أن ينمو ، ويزداد رقة ، ويملاً فؤاد المرء دفناً وإشباعاً ١ .. ترى كيف
سيئسنى هذا أن ترحبه إذا ما أصبح زوجين ؟ ما أظنهما سيوفان في
ذلك .. ولكن ، لابد من التوفيق .. إن في وسع المرأة التي تتزوج منه
أن تغدو أسعد الزوجات في الدنيا ٢ :



● إنى لم أذكر حتى الآن أى شيء يتم عن استنكار لاعتزام مستر
روسترو الزواج من أجل المصلحة وروابط النسب .. والحق أننى
دهشت عندما اكتشفت أن تلك كانت نيته ، لأننى كنت أظنه رجلاً
لا يتأثر بمثل هذه العوامل المسببة في اختيار زوجته . على أننى كنت
كلما أعمت التفكير في مركزيهما وتعليميهما وما إلى ذلك ، أزداد
شعوراً بأننى غير محقة في الحكم عليه أو على مس انجرام ولومهما على
إفئادهما على التصرف وفقاً لأراء ومبادئ غريبة - ولابد - في
تفسيهما منذ الطفولة .. كانت كل طبعتهما تدين بهذه المبادئ ، واعتقد
أنها تنشأ بها لأسباب من نوع لا أملك أن أصوره .. وشيل إلى أننى
لو كنت سيداً مثله ، ما ضمنت إلى صدى سوى امرأة أستطيع أن
أحبها . ولكن وضوح الميزات التي يجد فيها الزوج سعادته الشخصية
من وراء هذا الرأي أقتنع بأنه لابد هناك من جميع وبراين أجهلها ،
تصد عن الأخذ به ، وإلا لعل الناس يمثل ما أريد . على أننى ما لبثت
أن بدأت أزداد تسامحاً مع عقوبى في نكاح أخرى ، كما فعلت في هذه

المنطقة ، فتناميت العيوب التي كنت أحسبها عليه . فقد كنت - من
قبل - أحوّل أن أدرس أخلاقه من كل النواحي - الطيبة والخبيرة -
لأزنها وأصدر عليها حكماً عادلاً ، ولكنى الآن لم أعد أجد فيها ما هو
خير على الإطلاق . وغدت روح اليكهم التي كانت تنفرد ، وروح
الجفاء التي كانت بروماً ما تروغنى ، أشبه فقط بتوابل حريفة في طبق
شهى ، وجودها لا ذع ولكن غيابها يجعل الطبق (مأخذاً) غير مستساغ ١ .
أما ذلك الشيء الميم الذى لم أكن أكرهه فكان يعبر عن شر أم عن
أسى ، وعن عزم أم عن قنوط ، والذي لم يكن يلصحه سوى الرقيب
المفرس ، إذ كان يومض في عينيه من وقت لآخر ثم يقف قبل أن
يسير المرء ما يكشف عنه من أغوار .. ذلك الشيء الذى كان يتعلق
أوجس وأنكش وكاننى ألتقي بين شلال يركانية ، وأشعر بالأرض
ترجيف وتغفر أفواحيها .. ذلك الشيء ، فلعلك أراه من حين إلى آخر
بقلب واجف ، ولكن دون أن تثل أعضاى ؟ وبدلاً من أن أحفل منه
أصبحت ألتف عليه وأتكهن به ، وغلت أن مس انجرام سعيدة لأنها
قد تصل يوماً إلى أحماق تلك الأغوار السحيقة - النكامة وراءه عليه -
فتكشف على مهبل عن أسرارها وتكمل طبعها ٢ : ولما كنت أقصر
تفكيرى عليه وحل سدى وعروسة المستقبل - لا أرى غيرها ولا أسمع
سوى حديثها ولا أحفل بغير حركاتها - كان بغية المدعوين منهمكين
في شغولهم الخاصة ومسراتهم ؟ فكانت السيدتان لين وانجرام مسترسلتين
في حديثهما الهادئ ، وهما تنهالان الإسماءات بعامتيهما ، وترفعان
أبشيها الأرفع عندما تعبران عن الدهش أو عن سر غامض أو قرع ،

تبعاً لما كان يخلل الحديث ، وتجري به المثرة ، وكأنهما ميثاق
مكبرتان ١.. أما مسز دنت الواقعة فكانت تحدث مع مسز إيشتون
الطيلة القلب ، وكانتا - في بعض الأحيان - تمنحاني كلمة جماملة
أو ابتسامة ملاطفة ، بينما كان السيد جورج لين والكولونيل دنت
ومستر إيشتون يتناقشون في الأمور السياسية أو شئون المقاطعة أو العدالة ،
في حين كان اللورد انجرام يغازل آني إيشتون ، ولويزا تعرف وتغني
مع أو لأحد ولدي السيد جورج لين .. وكانت ماري انجرام تصغي
فائرة إلى حديث الابن الآخر . وكان الجميع يصفون - أحياناً - على
أن يكثروا عن ألبابهم ولهم ليراقبوا ويصغوا إلى الممثلين الرئيسيين :
على أن مسز روشستر ومسز انجرام - الوثيقة الارتباط به - كانا
روح الزمرة .. وكان إذا تغيب هو عن الحجرة ساعة واحدة ، جنم
الوجوم على نفوس الضيوف ، فإذا عاد ، ارتدت للأحاديث تشوتها
ودبت فيها الحياة .

وقد تجلبت الحاجة ملحة إلى تأثيره المتعش ، عندما دعى ذات يوم
إلى (ميلكوت) في بعض الأعمال ، ولم يكن من المرتقب أن يعود
إلا في ساعة متأخرة .. وكان الأصيل مطراً . وكان من المضحك عليه أن
يلذهب المدعوون على الأقدام تنفج على إحدى خيام العجبر التي
أقيمت حديثاً على كعب من قرية (دائي) ، فرؤى العدول عن هذا
المقترح ، ومضى بعض الرجال إلى حظائر الخيل ، وصعد الشبان
والشابات إلى غرفة البليارد ، وجلست اللىدى انجرام تلعب الورق مع
اللىدى لين ، بينما رفضت بلاتش انجرام كل محاولة بذلتها مسز دنت

ومسر إيشتون لتحملها على مبادلتها الحديث ، ثم عرفت على البانوا
بعض الحان عاطفية ، ولكنها ما لبثت أن جاءت من المكتبة برواية ،
وأثقت نفسها على أريكة لعل سحر القصة يلبها عن السأم الذي استشرته
في غياب زميلها . وكانت القرقة والقصر برزحان تحت وطأة السكون ،
فيا عدا أصوات طروب تهبث من حين إلى آخر من غرفة البليارد .

● وشهادي الضيق ، ودقت الساعة تنبه إلى أن الوقت قد خان
لارتداء ثياب العشاء ، وإذا بأديل تصبح لجانة وهي جالية يجاني على
قاعدة النافذة بحجرة الاستقبال : «ها هو ذا مسز روشستر قد عاد» :
فاستدوت ، واندفعت مسز انجرام من أريكتها . واشترأت كذلك
أعناق الآخرين من حيث كانوا يجلسون ، عندما سمعت جلبة عجلات
ووقع حوافر جياد على الطريق المغمورة بالمياه .. ثم اقتربت عربة
للبريد ، فقالت مسز انجرام : «ماذا جعله يعود بهذه الوسيلة ١٤.. لقد
كان يركب جواده الأسود (مسرور) عندما رحل ، أليس كذلك ؟
وكان معه يابلوت .. لماذا فعل بالحيوانين ؟ »

وتقدمت - وهي تقول ذلك - نحو النافذة بغامتها القارعة وثيابها
الطويلة ، مما اضطرني إلى الانحناء حتى كاد ظهري أن يتخضم . وكانت
شدة هطها قد حالت دون أن تراقى ، فلما ألبست وجردت زمت شفتها
وانجهت إلى نافذة أخرى . وتوقفت عربة البريد ودق السائق جرس
الباب ثم هبط سيد يرتدى بزة السفر ولكنه لم يكن مسز روشستر
ولأنما كان رجلاً غريباً طويل القامة متأففاً ، فصاحت مسز انجرام في



وتسببت - وهي تقول لك - نحو المسألة بقائهما الفارمة وثيابها الطويلة ، مما اضطرني الى الإنهاء حتى كاد ظهري أن ينقسم

وجد أدب ! كم تغفلين أيتها القردة المنعبة ! من حلك إلى التافهة لتعطى أنباء كاذبة ؟ .. ثم ألقت على نظرة غاضبة ، كما لو كانت الغلطة خلطى .

وسمع حديث في اليوم ثم ظهر للقادم الجديد على الفور ، فأنقضى لليدى انجرام باعتبارها أكبر السيدات الحاضرات سناً ، ثم قال : « يبدو أنني جئت في وقت غير ملائم يا سيدتي ، لأن مسرر رويستر متغيب عن المنزل ، ولكن وصلت من رحلة طويلة جداً ، وى من سابق معرفتي الوطيدة به ما يجعلنى أبقي هنا حتى يعود ! .. وكان مهذباً في كلامه ، وإن بدا لي في لهجته شيء غير عادي : لم تكن لهجة أجنبية تماماً ، ولكنها مع ذلك لم تكن إنجليزية ! .. ولعله كان في سن مسرر رويستر تقريباً - بين الثلاثين والأربعين - وكانت بشرته شاحبة اللون . وفيما عدا ذلك كان جميل الوجه لا سيما عندما يقع عليه البصر لأولى مرة ، ولكنك إذا أنعمت النظر إليه ، اكتشفت شيئاً في وجهه لا يروق : أو بالأحرى يشفق في أن يروق للعين : كانت أسنانه منتظمة ولكنها شديدة الارتخاء : وكانت عيناه واسعتين جميلتين ، ولكن الحياة التي كانت تلوح فيما كانت خاملة خاوية : أو هذا على الأقل ما نحيل إلى !

ودوى جرس ارتداء الملابس فانتشلت الجاهلة : ولم أر ذلك الضيف الجديد إلا بعد العشاء ، فلما مضت وأدعاً ، بيد أنني ازدادت عدم الارتياح إلى أسنانه ، فقد نحيل إلى أنه في الوقت ذاته كان غير متزن ، بل كان جامداً ، خالياً من الحياة وفي كانت عيناه تجولان دون

أن يسافر في تجوالها أي معنى ، مما أكسبه شكلاً قريباً لم أر له مثيلاً من قبل .. وكان مليحاً ، وليس في مظهره ما يصد عن الجلب إلىه ، ولكنه أثار نظري إلى درجة كبيرة ، إذ لم يكن في وجهه الناعم البشرة ، ذي الشكل البيضاوي ، شيء من القوة .. ولا في أفه الحاد وفه التدقيق أي حزم .. ولم يكن يبدو على شيء من أسايره .. حتى جبينه المنخفض الضيق .. ما يتم عن أي تفكير .. كما لم يكن في تلك العين العلية الخالية من التعبير ، أي مظهر لقوة الشخصية والسلطان !

وانطدت .. وأنا جالسة في ركني .. أقام الرجل في ضوء التراب الموضوعة على حافة الموقف ، وقد تسلط على وجهه ، إذ كان يشغل مقعداً كبيراً بجوار المدفأة ولا يفتأ يقترّب منها بين لحظة وأخرى وكأنه كان يشعر ببرد . ثم أخذت أقارن بينه وبين مستر روشستر ، وأعتقد .. مع الاحترام .. أن القارق بينهما لم يكن يعدو ، بين ذكر الورد الخليل وبين الباز الجارح ، أو بين الخروف وبين الكلب الكئيب الشعر الحاد العينين الذي يحرسه ! .. ولقد ذكر مستر روشستر كصديق قديم له ، ولابد أنها كانت صداقة عجيبة ، تقوم صورة حية للمثل القديم عن اجتماع التقيضين ! .. وكان يجلس بالقرب منه اثنان أو ثلاثة من السادة ، فتناهدت إلى أذن .. عبر الحجرة .. نصف من محادثتهم ، ولم أستطع في أول الأمر أن أتبين معنى لما كنت أسمع ، لأن الجسدال بين ماري الجرام ولويس إيشتون .. وكانا أقرب منهم إلّ .. غطى على حديثهم .. وكانا يتحدثان عن الضيف الجديد ، فوضفته كلناهما بأنه رجل جميل ، وقالت لويزا : إنه مخلوق محبوب ، وإنيها

شديدة الإعجاب به ، كما تحدثت ماري عن « قه الصغير الجميل ، وأفقه الديق » ، وكأنه مثلاً الأعلى للفتنة . وصاحت لويزا : « يا جبينه الذي ينطق بطنية الخلق ! .. إنه أملس جداً ، خلال من التجاعيد غير المنتظمة التي أمقتها كثيراً ! .. » وبألفاظه الواحدة ، وإبشامته الماداة ، وما ليث مستر هنري أن دعاهما .. لاوتياحي .. إلى الجانب الآخر من الحجرة ، قامت في أمر خاص بالثروة .. التي أوجدت .. إلى (هـاي) . وإذا ذلك استطعت أن أركز انتباهي على الرجال الجالسين بجوار الموقف ، وسرعان ما اكتشفت أن الزائر الجديد يدعى مستر (ميسون) ، وأنه قادم نسوة إلى إنجلترا من إحدى البلاد الحساسة ، مما كان السبب .. ولا شك .. في سمرة وجلسه الجند قريب من المدفأة ، وارتدائه العطف في البيت . وما لبث ذكره لكلمات : جاييكا ، وكينجستون ، وحياتش تاون ، أن تم عن أنه كان يقسم في جزر الهند الغربية . كما اكتشفت لدهشتي أنه قد ألق لأول مرة بمستر روشستر في تلك الجزر ! وتحدثت عن كراهية صديقه لقراءة الشديدة ، والعواصف والفصول المضطربة في ذلك الإقليم .. وكنت أعلم أن مستر روشستر رحالة - كما سمعت من مسر فيرفاكس - ولكني لم أكن أعتمد أن مسافره قد تجاوزت أوروبا ، ولم أسمع حتى الآن ما يشير إلى أنه سافر إلى بلاد نائية !



● وفيما كنت أمرح الفكر في هذه الأشياء . وقع حادث لم يكن في الحسبان قطع حبل تأملاتي .. فقد اتفق أن فتح أحد الخدم الباب ، فطلب منه مستر ميسون - وهو يرتعد - أن يخرج بترد من الفرح بانيه

فی النار التي كانت قد خمدت . وعندما جاء الخادم بالفحم وهم بالخروج ،
توقفت بالقرب من مفعد مستر إيشتون ، وأمرت إليه ببعض كلمات لم
أسمع منها سوى (امرأة عجوز) و (متعبة جداً) . وأجاب مستر إيشتون
(القاضي) : « قل لها أن ترحل وإلا أموت بإرسالها إلى السجن » .
فتدخل الكولونيل دنت ، قائلاً : « كلا .. قف ! .. لا تطردها يا إيشتون
فقد نستفيد من الأمر .. الأفضل أن نستشير السيدات » :

ثم التفت إليهن وقال بصوت مرتفع : « لقد تحدثت عن اللعاب
إلى قرية (هاي) لزيارة خيام الغير ، ولكن ها هو ذا (سام) يقول
إن إحدى العجائز العجربات هنا في غرفة الخدم ، وتلج في الموقر أمام
السادة ، لتكشف لهم عن حظهم ، فهل ترغبين في مقابلتها ؟ » .. فصاحت
الليدي انجرام : « إنك بلا شك لن ترضي بتشجيع هذه المختالة الدنيئة .
اطردها في الحال بأية وسيلة » . فقال الخادم : « ولكنني لا أستطيع
حملها على الانصراف يا سيدتي .. ولا أحد من الخدم يقدر . إن مسز
فيرفاكس معها الآن ، وتصرع إليها أن ترحل ، ولكنها جلست على مقعد
في ركن من الغرفة ، وقالت إنه لن يستطيع شيء أن يرحلها من مكانها
بما لم يؤخذ لها في الحضور إلى هنا » .

فصالت مسز إيشتون : « وما الذي تريده ؟ » :

« أن تأتي السيدات بمحظوظهم .. وهي تقسم على أنها يجب أن تفعل
ذلك » وأنها ستفعله .

فصالت ابنتا مسز إيشتون في وقت واحد : « وما شكلها ؟ » .

« مخلوقة شطاة ، تلهل اللب بدمعتها بأآسة .. سوداء كالساج !

فصاح فردريك لين : « إذن فهي ساحرة حقيقية ! .. دعوها تدخل
بطبيعة الحال ! .. » وقال أخوه : « الحق أنه من دواعي الأسف الشديد
أن نطرح عنا مثل هذه القرحة المزاح » .. فصاحت مسز لين : « فم
تفكرنا يا بولدي العزيزين ! .. » وقالت ليدي انجرام نقدها : « لا يمكن
أن أقبل الإلحاح في مثل هذا العمل » . وقالت بلانش المتعالية وهي تنبؤ
بكرسيها أمام الليانو : « حقاً يا أمها .. بل أنت تستطيعين ! .. ابنتي
أنظف على معرفة مستقبل .. من المرأة باسم بالدخول » :

« تذكريني يا عزيزتي بلانش .. »

« ابنتي أنذكر كل ما تريدتين ولكن إراقتي يجب أن تنفد » :

أسرع باسم !

واعتقد صناع الشباب من السيدات والسادة : « نعم .. نعم .. نعم !
دعها تدخل .. ستكون تسليّة طريفة » .. ولكن الخادم تلكأ ثم قال :
« إنها تبدو غريبة في النظافة ! .. فصرخت فيه مسز انجرام : « اذهب ! »
فضى الرجل . واشتد هرج الجماعة على التواء وقد سرت فيهم حتى
التكلمة والنبكات : إلى أن عاد (سام) يقول : « إنها الآن ترفض الشيء
وتقول أن ليس من مهمتها أن تظهر أمام قطع مبتذل » .. فهذا نص
تعريفها .. بل لابد من أن أدخلها منفردة إلى إحدى الحجرات .. وعلى
الذين يرغون في استشارتها أن يتجهزوا إليها فرادى ! .. »

فصالت الليدي انجرام : « ها قد رأيت يا ابنتي الجيلة أنها تجاوزت
حدودها .. أصفني إلى تصيحي يا (ملاكي) و .. » فطاطعتها (ملاكي)

قائلة لخادم : « أدخلها إلى المكتبة لأنني أيضاً لا أريد أن أصفني إليها

أمام «القطيع المبتدئ» ، بل يجب أن نعلم بها . هل بالكتابة مدقاة ١٢ .
 — نعم يا سليلك ولكن يبدو أنها ثرثرة !

— كئي ثرثرة أنت يا أحمق ، واصدع بأمرى !

ثم اعتنى سام مرة أخرى ، فعاد الغموض والانتعاش والثرثبات إلى القروية .. وعاد الخادم يقول : « إنها الآن على استعداد وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها .. فقال الكرنوليل : « أرى أنه يحسن أن ألقى عليها نظرة قبل أن تلعب إليها إحدى السيدات . قل لها يا سام إنني قادم » .

فخصي سام ولكنه رجع يقول : « إنها تقول يا سيدى إنها لن تقابل أباً من السادة » ، وأن لا حاجة تدعوهم إلى إذعاج أنفسهم بالاقتراب منها . ثم أردف يقول وهو يجاهد في حيص ضحكة تكاد تنفجر : « وهي لا تريد كذلك أى سيدات ولا تقبل إلا من كانت شابة ولم تتزوج بعد ! » .

فصاح هنرى لين : « والله إنها حسنة اللوق ! » .

وفات مس انجرام في وقت ثم قالت بلهجة القائد المقبل على خاطرة :
 « لسوف أكون الأولى في الذهاب .. فصاحت أمها : « أواه يا حبيبتي !
 قل يا عزيزتى .. فكرى ! .. ولكن الفتاة مرت من أمامها في صحت شامخ واجتازت الباب الذى فتحه الكرنوليل ثم سمعناها تدخل المكتبة . وأعقب ذلك سكوت نسي .. وقعت القلبي انجرام من الأمر يدق بديها بألماً وقنوطاً ، بينما صرحت مس مارى بأنها — من ناحيتها — لا تجرؤ على

مثل هذه المغامرة ، في حين تضاحكت آنى ولويزا إيشتون في خفوت ، وإن تجل عليهما بعض الملح .

وانقضت الدقائق بطيئة كلى البطء .. واكتملت خمس عشرة دقيقة قبل أن يفتح باب المكتبة ، وتعود إلينا مس انجرام خلال القبو .. ترى هل متضحك ؟ .. هل متأكد الأمر على أنه دهابة ؟ .. واستقبلتها العيون جميعاً بنظرة فضول مشوبة ، فتقابلت الفتاة كل العيون بنظرة صمود وبرد . ولم تكن تبدو مستاءة ، ولا مرحة .. بل مضت إلى مقعدها بخطوات ثقيلة ، ثم جلست عليه في صمت وسكون . وعندئذ سألتها اللورد انجرام : « حسناً يا بلاتش يا .. وسألتها مارى : « ماذا قالت لك يا أختاه ؟ .. وقالت لويزا وآنى إيشتون : « ماذا ترين ؟ يم تشعرين ؟ هل هي حقيقة عرافة ؟ » .

فأجابتهن مس انجرام : « على رسلكم يا ناس ! .. لا ترهقوني بالإلحاح . من السهل أن يفور العجب والشك في نفوسكم ، بل يخل إلى من اهتمامكم الذى تعلقونه جميعاً بما فيكم والذى — على هذا الأمر ، أنكم تعتقدون اعتقاداً مطلقاً بأن لدينا ساحرة حقيقية . لقد شاهدت الآن نورية من الأوغاد الرحل ، مارست علم قراءة الكف فأخبرتني بمثل ما يقوله أمثالا عادة . وبذلك أكون قد أسيبت لزوى . ولعله من الخير أن يرسل مستر إيشتون هذه السمطاء إلى المجن في صباح الغد . كما كان يتوعد » .

ثم تناولت كتاباً واضطجعت في مقعدها زاهدة في أى مزيد من الحديث . وراقبت حوالى نصف ساعة ، فلم أرها تنضوي صفحة واحدة

من الكتاب الذي كانت تحمله في يدها ، بل رأيت وجهها من داء
أفكر أرا في كل لحظة ، وتبدي عليه أمارات الامتعاض وخيبة الأمل ،
فأدركت تماماً أنها لم تسمع كلمة موافقة ، وخيل لي .. من طول اكتئابها
وإغلاها إلى الصمت .. أنها تعلق أهمية كبيرة ، لا مبرر لها ، على ما قيل
لها على الرغم من نظائرها بعدم الاكتراث .. وفي تلك الأثناء صرحت
بأمر التجارم وأتى ولويزا يشتون لهن لا يعرفون على الذهاب مقررات
رغم تلفهن على الذهاب ، فجرت مغاضبات على يد الوسيط (سام) :
انتهت بعد عشاء بأن سمحت العرافة لها بالظهور أمامها معاً . ولم تكن ذيارتين
ساكنة كزيارة من التجارم ، إذ سمعت ضحككتهن اغتيرية ، وبعض
صباحات تبيت من المكبة .. وأخيراً .. بعد نحو عشرين دقيقة .. ففتح
الباب على مصراعيه بعنف ، ووجهن يجرون عبر البهو كأنهما مسهن الجبل ،
كل منهن نصيح ، في وقت واحد : « إني والقة من أنها ليست من
البشر ! .. يا للأشياء التي حدثت لنا هنا ! .. إنها تعرف عنا كل شيء ! » .

ثم غصن لاهئات في المقاعد التي أسرع الرجال يقدمونها لهن .
ولما ألح الباقون عليهن في طلب المزيد من الإيضاح صرحن بأن المرأة
أخبرتهن بأمر قلها وفعلها وهن أطفال ، كما وصفت الكتب وأدوات
الزينة التي كانت لديهن في غادعهن الخاصة ، ووصفت اقديا التي
قامتها إليهن الأقارب . وأكلت أنها قرأت ما كان يدور في رؤوسهن
وأنها حسرت في أذن كل منهن باسم الشخص الذي تميل إليه كل الميل ،
وأخبرتهن بما تنوق إليه نفس كل منهن ! .. وهنا تدخل الرجال متوسلين
أن يزدن النقطتين الأخيرتين إيضاحاً ، ولكنهم لم ينفروا من سوى

نضرج الوجفات بمجرة الخضر والحياه وبعض صيحات واعتلاجات
وضحكات ! .. وفي تلك الأثناء قدعت غير الشبابات روح النواظر
والأرواح النقيات ، ذليلاً على ما يساورهن من قلق ، لأن ما قدعته لمن
من ثنائير لم يعمل به في الوقت المناسب ! .. بينما فهذه الشيوخ من السادة
وتطوخ الشبان يعرفون خدماتهم على الحسنات والمخائرات ، المضطلات !

وفي غمرة ذلك المرح والمرج ، وفيها كانت عينا وأذنا منصرفة
إلى ذلك المشهد تماماً ، سمعت تحتة عند مرفقي ، فاستدريت ورأيت
سام الذي خاطبني قائلاً : « مغررة يا ألسة فإن الفجرية تقول إنه ما تزال
بالجيرة شابة غير متروجة لم تذهب إليها بعد ، وتسمي ألا تذهب حتى
تراه ، وأظنها تعينك ، إذ لم تعد هناك غيرك ، فإذا أقول لها ؟ » .

فأجبت : « أوه .. سأذهب من غير شك ! »

وفرحت بفرصة لم أكن أتوقعها لإشباع الفضول الذي كان
يضطرم في نفسي ، فسللت من الحجرة دون أن ترائي عين ، لأن
الجميع كانوا مثنيين حول الثلاث المرتجعات العائدات لهن من لدى
العرافة . ثم أغلقت خلفي الباب في صدمه . وقال سام : « إذا كنت
يا سيدتي انتظرتك في الردة ، وإذا أقرعتك ناديتي فأدخل على الفور » .

— كلا يا سام : عد إلى المطبخ فليست عرافة بخال !

والواقع أنني لم أكن خائفة ولكن كنت شديدة الاغتياب والاهلة :

الفصل التاسع عشر

• بدت المكتبة تسبح في المهدوء عندما دخلنا . وكانت العرافة - إذا كانت تلك المرأة عرافة - مضطجعة في مقعد مريح ، عند ركن المدفأة ، وقد ارتدت عباءة حمراء وقلنسوة سوداء ، أو بالأحرى قبعة من قبعات الفجر العريضة الحافة ، شدت بمنديل مخطط إلى ما تحت ذقنها . وكانت على المنضدة شعة مطفأة ، فانعتت العرافة فوق النار تقرأ على وجهها في كتاب صغير أسود كتكتاب الصلاة . وكانت تغعم لنفسها بالكلمات شأن العجائز عندما يقرآن . ولم تكنف عن المطالعة فور دعوني ، وكأنما كانت ترغب في الانتهاء من إحدى الفقرات .

ووقفت فوق السجادة أدق يدي المتين بردنا لجلوسني الطويل بعيداً عن المدفأة في حجرة الاستقبال . . . وشعرت إذ ذلك برباطة الجأش كعادتي دائماً في الحياة ، إذ لم أجد في الحديقة شيئاً في مظهر العجوبة يزعزع الهدوء والسكينة . وما ليث أن طوت كتابها ، وزاغت عينها إلى يده . وكانت حافة فينحنا نطلل جزءاً من وجهها ، ولكنني استطعت أن أراه عندما رفعتها ، فإذا به وجه غريب ، تتناوب فيه البسمة والسواد . وقد برزت بعض خصائص من شعر غشن أشعث ، من تحت عصابة يضاء امتدت إلى ما تحت ذقنها ، مغطية أكثر من نصف خديها ، وفكها . . . ورمضني حينها على الفور بنظرة جريئة . مسددة . ثم قالت بصوت يماثل نظراتها جرأة ، وبشبه أسرارها خشونة : « حسناً . . . أفتردين إذن أن تسمعي طالعك ؟ » .

- لا يهمني ذلك كثيراً يا أماء أنت وشأنك ! ولكنني أنبهك إلى أنني لا أؤمن بذلك !

- إن قولك هذا يماثل جرأتك التي توقفتها منك وصمتها في خطوك وأنت تعبرين عتبة الباب .

- حسناً ! إنك حادة السمع :

- ثم وجادة البصر . . . وخادة الذهن !

- إنك تحتاجين إلى هذا كله في مهنتك :

- فعلاً ، وخاصة عندما أقام مع زبائن مثلك . لماذا لا ترتعدين ؟

- لأنني لست (بردانة) !

- ولماذا لم يشحب وجهك ؟

- لأنني لست مريضة .

- ولماذا لا تستشيرين حرفي ؟

- لأنني لست حقاً !

فأطلقت العجز الشفلاء ضحكة ثوارت تحت القلنسوة والعصابة ، ثم أخرجت غليوناً قصيراً أسود ، أشعلته وأخذت تدخن . وبعد أن نعتت فترة بذلك (المهدئي) لأعضائها ، رفعت ظهرها المقوس ، وانترعت الغليون من بين شفتيها ، ثم قالت في ثرو بالغ وهي تملق في النيران : « أنت بردانة . . . أنت مريضة . . . أنت حقاً ! » . قلت : « برهني على ذلك » .

- سأفعل في إنجاز . . . إنك تشعرين بالبرد لأنك وحيدة لايشغل نيرانك الكائنة احتكاكك . . . وأنت مريضة لأن أسمي وأحلي ما يوجب من

المشاعر للرجال ، ينأى عنك ويبتعد .. وأنت حبيب لأنك برغم ما تقاسم
لا تشيرين إليه ليقترب منك ، ولا تقسمين نحوه خطوة واحدة لتلتقي
به بحيث يترقبك !

ثم أعادت غايوها القصير الأسود إلى شفتيها وراحت تدخن من
جديد ، بشدة ولهم ، فقلت : « في وسعك أن تقول هذا لكل إنسان
تقريباً ، مادمت تعلمين أنه محباً وخليفاً وعالة في قصر كبير » :

— في وسعي حقاً أن أقوله لكل إنسان تقريباً ، ولكن هل هو
يصدق على الجميع ؟

— إذا كانوا في ظروف :

— نعم : هذا صحيح : في ظروفك ، ولكن آتيني بإنسان آخر له

مثل ظروفك تماماً :

— من السهل أن آتيك بالآلاف :

— بصعب أن تجدي مثلاً واحداً .. ولعلك تعلمين أنك شاذة في
موقفك : إنك قريبة جداً من السعادة .. إنها في مثناولك ، وكل المواد
اللازمة لها مهابة ، ولا تحتاج إلا إلى حركة تلمها وتجمعها ، لأن المصادفة
فرغت بينها قليلاً : ولو أنك قريت بينها مرة ، لأنتجت الخفاء !

— ألا أنا أفهم الأحاسيس ، ولم أستطع في حياتي حل لغز واحد .

— إذا أردت مني أن أكلمك بمزيد من الوضوح ، فأرني كلمك .

— أظن من اللازم أن أروي يابض ٩ :

قالت : « بالتأكيد ! »

• وأعطيتها شيئاً وضعت في جوربه قديم — أخرجه من جيبي ثم طوته
وأعادته إلى مكانه — قبل أن تطلب مني أن أبسط لها يدي ، فلما فعلت ،
اقتربت بوجهها من كفي ، ونظرت إليها ملياً دون أن تحسب ثم قالت :
« إنها كذب بضة جداً ، لا يمكن أن أستعين فيها شيئاً ، لأنها خالية من
الخطوط . ومع ذلك فاذا في الكذب ! » إن المصير لا يكتب فيها ! ..
فقلت : « إنني أصدقك في هذا .. ولكنها استمرت في حديثها قائلة :
« كلا .. إنه مسطر في الوجه : على الجبين ، حول العينين ، في العينين
ذاتهما : في خطوط الفم .. أركعي وارفعي رأسك ! .. » فقلت وأنا
أطأها : « آه .. إنك بدأت تهتدين إلى الحقيقة ، ولذلك سأمنحك بعض
ثقتي مؤقلاً ! » .

ثم جلوت على بعد نصف ياردة منها ، فحركت يدي إلى أن
تألفت قطعة من اللحم فأرسلت وجهي إلى على وجهها — وهي في
جلستها — ظلالاً أشد ظاماً وقاماً ، بينا أضاء وجهي : ثم تضحكتني
قليلاً ، وقالت : « إنني لأستأجل : بأي شعور جفنتي ، وأية أفكار كانت
تساورك أثناء الساعات الطويلة التي قضيتها جالسة في تلك الحجرة مع
أولئك الأغنياء ، وهم يتحركون أمامك كأطياف تلمع من قانون
عصرى ، ولا يكاد يدور بينك وبينهم حديث ودي ، وكأنهم أطياف في
أشكال بشرية ، وليسوا أجساداً حقيقية ؟ »

— إنني كثيراً ما أشعر بالتعب ، وأحس أحياناً بميل إلى النوم ،
ولكنني فلما أشعر بالحزن ..

— إذن : فهل برأودك أمل على برفعك ويسعدك بما بهمس إليك عن المستقبل ؟

— كلا .. إن أقصى أمل برأودني أن أذكر من مرتبي ما يمكن لإنشاء مدرسة في بيت صغير أسأجره لنفسي :

— إنه لغلاء روعي ثاقه لا يقيم لوداً ! .. ثم إن جلوسك على قاعدة تلك النافذة .. ألا ترون أنني أعرف عاداتك ؟

— لقد عرفتها من الخدم .

— آه ! .. إنك تحسبن نفسك لبيبة حاذقة . حسناً .. ربما كان الأمر كذلك .. وإذا شئت الحق ، فلنني قد تعرفت إلى واحدة من الخدم :: مسز بول .



● ووليت وافقة إذ سمعت هذا الاسم ، وأنا أقول في نفسي : « هل تعرفت إليها ؟ » إذن في الأمر إمكانية ، ورغم كل شيء .. على أن المخلوقة العجيبة استرسلت في حديثها قائلة :

— لا تروعي .. إنها مأموقة الجالب .. إن مسز بول أمينة وحاذقة وفي وسع المرء أن يوليها ثقته . ولكني أعود فأقول : عندما تجلسين على قاعدة النافذة ، أما كنت تفكرين في غير مدرستك المرجوة ؟ . أليس لك اهتمام خاص بواحد من القرن يحطون الأرائك والمقاعد أمامك ؟ . أليس هناك وجه تدرسيته ، أو شخص تتابعين حركاته بشيء من الفضول ؟

— إنني أحب أن ألاحظ كل الموجود وكل الأشخاص :

— ولكن ، ألا تحسبن واحداً دون الآخرين .. أو ربما اثنين ؟

— أفعل ذلك كثيراً .. عندما يبدو لي أن حركات اثنين أو نظراتهما توحى بقصة .. فإذا ذاك يسليني أن أرقبهما .

— وأية قصة تؤثرين سمعها ؟

— آوه : . ليس هناك مجال للاختيار ، فكل القصص عادة تدور حول موضوع واحد : مطاردة غرامية ثم وعد ينتهي بنفس الكارثة .. وهي الزواج !

— وهل يروق لك هذا الموضوع المتكرر الممل ؟

— إنني في الواقع لا ألاحظ به ، لأنه لا يهمني :

— لا يهمك ؟ إذا جلست شابة زائفة بالنسحة والحياة والجمال القاذور والغرور والجلاء .. وراحت تبسم في وجه سيد ، أنت ... أنا ماذا ؟

— أنت تعرفينه .. وربما كنت تتكلمين من التفكير فيه :

— أنا لا أعرف السادة هنا ، وقبلنا تبادلنا حرفاً مع واحد منهم ..

أما عن التفكير فيهم ، فإنه لا يتجاوز أنني أرى بعضهم يجديرون بالاحترام — فهم سادة مهيون ، في أوسط العمر — وأرى البعض الآخر شيئاً جريئاً على جانب كبير من الجمال والحياة والنشاط ، ولكن ، ما من ويب لي أن هؤلاء جميعاً كل الحرية في أن يلقوا ما يرضيهم من الانتماءات دون أن أشعر بأن الأمر يهمني في كثير أو قليل !

— إذن فأنت لا تعرفين السادة هنا ؟ ولم تتبادل حرفاً مع واحد منهم ؟ .. أقولين هذا عن سيد البيت ؟

— إنه ليس في البيت .

— ملاحظة حقيقة العسور : ومغالطة بارعة ! لقد ذهب إلى (ميلكوت) في هذا الصباح وسعود البيلة أو غداً : فهل يصبه هذا الظرف عن قائمة معارفك ويصحه من الوجود ؟
— كلا ، ولكني لا أرى أية علاقة لمستر روشستر بالموضوع الذي قدمته !

— كنت أحدث عن السيدات الأثري يطمعن في عيون البادة : ولقد اكتفيت أخيراً بالسمات لا حصر لها في عيني مستر روشستر ، حتى فأخشا كوخاين اترعا حتى الحافة . ألم تلحظي ذلك ؟
— لمستر روشستر كل الحق في أن يسمع بصحة شيوذه .
— لا جدال في حقه هذا ، ولكن ألم تلاحظي أنه قد أوتى بأكثر نصيب من الأقوال التي دارت حول الزواج : وبأكثرها استمرار ؟

● وكانت العجيرة قد لفتني بتدبيرها العجيب وصوتها وأطوارها وما يشبه الحلم . لما كنت أتوقع أن تلعب العبارة تلو العبارة من بين ثغيبها . بهذا الشكل .— إلى أن وجدتني أتخبط في نسيج من الخبرة والغموض ، وأتأمل : أية روح خفية تقبع بالقرب من قلبي . وترصد حركاته ونبضاته ؟ .— وتلت أحدث نفسي أكثر مما كنت أحدث العجيرة : إن لفة السامع تلهب لسان المتحدث ! .

— لفة السامع ! أجل لقد كان مستر روشستر يجلس الساعة وأذنه إلى الشفتين اللانيتين المحيطتين بمحادثته .. وكان يلهث على

الإصغاء وهو يادي الامتنان بالوقت الممنوح الذي يتاح له . أما لاحظت ذلك ؟

— يادي الامتنان .. لا أذكر أنني اكتشفت على وجهه آيات الامتنان .

— اكتشفت .. إذن فقد حلت وجهه ؟ أية آيات وأينها إذن غير الامتنان ؟

فلم أقل شيئاً .. بينما استطردت العجوز تسألني : « لقد رأيت الحب .. ليس كذلك ؟ » . ثم تطلعت إلى المستقبل فراينته قد تزوج وأمسد عروسه ! .

— ليس هذا بالضبط .. إن مهارتك في السحر تخطئ في بعض الأحيان .

— فساداً رأيت إذن ؟

— لا يهيم .. لقد جئت إلى هنا لأسأل وليس لأعترف .. هل المعروف

أنا مستر روشستر مستزوج ؟

— نعم .. من الحسنة منس الخرام .

— قريباً ؟

— إن الظواهر تؤكد هذه الخلاصة . ولا شك . وأقولها لأنه يبدو عليك أنك تريد أن تسأل عنها لولا أن الجرأة تعوزك .— في أنها سيكونان زوجين بالغين السعادة .. إنه ولا بد خليك بأن يجب مثل هذه السيدة الجميلة النبيلة ، الذكية المهذبة . ومن المحتمل أنها تحبه .. إن لم يكن لشخصه فلا أمواله ، على الأقل ، وإن كانت تعتبر أمواله موقوفة

بعد أن أعبرتها - معاني الله - بذلك منذ ساعة ، فارتسمت على وجهها
أموات الدهشة والحزن ، وتدلّت شفتها ، فتصحبها بأن تبحث عن
خطيب آخر يجعل قائمة أطول يلجأزاته المستحقة ، والتي لا تخضع
لقبود !

- ولكني لم أجيء بأمامه لأجمع مستقبل مستر روشتر ، وإنما
جئت لأجمع حظي ، فإذا بك لم تخبريني بشيء عند !

- إن حفظك مازال موضع شك . وعندما درست وجهك وجدت
كل سطر فيه يناقض الآخر ، وإن كنت أعرف أن القدر قد وهبك
قطعة من السعادة .. عرفت ذلك قبل عيئي إلى هنا هذا المساء ! .. نعم ،
وهبك القدر قطعة من السعادة ، والأمر يتوقف على أن تحمدي بذلك
لناخذني هذا القسط : فهل متعدين بذلك ؟ .. هذه هي المشكلة التي
أدركها . أركعي ثانية على السجادة !

- لا تسبقيني طويلاً لأن الكبار يلقح وجهي .

■ وجثوث أمامها فلم تنحن فوق ، وإنما راحت لتدلق فخ وهي
مضطجعة على ظهر متعدها ، ثم بدأت تنغم قائلة : « اللهم يترافض
في العين .. العين تأتني كالتندي ، فيقد رقيقة زاهرة بالإحساس وتبسم
لرطائقي .. إنما حساسة ، سريعة التأثير ، تنجلي في عبقها الصافي الأبر
نحو الأثر ، حتى إذا كلفت عن الانقسام بدا فيها الحزن . ونفل جفناها
تنبص لأشعوري يوحى بالأمسي الناجم عن الوحدة .. لقد تحولت عني
الآن : لأنها لم تعد تحتل مزيداً من الفحص والتدقيق ، وكأنها تنكر

حقيقة هذه الاكتشافات بنظرة ساحرة منهكة 1 : إن العين تبشر
بأنغير ! : أما ألم فيضحك أحياناً وقد استخذه الفرح والابتهاج . وهو
يميل إلى الإفصاح عما يدور في العقل ، وإن أخذ إلى الصمت في كثير مما
يخلج به القلب ، إنه لم يخلق مرة لينا لكي يرح تحت ضمت الوحدة
الأبدية ، وإنما هو لم يخلق بأن يتكلم كثيراً ، وأن يحس بالمودة البشرية
نحو من ينجيه .. إن ألم هو الآخر يبشر بأنغير !

« إنني لا أرى غربة لطال سعيد ، إلا في الجبين .. هذا الجبين
الذي يعترف قاتلاً : إن في وسعي أن أعيش وحيداً إن انتصاني ذلك
احتراس لنفسى ، وتطلبته ظروف الحياة ، ولا حاجة تدعوني إلى بيع
روحي ، لأستري بها النعم القيم ، فقد ولد معي كثر في أملواني
يمكنني من أن أظل حياً إذا حبت عني كل المباح العارضة ، أو إذا
لم تنح في إلا مقابل ثمن أعجز عن أدائه . ويقول الجبين : إن العقل
يخلص ثباتاً وقد أمسك بأعنة المشاعر ، لا بدعها تفلت وتتدفع إلى
المهاوى الموحشة .. إن الأهواء قد تحتاج في غضب وغف ، والشهوات
قد تنزهم شكل ضروب الأماني الكاذبة ، ولكن العقل سيكون صاحب
الكلمة الأخيرة الفاصلة شأنه في كل جدال .. فهو الذي يدلي بالصوت
الراجح في كل قرار . وقد تمر العاصفة والزلازل والبراكين ، ولكن
سأنتبع لإرشادات هذا الصوت الصغير الذي يترجم ما يحياه الضمير » .
« لقد أجدت الحديث أيها الجبين ، وسأبقى وأبك كل احترام ..
وقد رحبت عطلتي .. وهي عطلت سلبية في رأيي - وفيها أصبحت إلى
ما يوجب به الضمير وبشير به العقل . وأنا أعلم كيف يذبل الشباب

سريعاً ونضوى زهرته ، إذا ما غاطت كأس النعم قطرة واحدة من
نخري أو ندم ، انى لا أشهد التضحية والأسمى والنجور .. فقل هذه
الأموال لا تلحم مزاجي .. وإنما أريد أن أكون مصدر تغذية وتنمية ،
لا مصدر سم وموت .. أريد أن أكتسب الشكر والاعتراف بالجميل ،
لا أن أعصر قطرات الدم .. لا ، ولا قطرات الدموع : يجب أن يكون
حصاتي من الأقسام والاعتزاز اطلو المذاق ، كفى ، كفى : أفلى
قد أصبت بأولة من المذنبان ، وعلي في أن أطيل هذه العظة إلى
ما لا نهاية ، لولا أنني لا أجرو .. لقد سيطرت حتى الآن على نفسي ،
وتصرفت وفقاً لما عاهدت عليه نفسي ، وأكن المجادى قد بضني
فوق ما تحتمل فوائى .. ألا الهوى يا من لير ، وفارقين .. لقد انتهت
المسرحية ! :



● أين كنت لا .. هل ترائى استيظنت ، لو أنني استغرقت في
النوم ؟ هل كنت أحلم .. وهل ما زلت أحلم ؟ .. مكان صوت
العجوز قد تغير ، وبدت لي ضجتها وحركاتها مأثوفة .. تماماً كصورة
وجهي في المراكمة ، وكعيني الذي ينطق به لسانى .. ونهضت ، ولكننى
لم أبرح مكانى : بل تأملت ما حول .. وحركت نيران المرقعة ، ثم
عدت أنظف نحو العجوز التي جذبت قلنسوتها وعصابتها حول وجهها ،
ثم أشارت لي مرة أخرى بأن أرحل .. وأضاعت النيران فظهرت يدها
الممدودة .. وكنت قد أغقت من ذهولي فلاحظت على الفور أن اليد
الممتدة لم تكن يد عجوز عجفاء ، وإنما كانت يداً ملفوفة رخصة ،

ناعمة الأصابع متناسقة ، وقد اشبع خاتم عريض في انحصرها ! ..
وانحنيت أنامله ، قرأت جوهرة شاهديها مائة مرة من قبل ! .. وعدت
أطلع إلى الوجه الذي لم يكن في هذه المرة معرضاً عني ، فوجدته
— على النقيض — قد تجرد من القلنسوة والمديل ومال نحوى يسائلي
بضوئه المألوف : « حسناً يا جين .. حل عرفتني ؟ »

— اخبرك عيناك يا سيدى ..
— ولكن في الخيط عقدة .. ساعديني !

— أقطعها يا سيدى !

— ها هي فتى .. إليك عني أثبات الثياب المستعارة !

وتبدى ستر رويستر خارج الثياب التنكورية فصحت : « ياها
من فكرة عجيبة يا سيدى ! »

— ولكنها نفذت بدقة ، أليس كذلك ؟ .. ألا ترين ذلك ؟

— لقد وفقت مع السيدات كل التوفيق ..

— وهل لم أوفق معك ؟

— إنك لم تقتل دور العجيرة معنى .

— وأية شخصية مثلها إذا ؟ شخصيتى بالذات ؟

— كلا .. شخصية لا يمكن تحليلها . وقصارى القول أعقد أنك

كنت تحاول استدراجي . وكنت تبهذي لكي أهلك مثلك . وليس
هذا من الإنصاف يا سيدى .

— أنصحين عني يا جين ؟

— لا أستطيع القول حتى ألقب وجزة الفكر ، فإذا وجدت بعد

التذكير والتأمل أنني لم أزد في ثقافة شعبية ، فسوف أحاول أن أصفح عنك .. ولكن ذلك ما كان يصح أن يحدث .

— أوه . لقد كنت جده مستقيمة ، مديقة ، غافلة !

فأملت وفكرت في كل ما حدث ، وشعرت بارتياح ، إذ كنت في الواقع قد اتخذت حقري منذ بداية المقابلة ، وتشككت في وجود إحدى المازل . فقد كنت أعلم أن العجز وقارنى الكف لا يكشفون عن أنفسهم بمثل ما كشفت تلك العجوز عن نفسها ، ففضلا عن أنني لاحظت صوتها المصطنع وحرصها الشديد على أن تخفى أسرارها .. ولكن ذهني انصرف إذ ذاك إلى جريسي بول .. تلك المرأة التي كانت تبدو لغراً حياً .. لغز الألفاظ : كما كنت أعتبرها .. ولكن مسرر روشستر لم يتغير بياني مطلقاً . وما لبث أن قال : « حسناً : فيم تفكرين ؟ » وما معنى هلم الابتسامة الوقور ؟ !

— الدهشة وشفة النفس يا سيدى .. والآن ، أظنني قد استأذنتك في الانصراف .

— كلا . ابقي لحظة ، وأخبريني ماذا يفعلون هناك في حجرة الاستقبال ؟

— لأنهم يتباحثون في أمر الفجيرة على ما أعتقد :

— اجلسي .. دعيني أسمع ما قالوه عنى .

— نعم ألا أبقى طويلاً يا سيدى ، لأن الساعة قد قاربت الحادية عشرة . آه ، هل علمت يا مسرر روشستر : أن غربياً وصل إلى هنا بعد أن غادرنا أنت في الصباح ؟

— غريب ؟ كلا .. من عساه يكون ؟ لم أكن أتوقع حضور أحد .. وهل انصرف ؟

— كلا ، فقد أخبرنا أنه يعرفك منذ زمن بعيد ، وأن في وسعه أن يتم بحرية البقاء هنا حتى تعود .

— يا للشيطان ! هل دلكن على اسمه ؟

— اسمه ميسون ياسيدى : وهو قادم من جزائر الهند الغربية ، من (سيانث تاون) في (جامايكا) على ما أعتقد .

● وكان مسرر روشستر واقفاً بجانبى وقد تناول يدي ، وكأنه يتودنى إلى أحد المفاخذ ، فلما سمع منى حديثي : شد على معصمي بحركة تشنجية وقد تجعدت الابتسامة على شفتيه . وظهر جلياً أنه فعلاً قد تشنج .. ثم قال ما يخاله الإنسان عبارة آلية تجعدت في كلمات : « ميسون جزائر الهند الغربية ! » .. وراح يكررها ثلاث مرات ، وهو يزداد في كل مرة شحوباً .. ولأخ أنه لا يكاد يبرى ما كان يقول : « فسألته : « أشعر بمرض يا سيدى ؟ » فقال وهو يترنح : « لقد أصابني ضلعة : أصابني لكمة يا جين ! »

— انكبي على يا سيدى .

— لقد قدمت لي كفتك يا جين مرة من قبل ، فدعيني أتكى عليها اليوم !

— نعم يا سيدى نعم : وفراحي !

فجلس ودعاني إلى الجوفس بجانبه ، وهو ما زال ممسكاً بيدي بين

واحييه ، يكاد يستحقها .. كما كان يملأ في وجهي بنظرة زائغة بالقلق والفرح ، ثم قال : « يا صديقتي الصغيرة !.. يودى لو كنت في جزيرة هادئة معك أنت وحدك ، وقد انجاب غنى الكدر والخطر والتكبريات المقيمة » .

— هل قد وصلى أن أعاونك يا سيدى ؟ .. لئن أُنسى بغيرى في قلبك ! ..

.. سأشكركم من يديك يا جين إذا .. احتجت إليه ، أعذك بذلك ، أشكرك يا سيدى ، خبزنى ماذا أقبل ، وسأحاول على الأقل أن أفهمه .

— كفى الآن يا جين بكأس من النبيذ ، من قاعة المائدة : إنهم الآن يتناولون العشاء ، وأخبرينى عما إذا كان ميسون معهم ، وماذا يفعل ؟

وإذا ذهبت وجدتهم جميعاً في قاعة المائدة ، فمعنون ، كما قال مستر روشستر .. ولم يكونوا جالسين حول المائدة ، بل كان الطعام فوق (البوفيه) يختار كل منهم ما طاب له منه ، وقد وقفوا جماعات هنا وهناك ، وصحافهم وأكوابهم في أيديهم ، والسرور والابتهاج يسودهم .. وكانت ضحكاتهم وأصواتهم عامة ، متعشة . أما مستر ميسون ، فكان واقفاً بالقرب من المدفأة يتحدث إلى الكونتيسة وسوزان دانت في ابتهاج ومرح كالآخرين ، فلأنت كاساً من النبيذ .. ومضى الجرام ترقى عابسة بمل ما كنت أرقبها — ثم عدت إلى المكتبة : فكان مشغوب مستر روشستر قد تلاشى وأعاد إليه ثيابه وعبومه ،

فتناول الكأس من يدي وقال : « في صحتك أيتها الروح المواسية ! .. ثم أزدده ما في الكأس واستدار إلى يقول : « ماذا يفعلون يا جين ؟

— إنهم يضحكون ويحدثون يا سيدى ؛
— ألا يبدو عليهم العيوس والدهشة ، وكأنهم صنعوا شيئاً عجيباً ؟
— كلا .. إطلاقاً .. إنهم يمزحون وينظرون ؛
— وميسون ؟

— كان يضحك هو الآخر ؛
— لو جاء أولئك الناس ويصفقوا في وجهي ، فإذا فعلين يا جين ؟
— أطردهم من الحجرة يا سيدى .. إذا استطعت !

فارتفعت على أساريره نصف ابتسامة وقال : « وإذا ذهبت إليهم فنظروا إلى في برود وتماسوا فيما بينهم ساعرين ، ثم انصرفوا وغادروا الواحد بعد الآخر ، فإذا بعد ذلك ؟ هل تصبرين معهم ؟

— لا أظن يا سيدى ، بل سوف يتضاغط اغتباطى بابقاء معك ؛
— لتعزيني ؟
— نعم يا سيدى ، لأمرى عنك ما استطعت .
— وإذا شهِروا بك لتسكك في ؟
— قد لا أعرف شيئاً عن هذا التشهير ، ولكنى لن أحفل به لو عرفته .

— إذن قلبك من المرأة ما يملكك تحمليين تنابذهم ، في صبيلى ؟
— لئن أجروا على ذلك إكراً لما خاطر أى صديق يستحق — مثلك — أن أعسك به ..

... عودى الآن إلى الحجرة ، واذهبى إلى ميسون على عجل ،
والهسى في أذنه أن مستر روشستر قد عاد ويرغب في مقابلته ، ثم
أدخله وتركبها !
— كما تريد يا سيدى :

وقدلت مشيئة .. وحدتنى الجميع بنظرهم عندما سرت ومطهم
وانتهت مباشرة إلى مستر ميسون وألقيت إليه الرسالة وتقدمته إلى
المكتبة ، ثم صعدت إلى الطابق العلوى . وهناك رقدت في فراشى إلى
ساعة متأخرة ، سمعت عندما الضيوف وهم يأوون إلى غداهم :
وتبينت صوت مستر روشستر وهو يقول : « من هنا يا ميسون : »
هذه غرفتك :

وكان يتكلم مبتهجاً ، فاشعان قلبى للهجته المرحية ، ولم ألبث أن
استغرقت في النوم .

* * *

الفصل العشرون

• نمت في تلك الليلة أن أرى سيارتى .. على غير عادتى .. كما
فعلت عن إسدال الستر الخشبى (الشيش) على النافذة ، فكان من
جراه ذلك ، أن القمر لم يكده يبلغ في سراه تلك الرقعة المواجهة لجحرى
من صفحة المياه ، حتى أطل على لخلل زجاج النافذة العادى من
الحجب !.. وكان بداً في أمه ، واليلة صافية الأديم .. وأيقظنى
طلعه البهية ، إذ صوته في جوف الليل ، ففتحت عيني على فرصة :
قرص في بياض النفضة وشفافية البلور .. كان جميلاً ، ولكنه جلد

مهيّب ، جليل .. واستريت نصف جالسة في الفراش ، ومددت
ذراعى لأجذب الستار ، ولكن .. وحالك يا رب !.. يا لها من صرخة !
فقد مزقت شغل الليل ، وهدوءه وسكونه ، صرخة مروعة حادة
مدوية ، سرت في قصر (ثورنفلد) من أقصاه إلى أقصاه !.. وكف
وجيب قلبى ، بل جدد قلبى في صدرى ، وشلت يدى المسدودة ، وبنا
تلاشت الصرخة ، فلم تتجدد .. وما من ريب في أنه لم يكن في وسع
الشخص الذى أطلق هذه الصرخة المروعة — أباً كان — أن يكررها
سراعاً .. بل إن الكواكب المضيئة على قمم جبال الأنديز ما كانت لتقوى
على أن تطلق مثل هذه الصرخة .. (التى تنكشف لها السحب واجفة —
مرتين متتاليتين !.. ولابد لمن يمت مثل هذا الصوت لتقوى من أن
يستريح قبل أن يكرر الجهد !

وكانت صادرة من الطابق الثالث ، لأنها دوت من فوق رأسى ..
وفوق رأسى — أجل ، في الحجرة القائمة فوق سقف حجرى — لم
ألبث أن سمعت عراكاً .. وكان صراعاً عنيفاً ، كما لاح لي من الضجيرة
وعنت صوت نصف غنقى : « النجدة !.. النجدة !.. النجدة ! »
ثلاث مرات متتابعة في عجلة !.. ثم صاح : « ألا يأتى أحد ؟ » .. ثم
تبدلت خلال أنواع السقف الخشبية ، وملاط الجدران ، صوتاً يقول ،
والعراع والارتطامات دائرية في عنف وحشى : « روشستر !..
روشستر ! ألا أقبل يانه عليك ! »

وفتح باب إحدى الحجرات ، وجرى شخص ما ، أو اتدفع ،
في الردهة .. وضربت قدم أرض القرقة العليا مرة أخرى ، ثم صوى

جسم ، وساد السكون ! وكنت قد ارتديت بعض الثياب ، برغم أن العرب كان يترك كل أطراف ، وانطلقت من غرفتي .. وكان الشاعون قد استيقظوا جميعاً ، وترددت في كل حجرة صيحات ومحذرات مدعورة .. وفتحت الأبواب ، الواحد تلو الآخر ، وغصت الرعدة بالسادة والسيدات الذين هجروا مضاجعهم على السواء ، يتساءلون في أوتياك : « أهو ، ما هذا ؟ » .. « من الذي أصيب بالضر ؟ » .. « ما الذي جرى ؟ » .. « هاتوا خبواً ! » .. « هل شب جريح ؟ » .. « هل هناك لصوص ؟ » .. « إلى أين نغري ؟ » .. ولولا نور القمر لكأنوا في ظلام داس .. وأخذوا يخرجون هنا وهناك ، ويلعنون قلوبهم .. وراح بعضهم يبكي ، وبعضهم يتعثر ، وقد سادهم اضطراب لم يعدوا سبيلاً لفلاص منه .. وصاح الكولونيل ذنت : « أين روشستر بحق الشيطان ؟ » .. إنني لم أجده في فراشه ، قواته الرد : « ها آنذا ! ها آنذا ! » .. هاتوا روعكم جميعاً ، فإني قادم !

ثم فتح الباب القاتم في نهاية الدهليز ، وأقبل منه مسرر روشستر يعمل شعبة . وكان هابطاً تنوء من الطابق العلوي ، فجرت إليه إحدى السيدات وأمسكت بذراعه .. تلك كانت مس بلانش التي سألتها : « أي حادث مروع وقع ؟ » .. تكلم .. دعنا نعلم أسوأ ما في الأمور ! .. فأجاب : « فقط حاذرن أن توقظني أو تحفظني ! » .. « إذا كانت ابنتا الليدي إيشتون قد تعلقتا به كذلك ، بينا اندفعت السيدتان اللواتي كان ليدى الجرام وليدي إيشتون .. نحو في عبايتهما الناصعتين ، أشبه بمركبتين شرعيتين .. وما لبث أن صاح : « لا شيء .. هناك ! » .. لا شيء !

إنها مجرد محاولة لتخيل مسرحية « أجمع بجمجمة ولا أرى ملحة ! لشكسبير .. ألا ابتعدن يا سيداتي ، وإلا أصبحت خطراً ! »

والواقع أنه بدا خطراً .. إذ أخذت عيناها السوداوان تطلقان الشرر يد أنه حدثاً نفسه جهاداً ، وعاد يقول : « لقد انتاب كابوس إحدى الخادعات ، وهذا كل ما هناك .. فهي غثوقة عصبية ، سريعة الهياج ، خيل إليها .. في المنام .. أنها ترى شبحاً ، أو شيئاً من هذا القبيل ، فتولها نوبة من الفزع ! » .. والآت ، لابد من أن أراكم جميعاً في غداكم .. إذ لا سبيل للعناية بالخادم إلا بعد أن يبدأ المتزل ويستلب السكون .. هيا باستاذة تفضلوا فاضربوا المثل للسيدات : وإني لوائق من أن مس الجرام تستطيع التغلب على غداها العقيمة .. هيا يا آي ولويز إلى عندكما كحاملتين وادعيتين ، وأنتا يا سيدتي (مخاطبة آلوالدين) مستصابتان يرد .. بكل تأكيد .. إذا بقيتا أكثر من ذلك في هذا الدهليز القاوس الجوا !

● وهكذا استطاع بالقدادة طارة وبالأمر تارة أخرى ، أن يجعل الجميع على العودة مرة أخرى إلى غداهم . أما أنا فلم أنظر حتى بأمرتي ، بل انسجبت عائداً إلى غرفتي دون أن يتبته أحد ، كما غادرتها من قبل دون أن أشير انتباهاً .. على أنني لم أندم في فراشي ، بل شرعت .. على العكس .. أرئدي ثيابي باعفاء .. فلعلني كنت الوحيدة التي سمعت الجلبة التي أعقبت الصرخة ، والكلمات التي تخطتها ، لأنها كانت منبعاة من الحجرة التي نعلو غداي : « وقد أكدت لي أن الذي

أشاع الفزع في القصر لم يكن كابوس خادم ، وأن الإيضاح الذي ذكره مسر ووشتر لم يكن سوى ابتكار منه لتهنئة جاش ضيوفه : ولذلك ارتدبت ملابس استعداداً للظواهر ، حتى إذا انتهت من ذلك جلست طويلاً يحوار النافذة وأنا أطلع إلى الأرض الساكنة ، والحقول الموهجة بالفضة ، في ارتقاب ما قد يحدث ، إذ خيل لي أن حادثاً لن يلبث أن ينزل تلك الضيعة وذلك العراك وذلك النداء ؟

كلا .. لقد عاد السكون ، وثلاثت تدريجاً كل همهمة وكل حركة ، فلم تنفض ساعة حتى هذا القصر هدوء الصحراء ، وكان النوم والليل قد أسردا سلطانهما ، بيناً أفل القمر وأوشك على الغروب ، ولم أرتح إلى الجلوس في البرد والظلام ، ففكرت في أن أرقد على فراشي بملابسي . ومن ثم غادرت النافذة ، واجتازت السجادة في هدوء ، وفيما كنت متحينة لأخلع حذائي ، نقرت الباب يد حلوة ، نقرأ خفيفاً ، فسألت : هل نمة حاجة إلي ؟ .. وسألني الصوت الذي توقفت أن أسمع وأعني به صوت سيدي : هل أنت مستيقظة ؟

نعم يا سيدي .

وفي ملابسك ؟

نعم .

إذن ، فإخرجني بهدوء ؟

فأطعت .. وكان مسر ووشتر واقفاً في الدهليز ، يعمل شمعاً ، فقال : هإني أريدك ، فعدائي من هذه الناحية .. على مهل ، ولا تحذني ضجة .. وكان نعلاني (شيشي) رقيقين ، فاستطعت السير في خفة

المرّة على البلاط المكسو بالسجاد .. وتسلل السيد في البهو .. ثم سجدنا السلم .. وما لبث أن وقف في الردهة المظلمة : ذات السقف المنخفض - بالطابق الثالث المشنوم - ثم سألتني هامساً : هل لديك إسفنجة في غرفتك ؟

نعم يا سيدي .

وهل لديك أية أملاح طيارة .. نوشادر مثلاً ؟

نعم .

أرجعي وهاتي الاثنين .

فعدت وأخذت الإسفنجة من فوق حوض الماء بغرفتي ، والأملاح من دواليبي . ثم فقلت عائدة مرة أخرى . وكان في انتظاري يعمل في يده مفتاحاً ، فاقترب من أحد الأبواب الصغيرة السوداء ، وأولج الفتحة في القفل ، وتوقف يغالطني ثانية : ألا تفتي نفسك بالمشهد البدم ؟

لا أظن وإن لم أجرب ذلك من قبل .

وسرت في جسدي رعدة وأنا أجيده ، وإن لم أشعر بيزد أو إعياء . فقال : هإلا أعطيتني يدك . فلن أجازف وأتركك معرضة للإغماء .. ووضعت أصابعي في يده . فقال : هإنها دافئة ، وثابتة الأعصاب ! ثم أدار المفتاح ودفع الباب . ورأيت غرفة أذكر أنني شاهدتها من قبل عندما فرجيتي معز فير فاكس على القصر : وكانت نمة متلوة خلف الباب . ولكن هذه المتلوة بدت الآن مشدودة إلى أنشودة في أحدا الجوانب ، وظهر من خلفها باب كان موارياً ، يفضي إلى حجرة

أخرى داخلية ، كان يبعث منها نور ، وتصادف منها زهرة أشبه
بكلب يشارك ، فوضع مستر رويستر شمعة وقال : « انتظري لحظة ! »

■ وتقدم إلى الحجرة الداخلية ، فاستطاعت ضحكة عالية ، بدأت
صاخبة في البداية ، ولكنها انتهت بفهقة جريس بول . إذ فقدت
كانت المرأة هناك ! .. وقام مستر رويستر ببعض ترتيبات ، دون أن
يلبس بئس شقة ، وإن كنت قد سمعت صوتاً خافتاً يتألم به . ثم خرج
وأغلق الباب خلفه . وأول في الحجرة التي كنت أنتظره أدنى بابها ،
وهو يناديني : « تعالى يا جين ! » .. فسرت إلى الجانب الآخر من
سرير كبير ، حيث أشارت المسدولة جزءاً كبيراً من الغرفة . وكان
بالقرب من رأس السرير مقعد مريح ، جلس فيه رجل يرتدي كل
ملابسه فيما عدا سترته .. وكان مساكناً ، مائل الرأس إلى الخلف ،
مغمض العينين ، قرفع مستر رويستر الشمعة فوقه ، وإذا ذلك عرفت
في وجهه الشاب - الذي يكاد يخلو من معالم الحياة - ذلك القريب :
ميسون ، كما رأيت جنبه وذراعاه مخفيين بالدماء !

وقال مستر رويستر : « أفسد الشمعة ! .. فتناولها ، وجاءه
بحوض من الماء وقال : « وأمسكي هذا ! .. فاطعت . وعندئذ
أخذ الإسفنجية وغسبها في الماء ، وبلل وجه الرجل الذي كان أشبه
بجثة هامدة : ثم طلب مستر رويستر قارورة (الوشاش) ، وقربها
من خياشيم مستر ميسون ، فلما تبين هذا أن فتح عينيه وهو ين . فزاح
مستر رويستر قبض الجريح - الذي كانت ذراعه وكتفه مضطبتين -



وعندئذ أخذ الإسفنجية وغسبها في الماء ،
وبلل وجه الرجل الذي كان أشبه بجثة هامدة

ثم أزال القدماء التي كانت تلتقي بسرعة . ونحتم مستر ميسون : « هل ثمة شطر عاجل ؟ »

— أوه . كلا .. إنه خشن بسيط . فلا تضطرب يا رجل ، ونجلد .. سائلك بنفسى الآن بجرأ . وأرجو أن نستطيع الاتصال في الصباح من هذه الحجرة .. اجتمعى يا جين ..

— سيدى ؟

— سأضطر إلى مغادرتك في هذه الحجرة مع هذا السيد نحو ساعة وربما ساعتين . وعليك أن تمسحى الدم بالإسفنجة — كما فعلت الآن — إذا عاد ينزف من جديده . أما إذا شعر السيد بالإغماء . فضعى على شفتيه كوب الماء الذى فوق حوض الغسيل . وفردى من أشفة فارورة لملاحك الطيارة .. وعليك ألا تتحدثى معه بأية حجة .. وأنت يا ريتشارد . لا تخطبها وإلا عرضت حياتك للخطر . ولن أكون مسرولا عما يحدث لو أنك فتحت شفتيك أو تحركت من مكانك !

وتأوه الرجل المسكين ثانية . وبدا أنه لا يبرؤ على الحراك وكانما شل جرخته الخوف — من الموت أو من شيء آخر — وعندئذ وضع مستر ووشستر فى يده الإسفنجة التى نشبت بالدماء . فشرعت أستعملها بمثل ما كان يفعل . وبعد أن رافقنى لحظة قال : « تذكرى ! لا حديث ! » .. ثم غادر الحجرة . وساورنى شعور عجيب عندما دار الفتاح فى القفل . وثلاثى وقع قدميه .. هأنذا فى الطابق الثالث حية فى إحدى حجراته المنخفضة البقيت التى لم يفتح بها الغموض .. والليل يلقى : ولدت عيني ويدي منظر شاحب . دموى . ولا يكاد

يفصلنى عن امرأة قاتلة سوى باب واحد .. نعم كان ذلك مروعا .. أما ما عذاه : فكان فى مبدورى احتياله . ولكنى كنت أرتعد ليرد التذكير فى أن جريس يؤلف قد تنفض على !

ومع ذلك . فقد كان حضا على أن أبقى فى مكانى . وأن أرقب هذه السجدة الشاحبة . وهاتين الشفتين الزرقاوين اللتين حرم عليهما أن تنفرجا . وهاتين العينين الكئيبين أخدعتا نفضان . وتنطحان . ويجولان فى العرفة . ونحذقان قى .. على التوالى بين القبة والقبة — وقد ارتسم فيها الفخ .. كما كان على أن أجلس بدهى بوزة وأتفرج فى حوض على بالملء والدماء : فألميح الدم الممسك . وأرقب ضوء الشمعة وهو يغت وتلاشى . والظلال وهى تتكاثف على الستائر المعيقة التى كانت حولى . أو تشبه اسوداداً تحت أستار السرير الواسع القديم . وتطرح بركة غريبة فوق أبواب دوان كان فى مواجهةى .. وكانت تلك الأبواب تحمل فى عشر لوحاً من الزجاج . عليها رسوم كالخد لرؤوس التى عشر من الرسل . يتوسط كل رأس منها لوحة كانه الإحار .. وكان ينصب فوقها حليب من الأبنوس يعلوه شمال المسيح وهو فى سكرات الموت .. وأخذت الظلال وبقيض ضوء الشمعة برسم أشكالا وهما يهزان ويحومان هنا وهناك . فعدلت فى صورة الطليب المتحنى (لوك) وهو يثقى رأسه . وصورة القديس (يوحنا) بشعره الطويل المنوج . ووجه (يهوذا) الشيطاني المقيت وقد تبدى خارجاً من أحد الألواح الزجاجية ولاح أنه يوشك أن ينجلى عن صورة الشيطان نفسه ! .. ووسط كل هذا . كنت مضطرة إلى أن

أنتصت كما كنت أرقب .. أن أنتصت إلى حركات تلك الوحشة الكاسرة
أو الشيطانة القابعة في عنقها ، بالحجرة الداخلية .. على أنها .. منذ
زيارة مستر رويشستر .. كانت ساكنة ، وكأنها استولى عليها صحر
غريب ، فلم أسمع طيلة الليل سوى أصوات ثلاثة ، في فترات متباعدة
صريف حاد صدر عن ألواح خشبية ، وزحجرة رهيبية كذلك التي سمعتها
في البداية وكأنها منبعثة من كلب ، وأنين آدمي عميق !

● وما لبثت أفكر في أن أزعجني ، إذ رحت أتساءل : أية جريئة
هذه التي تعيش متجسدة في هذا القصر المعزولة ، دون أن يقوى صاحبه
على إنقضاها أو إخضاعها ؟ .. وما هذا السر الذي يتجلى مرة في شكل
حريق ، ومرة أخرى في صورة دماء في سكون الليل ؟ .. وأني مخلوقة
هذه التي تنكرت في صورة وشكل امرأة عادية تنطق كأنها شيطانة
ساخرة ، أو طائر من الطيور الجارحة التي تجرى وراء الرمح ؟ .. ثم
هنا الرجل ذاته ، الأجنبي ، الغريب ، الذي كنت أظن به .. ما الذي
زوج به في هذا الشرك من الرعب والفرع ؟ .. ولماذا انصب عليه الحق
والغيب ؟ .. لماذا جاء به إلى هذا المكان من القصر في وقت غير ملائم
كان يجب أن يكون فيه ملازماً فراشه ؟ .. لقد سمعت مستر رويشستر
يخبر أنه حجرة بالطابق الأسفل ، فما الذي جاء به إلى هنا ؟ وما الذي
جعله الآن وادعاً ذاك لإزاء الغضب العنيف الذي أحاق به ؟ .. ولماذا
يتصاع في هدوء إلى هذا الغضب الذي أكرهه مستر رويشستر على الاحتفاء
فيه ؟ .. ولماذا اختار له مستر رويشستر هذا الغضب بالذات ليدفعه إليه

دفعاً ؟ .. لقد تعرض ضيف السيد للعدوان ، بل إن حياة السيد نفسه
تعرضت في منامية مفتتة لأمره أليم ، ولكنه حاول أن يستمر على
كل من الحادئين ، وأن يدفعهما إلى الظلام والسيان ، فلماذا ؟ .. هل أنتي
أخيراً أرى مستر ميسون يتخضع لمستر رويشستر ، وأرى إرادة الأخير
القوية تسيطر سيطرة تامة على جود الأول ، فقد أكد لي ذلك ما دار
بينهما من حديث قصير ، كما بد لي من لقاءهما الأول تأثير مستر رويشستر
في الآخر ، فلماذا اكتأب السيد عندما سمع نيا وصول مستر ميسون ؟
ولماذا كان يجرد ذكر اسم ذلك الرجل الذي لا يعرف المقاومة
وليست له إرادة - وقع الصاعقة على نفس رويشستر منذ بضع ساعات ؟
آه - لاني لن أستطيع أن أنسى نظرتيه وشجوبه عندما حمل إلى : لقد
أصابني صدمة ياجين ! ، ولن أستطيع أن أنسى كيف كانت
ذراعه ترتعد وهو يعتمد بها على كفتي ! .. لم يكن أمر أعنف ذلك الذي
أمكنه أن يخفي روح فيرفاكس رويشستر القوية ، وأن يبرز كيانه الخبيث :
وعندما كان الليل وطال ، صحت في أعماقي : متى يأتي ؟ متى
يأتي ؟ .. فقد كان مريض الذي يدعى بين وبين دون أن يأتي النهار
أو يأتي العون . وكما وقعت المياه إلى شفتي ميسون الشاحبتين ، وكما
قدت له الأملاح المتعشة ، فكانت جهودي تدب سدى ، لأن قواه
أعلنت تخور بسرعة ، سواء لفرط آلامه الجيانية والعقلية ، أو بسبب
ما قلده من دماء ، أو للذين السيئين معاً . ومن ثم أخذ أنيته يزداد :
وتبدى عليه الخور ، واحتاج كأنه هالك لا محالة ، فخشيت أن يكون
مشرقاً على الموت قبل أن أستطيع حتى غماظته .

وأخيراً ، انطفأت الشمعة ، وغيا كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة .
شاهدت خيوطاً من الضياء فوق أهداب ستائر النافذة ، فأدركت أن
القبحر يقترب . وسرعان ما سمعت بايلوت يفتح خارج بيته البعيد في
الحديقة ، فانتفض الأمل في قلبي . ولم يذهب هذا الأمل عيشاً ، إذ لم
تحض لحسن دقاتي أخرى حتى سمعت المشاح يولج والفصل يفتح ،
بشيراً بأن مهني في المراقبة قد انتهت . وهي مهمة لا يمكن أن تكون
قد استغرقت أكثر من ساعتين . وإن عجلت أنها ظلت أسابيع طويلة .
ودخل مستر روشستر زومعه الجراح الذي ذهب لاستدعائه ، ثم قال
هذا الأخير : « والآن انبه يا كارتير لك » . انتهى لن أمتحك سوى نصف
ساعة لتضميد الجرح وعصب الضائدة ونقل الجريح إلى أسفل ، وإتمام
كل شيء . ! !

— ولكن : هل هو يقوى على الانتقال ياسيدى ؟

— بلا شك فليس الأمر خطيراً ، ولكنه عصي ولابد من تهدئة
نفسه . تعال اشرع في عملك !

ثم جذب مستر روشستر المفارة الكثيفة ، ورفع (الشيش) ليضع
الضوء ينظف ما استطاع . وأدهشني وأبهرت نفسي زحف القبحر ،
إذ رأيت خيوط النهار الوردية تشرق في إضاءة الشرق . ثم اقترب
مستر روشستر من ميسون ، الذي أعيد الجراح يضبط له جراحته ،
وسأله : « والآن يا صديق الطيب ، كيف حالك ؟ » .. فأجاب بصوت
واهن : « أخشى أن تكون قد قضت علي » !

— لا شيء إطلاقاً .. تسجع ! لن يمضي أسبوعان حتى تستر :

ضخك . كل ما هنالك أنك فقدت قليلاً من الدم . أكد له يا كارتير
أن لا خطر عليه .

فقال كارتير وقد اتين من حل الضادات : « في وسعي أن أؤكد
له ذلك وضيمري مرتاح .. فقط كنت أود أن أكون هنا قبل الآن .
حتى أوفر عليه كل الدم الذي فقده ، ولكن ما هذا ؟ .. إن لحم الكتف
ممزق . ومضطوح كذلك ! ! لم ينشأ هذا الجرح من سكين .. هذا أثر
أصابع ! ! .. فندم ميسون : « لقد عشتي .. انقضت علي كنفرة
ضاربة عندما التزج منها روشستر السكين » .. وقال روشستر : « كان
يجدر ألا تلتصم ، بل كان واجباً أن تصارعها في الحال » .. فأجاب
ميسون : « ولكن ما الشيء علك الإنسان أن يفعله في مثل هذه الظروف ؟ ..
كان الأمر خيفاً ! ! .. وارتجف وهو يسترسل قائلاً : « ولم أكن
أتوقع منها ذلك لأنها كانت في البداية هادية المدوء تماماً » .. فكان رد
صديقه : « لقد أندر لك ، وظللت منك أن تكون على حذر عندما
تقترب منها .. هذا إلى أنه كان في وسعك أن تنظر إلى الغد لأكون
معك . كانت حافة منك أن حاولت مقابلتها الليلة .. وحيداً ! »

— كنت أعتقد أنني أستطيع القيام بعمل ذي فائدة .

— تعظفد ! ! تعظفد ! ! إني أخشى بساع ذلك ، ومع هذا
فهاأنذا قد قاسمت وسوف تفاسي كثيراً ما لم تسع إلى نصيحتي . ولن
أقول شيئاً بعد ذلك . هيا أسرع يا كارتير .. أسرع ! ! فسوف تشرق
الشمس بعد قليل . ويجب أن أراه وهو يتصرف .

— حالاً ياسيدى .. لقد ضمدت الكتف : ويجب أن أهتم

بهذا الجرح الآخر في فراغه ، أظها قد أملت أسنانها هنا أيضاً .
فقال ميسون : « لقد اعتصمت دوى وهددت بأن تستنزف دماء
قلي ! »

• وشاهدت مستر روشستر يرتعد وقد تحلت عليه صورة عجيبة من
الاضطراب والرهبة والكرهية كادت تشوه أساريره . ولكنه اكتفى
بأن قال : « هيا إلزم الصمت يا ريتشارد ولا تهتم بتوعيد هذيانها ..
فكان الجواب : « ليقن أقوى على نسيانها ! »
.. ستساعدا عندما تغادر البلاد ، وفي وسعك متى عدت إلى جانكا
أن تحسبها قد ماتت ودفت ، أو بالأحرى لاحاجة بك إلى التفكير فيها
على الإطلاق !

.. يستحيل أن أنسى هذه الليلة !

— هذا غير مستحيل : تشجع قليلاً يا رجل ، فقد حبست منذ
ساعتين أنك قد مت وغفوت كسمكة مقعدة ، ومع ذلك فها أنت ذا حي
تحدث إلينا .. ها قد انتهى كارتز منك أو كعاد ، وسوف أعيد إليك
هتدماك حالا (ثم انفضت كوى لأول مرة منذ عودته وقال) خذى هذا
المفتاح يا جين ، واذهي إلى غدسي فامضي مباشرة إلى خزنة ملاسي ،
وافتحى درج الصوان فأخرجي قيصاً نظيفاً ورباط رقيق ، وهاتيهما
إلى هنا .. هيا أسرع !

فصعقت وبخبت عن الخزانة والدرج اللذين ذكرهما ، وتناولت
ما قبله ثم عدت به فقال : « هو الآن اذهبي إلى الجانب الآخر من العراش ..

إلى أن ينتهي من ربلته ، ولكن لا تقادري الحجرة فقد احتاج إليك
ثانية ! .. فالتجيت إلى حيث وجهتي ، وبسرعان ما سألتني : « قبل
كان الإنسان ما يتحرك في الطابق الأسفل عندما يهبط إليه ؟ »
— كلا يا سيدتي .. كان كل شيء هادئاً ساكناً !

— صفلك يخلو مني هنا يا ريتشارد ، لصالحك وصالح تلك
القلوة الشقية . لقد ناضت طويلاً لتحلني التعريض والتشهير ، ولا أريد
أن يحدث شيء من ذلك أخيراً .. هيا يا كارتز وساعده على ارتداء
صدارده .. أين تركت معطفك القوي ؟ .. إنك لا تستطيع أن تحلني ميلاً
واحد بدونك في هذا الطقس البعين القوي . أهو في حجرةك ؟ أجرى
يا جين واجعلي إلى حجرة الجاورة لججري ، فأحضرى المعطف الذي
تربته هناك !

وأجريت مرة أخرى : « مرة أخرى علبت وأنا أهل معطفاً ضيقاً
ميتاً ومذنباً بالفراغ ، فقال سيدتي التي لا يعرف التعب : « لست مهمة
أخرى لك : يجب أن تعودى إلى حجرتي مرة أخرى . إنك للأسف قد
غلوت بلون الخمل ، ولئن بلغنا في وقت الشدة وسنوك أعرج ! ..
اذهي إلى الدرج الأوسط في منضدة زبقتي . فأخرجني منه قارورة
صغيرة وكأساً صغيرة لئلا يهتبا هناك .. أسرع ! .. فعجريت وعدت
أهلي الوفاة من المظالمين فقال : « هذا حسن . والآن سأخذ مطلق الحرية
يا دكتور في إعداد جرعة تعرفني وعلى مسئوليتي الخاصة ، هذا دواء
منشأ اشتريته في روما من ديجان إيطالي كان يمكن أن تركله بقدمك :
وهو شيء « يا كارتز لا يستعمل بلا تحيز وبلا حساب ، ولكنه يصلح

في حالة كهذه على سبيل المثال .. قليلا من الماء باجبن .. ثم مديده بالكأس الصغيرة فلأتها له حتى النصف .. فقال : هذا يكفي . والآن بللى حافة فوطة القارورة .. فلما ملئت قطر التي عشرة قطرة من سائل قرمزي اللون ، ثم قمتها إلى عيسون قائلا : « اشرب يا ريتشارد ويستملك هذا الشجاعة التي تموزك لساعة أو أكثر » .

— سوف يؤذيني لكنه ملهيب !

— اشرب ! اشرب ! اشرب !

وأخيرا وضع عيسون . بعد أن وجد ألا فائدة من المقاومة .

وكان قد انتهى من ارتداء ملابس له إذ ذاك . ولكنه لم يعد ملطفاً بالدماء أو مكثب الأسارير . وبعد أن تخرج الدماء ، وانقضت ثلاث دقائق تناول مسطر روشستر فراغه وقال : « الآن ، أنا والثنى من قمرتك على الوقوف على قدميك . حاول ! .. فلبس الجربج . وقال مسطر روشستر مسطر دأ : « أمتدده يا كارتر من تحت الكف الأخرى . وأنت يا ريتشارد ، أبسط أساورك وانظر إلى الأمام .. هكذا ! .. ففهم مسطر عيسون : « انني أشعر بشحن قهلا ! ! »

— أنا والثنى من ذلك . والآن . سيروا أمانا باجبن إلى السلم الخلفي وانفض باب البحر الجنوبي . ثم انظري من سائق مركبة البريد أن يستعد لتقدمنا . وسوف تجلبينه في القناع ، أو في الخارج غير بعيد . لأنني أمرته ألا يقترب بعرضه من الرصيف . وإذا شاهدت أحدا هنا أو هناك فتعال إلى قاعدة السلم و (تنحنني) .

• وكانت الساعة قد بلغت — إذ ذاك — الخامسة والنصف ، وأوشكت الشمس على الشروق ، ولكن وجدت المطبخ مازال مظلماً ساكناً . وباب البحر الجنوبي مغلقاً . ففتحه بأقل ضوءاء ممكنة . وكان الطيوة يغشى القناع . ولكن الأبواب كانت مفتوحة على مصاريحها . وشاهدت العربية في الخارج وقد تأهبت الجياد وجلس السائق في مقعده ، فالتفت وأبلغته بأن السيد فادم . وأوما برأسه . فتطلعت حوالي بعناية واهتمام . ثم أنصت فوجدت السكينة ما زالت تفيض العيون . وستائر نوافذ الخدم ما تزال مسدولة . وقد شرعت الطيور تنقش في أشجار الحديقة المزدحمة ، التي مالت أعصابها كأكاليل بيضاء . على الجدار الذي كان يؤلف جانباً من سياج القناع . وكانت جيذ العربية تضرب الأرض بأقدامها من حين إلى آخر .. وفيما عدا ذلك كان السكون يكثف كل شيء .

واقرب انسيد إذ ذاك مستنداً إلى مسطر روشستر والجراح ، ولكنه كان يسير بسهولة ويسر ، ثم ساعده الرجلان حتى ركب العربية . وتبعه كارتر . وعندها قال مسطر روشستر للجراح : « اعتن به وأبقه في منزلك حتى يسرد صحته تالفاً . وسأق بعد يوم أو اثنين لأرى كيف حاله .. وأنت يا ريتشارد ، كيف حالك ؟ » .

— إن الهواء العليل ينعشي يا فيرفاكس .

— حسناً . دمع النافذة مفتوحة من هذا الجانب يا كارتر ، فليست

قوة رياح . لي تحفظ الله ياديك !

— يا فيرفاكس ...

— ماذا ؟ —

— اعنني بما وعلمها برفق ما استطعت ودعها ...

ثم توفقت وانشجرت في البكاء ، فأجابته مستر زوشستر : « سأبذل قصاري وسأنفذ ما تريد » .. ثم أغلق الباب ومضت العربة في طريقها . وفيما كان مستر زوشستر يفتح أبواب القنطرة ، قال : « لكم آخى على الله أن ينتهي ذلك كله ! » .. ثم سار بخطو بطيء نحو باب في الجدار المحيط بالحديقة . وكنت أحسب أنه قد فرغ مني ، فتأخيت للعودة إلى القصر . ولكنني ما لبثت أن سمعته يتنادى : « يا جين ! » .. وكان قد فتح البوابة ووقف ينتظرني ثم قال : « تعال حيث يوجد بعض الهواء المنعش .. لنضع دقاتي .. فإن القصر مجرد حجب .. ألا تشعرين بذلك ؟ » ..

— إنه يبدو لي قصراً منيفاً يا سيدي .

فأجاب : « إن عيذك بقشاشها نقاب من عدم الحيرة والتجربة ، ومن ثم فانت ترين الأمور خلال طبقة سطحية زائفة السحر ، لا تائيدين معها أن القشرة الذهبية مادة قرحة غريبة ، وأن الخوخ الناعم مجرد نسيج عنكبوت . وأن الرخام حجر أوردوازي عسبي . وأن الأثاث المصقول مجرد نقابات من الخشب ولحاء خشن . أما هنا (وأشار إلى خلوة موزقة دخلناها) فكل شيء حقيق جميل حق .. وأعد بعشي في طريق نفسي حواشي أشجار البقس والظاظ والكزبي والكريز من جهة ، ونحف به من الجانب الآخر شتى أنواع الزهور التي تزدهر وتائق بعد أقطار أبريل وإشراق الربيع الجميل .. وكانت الشمس إذ ذاك تصعد في

الشرق . وقد أضاءت بيورها أشجار الحديقة النابتة المزهرة وما تكمها من مخاض وطرقات هادئة .

— هل لك في زهرة يا جين ؟

وقطفت أول زهرة على الفصن وقدمتها لي . قلت : « أشكرك يا سيدي ! » ..

— هل تحبين هذه الشمس المشرقة يا جين ؟ .. وهذه السماء بسحبها العالية الخفيفة ، التي ملتصقة حتماً عندما تدفأ أوصال النهار . وهذا الطيف المادى العليل ؟

— نعم .. أحبها بكل الحب .

— لقد قضيت ليلة ليلاء يا جين ؟

— نعم يا سيدي .

— ولقد امتنع وجهك يسيراً .. هل غشت عندما تركتك وحيداً مع ميسون ؟

— غشت أن يخرج أحد من الحجرة الداخلية .

— ولكني أغلقت الباب جيداً وحملت المفتاح في جيبي . إنني أكون راعياً مهلاً إذا أنا تركت حلاً — حتى التعزيز الخليل — على مقربة من كهف ذئب كاسر دون حراسة ! .. لقد تركتك في مأمن !

— هل ستظل جريسي عاتية هنا يا سيدي .

— أوه . نعم . لا تشغل بالك بها .. أقصصها من رأسك .

— ومع ذلك يبدو أن حياتك ستظل في خطر ما بقيت هذه المرأة هنا .

— لا تخافي أبداً فسوف أهتم بنفسى .

— هل ذهب الآن يا سيدى ذلك الخطر الذى كنت تخشاه ؟
— لا أستطيع الجزم بذلك حتى يخرج ميسون من الخزانة .. ولا حتى بعد ذلك ! .. لأن من يريد الحياة لأجل أن يغيب على أديم بركان قد يتفجر يوماً ويرسل حملاً من نار .

— ولكن مستر ميسون يبدو رجلاً سلس القيادة ، واقعاً تحت تأثيرك بحيث لا يقوى إلاضاً على أن يتحداه أو يتعمد إبداءه .
— قوه .. كلا ؟ إن ميسون لم يتحداه ولن يمسنى عامداً بأذى ولكنه ربما تسبب عن غير قصد ، وبكلمة يتفوه بها ، في حرمانى إلى الأبد من السعادة ، إن لم يكن من حياتى !

— اطلب منه يا سيدى أن يكون على حذر .. دعه يعرف ما تخشاه ، بين له كيف يتحاشى الخطر .

فصحك في استخفاف ، وأسرع يتناول يدى . ولكنه سرعان كذلك ما أقامه عنه قائلاً : « إذا كان هذا في وسعى يا ساذجة فمن أين يتأتى الخطر ؟ خطر الموت والإعدام في لحظة واحدة .. منذ عرفت ميسون وأنا أقول له : « افعل هذا » ففعله ، ولكنى لا أستطيع أن أتق عليه أوامرى في هذا الصدد .. لا يمكن أن أقول له : « حذار من إبدائى يا ريتشارد ! .. » إذ يجب أن يجعل أن إبدائى أمر ممكن . والآن يبدو لي أنك حائرة ولنى أحيرك أكثر من هذا .. إنك صديقتى . أنت كذلك ؟ »

— بودى أن أحملك يا سيدى وأن أطيعك في كل ما هو حق .

— تماماً .. أراك تتعبد ذلك . وأرى آيات الرضاء التام في مشيتك

وق طاعتك وفق عينيك ووجهك عندما تعاودننى وتحاولين إرضائى وتعملين من أجلى ومعى « في كل ما هو حق » كما تقولين .. ولو أننى طلبت إليك أن تفعل ما تريد خطأ لما تخلت عليك إمارات النشاط في خطوك الرشيق . ولا هذه الثقة في بديك التنظيفين ، ولا هذه الحياة والملاحقة في أسارىك . ولا استدارات صدفتى بوجه هادئ شاحب قائلة : « كلا يا سيدى . هذا مستحيل . لا أستطيع أن أفعل ذلك لأنه يخاف الحق والصواب ! » .. دون أن يزغزغها أو يغيرها شيء . وكأنها نجم ثابت في مكانه . وأنت .. إن لك سلطاناً على « وفق وسعتك أن تؤفنين . ومع ذلك لا أجزم على أن أكتشف لك عن موضع الضعف والألم في نفسى . خشية أن تطعننى في الخال بالرغم من إخلاصك وجدانك !

— إذا كانت خشيتك من مستر ميسون لا تعدو خوفك منى فاطمن إلى سلامتك يا سيدى .

— هذا ما أرجوه من الله .. هل طلة يا جين فاجلبى !

● وكانت النظرة عبارة عن قبو في الجدار : مبطن بأشجار العليق ، وتضم أربعة قديسة جالس عليها مستر وروستر بحيث أفسح في مكاناً إلى جانبهم . ولكنى وفقت أمامه فقال : « اجلسي فإن الأريكة طويلة تنمى لنا نحن الاثنين .. لا تترددى في الجلوس بجانبى . أليس كذلك ؟ هل هذا يخاف الحق والصواب يا جين ؟ » .. فرددت بالامتنال لأننى رأيت في الرفق ما لا يتفق مع الحكمة .

— والآن يا صديقتي الصغيرة ، بينا الشمس تشرب الندى ،
وبينا الزهور جميعها في هذه الحديقة تصحو من غفوتها وتفرح
والطيور تحيى لصغارها بالفطور من حقل الغلال ، والنحل يشرع
مبكراً في أول ثوبات عمله ، سأضع بين يديك قضيتي التي يجب أن
تعتبرها قضيتك .. ولكن انظري إلى أولاً ، وخبريني أنك مرانحة
لا تحبيني مخطئة في احتيازك ، وأنتك لست مخطئة في بقاءك .
— كلا يا نيدى . أنا راضية .

— إذن استعيني بخيالك وافرضي أنك لم تعودى فتاة حسنة
تربيتها ونشأتها ، وإنما أنت فتى شرس النفس منذ نعومة أظفاره في
المظاهر الزائفة . وتحلى نفسك في بلد أجنبي بعيد ، وتصورى أنك
ارتكبت هناك خطيئة كبرى تتبعك عواقبها الوخيمة — مهما تكن
طبيعتها أو الشوافع إليها — طوال العمر وتقص عليك حياتك . تذكرى
أنتى لم أقل « جريرة » ، وأنتى لا أتحدث عن إراقة دم أو أى عمل إجرامى
آخر يجعل مرتكبكم مستترا أمام القانون ، ولكنى أقول « خطيئة » . ولقد
عدت نتائج هذه « الغلطة » لأتفانى ، ولا سبيل إلى التخلص منها ومن
عذابها : وتطلبين تتخذين التدابير للتخلص ، وعلى تدابير غير عادية
ولكنها لا تنال القانون ولا تدعو النوم . ومع ذلك غالت نعمة بائسة ،
لأن الأمل قد أغلق في وجهك وأنت مازلت على أبواب الحياة ، ولأن
شمس حياتك قد كسفت في راتعة النهار ولا أمل في أن تشرق من جديد
قبل أن يأتى الشتاء ويحين الغروب .. وأصبحت الجراحات الوضيعة
للقدرة هي الغذاء الوحيد للذكرى . فإذا بك تسعين على وجهك هنا

وهناك بحثاً عن الراحة في هذا الخلق ، وتشترين السعادة في اللهو ، وأنتى
اللهو الجلباني الشهوانى الذى لا يمت إلى القلب بصلة ، ولذلك فهو يظلم
العقل ويؤذى الشعور .. ثم تعودين إلى وطنك بعد سنوات من النسيان
الاختياري ، وأنت مخطئة القلب ، كسيرة الوجدان ، لتجدين صديقاً
جديداً — لا يسم كيف تجدته ولا أين .. وتلمعين في هذا الغريب كثيراً
من الفضائل الطيبة والسجايا المشرقة التي ظلت تخبئ عنها عشرين عاماً
دون أن تهدي إليها .. وكلها ظاهرة نقية لا غبار عليها ولا وصحة تشينها
مثل هذه العسكرة ، تحيى موات النفس وتجدد القلب ، فتشعرين بأن
أيامك الخلو قد عادت ومعها أماتيك العالية وأحاسيسك النقية ،
وترغبين في أن تبدل حياتك من جفيدة ، لتضفى بغيه العمر في سعادة
خليفة لإنسان خالد .. ولكن ، هل يجوز لك — لشيلفى هذه الغاية — أن
تخطئ عقبة العادات .. تلك العقبة التي لا يفرها ضمير ولا يظلمها عقل
وتحيز ؟

وتوقفت في ارتباك الرد ولكن ماذا كان عساى أن أقول ؟ .. ومن
أين كانت في القدرة على اقتراح جواب حكيم مقنع ؟ .. ياله من ضلوع
عابت ؟ .. وهست رياح الغرب في أشجار العليق المحيطة بي ، ولكن
روحاً من الأرواح الرقيقة لم تعرف لسانها لأقوى على النطق . بينا راحت
الأطيار تغنى على منابر الأشجار . وإن كان غناؤها — على حلاوته —
غير واضح الألفاظ .. وعاد مسمر وشوشتر يطرح سؤاله : « هل يجوز
لهذا التبريد الخاطي » . وقد غدا يبحث عن الراحة ويبرؤه الندم .. أن
يتحدى العالم ليضم إليه هذا الغريب الرقيق الأنيس ، كما يسترد لنفسه

راحة البال ويبدد حياته ؟ .. فأجبت : « إن راحة الشريد وإصلاح
الخطيئة لأيتوقفان - يا سيدي - على رفق من المخلوقات ، لأن الرجال
والنساء يتولون ويقضون ، ولأن الفلاسفة يخطئون في حكمهم والأغنياء
قد يخطئون في طبيعتهم وإخلاصهم ، فإذا كان بين من تعرفهم شخص
بعضب ويشعر بأنه خطيء ، فانهضه أن يتطلع إلى ما فوق أنداده في
التألمس القذرة على إصلاح ذات نفسه وشقاء أمره » .

- ولكن الأداة ؟ .. الوسيلة ؟ .. إن الله الذي يفرس العمل - يهيئ
له الوسيلة ، لقد كنت أنا - وهذه حقيقة وليست على سبيل المثال -
رجلاً دنيوياً شهوياً لا يقر له قرار - وأعند أنني اعتدلت إلى الأداة
لشغائي من ..

● وسكنت : بيتاً منحت الطيور في تغريدها ، وألوزاق الشجر في
حنينها ، وكانت أعجب : كيف لا توقظ عن شموها وهسانها لتلطف
هذا الاعتراف الخلق على شفق الرجل - ولكنها كانت خليفة بأن
تتظار موهلاً - لأن الصمت طال ، وأخيراً رفعت رأسي إلى المتحدث
الملك الذي كان ينتهني بأنظاره ، وما لبث أن قال بلهجة أخرى :
ويأساور غير أساوره السابقة إذ زلتها الرقة والزرانة وغدت فظة
متبكرة : « لقد لاحظت ولعي الرقيق بمس الخزام ، فهل تعتقدن أنها
تستطيع أن تذهب في قلب ناز الانتقام - إذا أنا تزوجت منها ؟ .. ثم
نهض على الفور وسار إلى نهاية الممشى ، وما لبث أن عاد يندندن بإحدى
الأنعام ، وإذا وقف أمامي قال : « جين ! جين ! إنك شديدة الشعوب

من جراء المنهر العلوي ، فهل تسخطين على الإفلاق راحتك ؟ » :

- أحطط عليك ؟ .. كلا يا سيدي !

- حافحي إذن ، تأكيداً لقولك .. يا لأصابعك البارعة ! لقد
كانت دافعة في الليلة الماضية عندما لمستها عند باب العرة السرية ! والآن
متى تسهرين معي مرة أخرى يا جين ؟

- متى كانت في فائدة يا سيدي ..

- قبل ليلة زواجي مثلاً ، حين لا أقوى على النوم ؟ .. أتعتدني
بالجلوس معي واحتال رفقي ؟ .. إنك استطعت تحدث عن (محروبي)
لأنك رأيتها وعرقها !

- نعم يا سيدي .

- إنها تادرة ، أليس كذلك يا جين ؟

- هو ذلك يا سيدي .

- هيفاء .. هيفاء حقيقة يا جين : فارعة ، حمران ، جميلة حمراء
وعالية ، وشبه شعرها شعر سيدات قرطاجنة .. يا ألي ! ها هما دنت
ولين في حظائر تخيل ! اذهبي عن طريق الدغل ، خلالي هذا الباب
الصغير !

فذهبت من طريق : ومضى هو من طريق آخر . وسمعت في الفناء
بشوق في ابتهاج : « لقد بكر ميسون عنكم جميعاً في الصباح ، ورحل قبل
أن تشرق الشمس ، وقد صحت في الرابعة لأودعه » .

الفصل الحادى والعشرون

■ إن المراجيس أمور غريبة .. وكذلك العواطف والمشاركة الوجدانية ، والسيات .. وهذه الأمور الثلاثة مجتمعـة ، تؤلف لغزاً واحداً ، لم توقع الإنسانية إلى حله بعد . إني قط لم أخرج من المواجيس في حياتى ، لأننى خبرت ألواناً غريبة منها . كما أننى أؤمن بوجود العواطف ، التى تحير مظاهرها العقل البشرى ، ومقابل ذلك ما يحدث بين قوم بعدت الشقة بينهم . وذاك فلابهم . أو بين أقارب يعيشون أغراباً بعضهم عن بعض ، ولكنهم على تباعدهم يعززون وحدة الأصل - الذى ينسب إليه كل منهم - إذا ما قدر لهم أن يلتقوا .. أما السمات ، أو النور الخفية ، فمطلق بنا أن نعرف أنها ليست سوى مشاركة وجدانية بين الطبيعة والإنسان .. ولقد حدثت عندما كنت صغيرة ، لا أتجاوز السادسة من عمرى ، أن سمعت (ييسى ليفن) - المريية بقصر (جينسبيد) - تقول ذات ليلة لتقدم (مارنا آبوت) إنها رأست فى المنام طفلاً صغيراً ، وأن رؤية الأطفال فى الأحلام نذير مؤكدة بمصابب توشك أن تحل بالمرء ، أو أحد أقاربـه . وكان من الغمض أن ينسجى هذا الحديث من ذاكرتى ، لولا أن وقع فى أثره مباشرة ظرف الفسفة بذاكرتى ، إذ دعيت ييسى فى اليوم التالى إلى أهلها ، حيث كانت أختها الصغيرة تحتضر !

وكثيراً ما تذكرت هذا الحادث وذلك الحديث ، فى الفترة الأخيرة إذ لم تكن تربي ليلة .. خلال الأسبوع الماضى .. دون أن أحلم بطفلى وليد ، أهدده أحياناً بين ذراعى ، أو أدله على ركبتى فى أحيان أخرى ، أو أرقبه وهو يلعب بالترانيق فى المروج ، أو يغمس يديه

فى المياه الجارية .. وكنت أراء طفلاً كثير العويل فى إحدى الليالى وطفلاً ضاحكاً فى ليلة أخرى ، يتسلق فى أحياناً ، ويهرب منى أحياناً أخرى ، وكيفما تشكلت الرؤيا ، وأياً كان موضوعها ، فلها ظلت تنعقبى سبع ليال متوالية ، تواتينى بمجرد دخولى عالم النعاس !

ولم يستوى ذلك التكرار لفكرة واحدة .. ذلك التواتر الرتيب لصورة لا تغير . حتى لقد غدت أعضاءى تحتاج كلها حان موعد إيوافى للفرش واقتربت ساعة ظهور الرؤيا . ولقد كنت فى رفقة طيف هذا الطفل عندما سمحت فى تلك الليلة المنسمة على صرخة ميسون . وبعد ظهير اليوم التالى - دعيت للزول إلى الطابق الأسفل ، لأن شخصاً كان يريدنى فى حجرة مسز فيرفاكس ، وهناك وجدت رجلاً ينظر لى ، ويبدو من مظهره أنه خادم لأحد السادة .. وكان يرتدى ثوب الحذاء ، ويمسك بيده قبة حولها شريط أسود . فلما رأتى ، وقف قائلاً : « أغلب الظن أنك لا تكادى تذكرينى يا آنسة ، ولكن اسمى ليفن . وقد عملت حوزياً لدى مسز ريد عندما كنت فى (جينسبيد) منذ ثمانى أو تسع سنوات ، وما زلت أعمل هناك حتى الآن » .

— أوه ، روبرت .. كيف حالك ؟ إني أذكرك جيداً ، فقد كنت أحياناً تسبح لى بأن أركب قرس مسز جورجيانا ، وكيف حال ييسى ؟ .. إنك متزوج ؟

— نعم يا آنسة . إن زوجتى موفورة الصحة ، فشكراً ، وقد ولدت لى طفلاً آخر منذ شهرين ، فصار لدينا الآن ثلاثة .. وهم وأمههم بخير ! — وهل الأميرة فى القصر بخير كذلك يا روبرت ؟

— يؤسفني اني لا احصل لك انباء سارة عنهم : لانهم الآن في حالة سيئة جداً .

فقلت وثم اترنو إلى ملابسهم السوداء : « أرجو ألا يكون قد مات أحد منهم .

— لقد مات مستر جون في مثل البارحة من الأسبوع الماضي بمسكنه في لندن .

— مستر جون ؟

— نعم .

— وكيف احتملت أنه المصاب ؟

— لم يكن يا آنسة مصاباً عادياً ، فقد كانت حياته غاية في التهور ، إذ انغمس في السنوات الثلاث الأخيرة في ممالك عجيبة ، وكانت وفاته فجأة !

— سمعت من بعض أناس أنه لم يكن يحسن التصرف .

— يحسن التصرف ؟.. لم يكن هناك أسوأ مما فعل ، فقد قضى على صته وأمواله بين أسوأ الأقران من رجال ونساء ، وغرق في الديون ودخل السجون .. ولقد أعانته أمه مرتين ، ولكنه كان يعود — كلما أطلق سراحه — إلى رفاته القذراء وعاداته السابقة . ولم يكن يحسن عظه ملبأ فاستغله الأوغاد الذين كان يعيش بينهم . إلى أكثر مما سمعت .. وقد جاء إلى (جيمسريد) منذ حوالي ثلاثة شهور ، وطلب إلى والدته أن تنزل له عن كل شيء ، فرفضت بعان فقلت مواردها كثيراً بسبب إسراره وتبذيره ، فأرادت عائداً ، ولم يسمح به أحد حتى جاءنا خبر موته .

ولا يعرف غير الله كيف مات ، ولكنهم يقولون إنه انتحر !

• • •

• وأخذت إلى الضمت لأن الخبر كان مروعة ، فاستلذذت ليقن يقول : « ولقد كانت سبيلتي ذاتها معطلة الصحة من زمن ، فهي وإن ازدادت بدانة ، إلا أنها لم تكن قوية . وكان ضياع الأموال ، والخوف من الفقر يعطلها .. ثم حبط عليها موت جون والطريقة التي قضى بها هيوة الصاعقة . فقدت انطلق ثلاثة أيام . ولكن يبدو أن حالتها تحسنت في يوم الثلاثاء الماضي ، إذ أظهرت أنها تريد أن تقضي بقيتي » ، وظلت تبدي إلى زوجتي إشارات وهي تسمع ، إلى أن فهمت بيسى بالأمس فقط أنها تنطق باسمك ، وأخيراً تضحك قائلة : « جيونتي يجين .. انحنوا عن جيونتي لير .. أريد أن أحدث إليها » . ولم تكن بيسى والقة من أنها في تمام عقلها ، ومن أنها تعني ما قالت ، ولكنها أخبرت ابنتها ، وأشارت عليها بدعوتك ، فأهملت الالتفات الأمر في البداية . ولكن القلق استبد بأميسا ، وراحت تردد اسمك كثيراً ، ولذلك قبلنا أخيراً أن ترسلنا في طلبك ، فغادرت (جيمسريد) بالأمس . فإذا أمكنك التأهب يا آنسة عدت بك في ساعة مبكرة من صبيحة الغد :

— نعم يا ديزرت ، لسوف أعود ، إذ يبلو من الجديري أن أذهب إليها .

— هذا هو رأي كذلك يا آنسة ، وقد قالت بيسى إنك لن ترفض ، ولكنني أظنك في حاجة إلى الاستئذان قبل الرجوع .

— نعم وسأفعل هذا الآن .

ثم قدته إلى حجرة الخدم ، وأوصيت به زوجة جون : بل وجون نفسه ، ثم خرجت أبحت عن مستر روشستر .. ولكنه لم يكن في أية غرفة من غرف الطابق الأرضي ، ولم يكن كذلك في القناء ، ولا في حظائر الخيل . وسألت مستر فيرفاكس عما إذا كانت قد شاهدته ، فأخبرني بأنها رآته . وأنها تعتقد أنه يلعب البليارد مع مسس انجرام . فأسرعت إلى غرفة البليارد ، وكان صوت ارتطام الكرات ، ومجموعة الأصوات تليع من هناك ، حيث وجدت مستر روشستر ومسس انجرام وفاتني إيشتون والمعبين جميعاً في اللعب . وكنت في حاجة إلى جرأ لكي أرفع عظامي مثل هذه الجماعة اللامية ، ولكن مهنتي لم تكن من نوع أملاك إرجاء ، فافتريت من السيد ، وكان يقف بجانب مسس انجرام التي استدارت ناحيتي عندما افتريت منهما ، وتطلعت إلي في تعال وكبرياء وقد دنا في عينيها أنها تسأل : « ماذا يمكن أن تريد هذه الحشرة الزاحفة الآلهة ؟ » . وعندما قلت في صوت خافت : « مستر روشستر ! » . تحركت وكأنها تهم بطردى : وما زلت أذكر الآن منظرها وهي تبدو غاية في الجمال والفتنة وقد ارتدت ثوباً للصبح من الحرير الأزرق ، وعقدت حول شعرها وشاحاً عبقراً بلون السماء . وكانت مبهجة لنفس باللعب ، ولم تخف عجزتها المهتاجة من القرب الذي تجلى على قسائما الشياء .. وتحوّلت تسأل مستر روشستر : « هل تريدك هذه الخلوقة ؟ »

والظت مستر روشستر ليتبين الخلوقة التي كانت تريده : وسرعان ما انتلج وجهه بمحركة عجيبه - هي إحدى فوائده العجيبة المبهمة -

ثم أتني عصا البليارد ، وتبعني إلى خارج الغرفة ، فأستد ظهره إلى باب حجرة الدراسة ، بعد أن أغلقته ، وقال : « ماذا يا جون ؟ » .

— أرجوك يا سيدى أن تمنحني إجازة لأسبوع أو اثنين .

— ماذا تصنعين بها .. إلى أين تلذهبين ؟

— لأرى نيدة مريضة أرسلت في طلبى .

— أية سيابة مريضة ؟ .. وأين نقيم ؟

— في (جينسبيد) في مقاطعة ... ؟

— مقاطعة ... ؟ إنها على بعد مائة ميل ! .. من تكون هذه التي

ترسل في طلبك الناس من هذه المسافة ليزوها ؟

— احبها ويد .. مسر ويد .

— ريد من (جينسبيد) ؟ لقد كان في (جينسبيد) قاض يدعى ريد .

— إنها أرملة يا سيدى .

— وما شأنك بها ؟ كيف تعرفيتها ؟

— كان مستر ريد لجلي .. شقيق والدتى .

— يا لله ! .. إنك لم تخبرينى بذلك قط من قبل ، بل كنت تقولين

دائماً إنه ليس لك أقارب .

— ليس لي أقارب يعززون باتساق إليهم يا سيدى ، فإن مستر

ريد قد توفى ، ثم تبتلى زوجته .

— لماذا ؟

— لأننى كنت فقيرة .. وعبثاً قليلاً ، وكانت تبغضنى .

— ولكن هل ترك ريد أطفالاً ؟ .. لابد أن يكون لك أولاد هناك .

وبالأمس كان السير جورج لين يحدث عن شاب يدعى ريد في (جيتسبدا) ، قال عنه إنه من شر الأوغاد في المدينة ، كما ذكرت الجرام اسم فتاة تدعى جورجيانا ريد من نفس المكان . كانت موضع الإعجاب الشديد لجليلها منذ موسم أو اثنين في لندن .

— لقد توفي جون ريد هو الآخر يامسدي ، فقد أنفلس ، وكاد يتسبب في إفلاس أسرته ، ويقال إنه انتحر ، وقد صدمت أمه بنبأ وفاته صدمة أصابها بالفالج .

— وماذا في وسعك أن تفعل من أجلها ؟ هراء يا جين ! لن أفكر قط في قطع مسافة مائة ميل لأزور سيده ربما يعالجها الموت قبل أن أصل إليها .. هذا إلى أنك تقولين إنها بذلك .

— نعم يامسدي ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد وعندما كانت ظروفيها تظلم كثيراً عما هي عليه الآن .. لن يستريح بال إذا أنا أعلبت الآن وريحاتها .

— كم تمسكين هناك ؟

— أقصر مدة ممكنة يامسدي .

— علبين بأن تمكثي أسبوعاً .

— يجدر ألا أهلك ، فقد أضطر إلى الحث بهذا الوعد .

— ستعودين على أية حال ، ولن يترك أي علم بأن تظبي معها إقامة دائمة .

— أوه . كلا .. سأعود حتماً ، إذا جرت الأمور كما ينبغي :

— ومن سيرأفك ؟ لن تسافر مائة ميل بمفردك :

— كلا يامسدي ، فقد أرسلت سائق عربتها .

— أهو شخص يوثق به ؟

— نعم يامسدي ، فقد أقام مع الأسرة عشر سنوات .

● وفكر مستر دوشستر لحظة ثم قال : « ونشتر زوجين في السفر ؟ »

— في ساعة مبكرة من ضيحة الفد يامسدي .

— حسناً .. لا بد لك من بعض المال ، إذ لا يمكن أن تسافري

دون نقود .

وأردف متبسماً : « أظنك لا تملكين كثيراً ، لأنني لم أعطك

مراكبك بعد . كم تملكين في ذيك يا جين ؟ »

فأخرجت كيس نقود .. وكما كان هزياً !! .. وقلت : « خمسة

شللات يامسدي ! .. قنناول الكيس ، وأفرغ في راحة يده ما كنت

أدخره . ثم راح يفحصه وكأنه يتلوى بضآلة هذا (الكثر) . وسرعان

ما أخرج حافظة نقوده ، وقال وهو يقدم لي ورقة مالية جميل

جنيهاً : « إليك ! .. وكان مديناً بخمسة عشر جنيهاً ، فأخبرته

بأنني لم أكن أملك ما أورد منه اليك . فقال : « لست أريد نقوداً كما

تعلمين .. خذي هذا أجرك ! .. ولكنني رفضت أن أعط أكثر

عما كنت أستحق . فتجهت أساوره في أول الأمر ، ثم قال وكأنه

تذكر شيئاً : « حسناً .. حسناً .. يجدرني ألا أعطيك كل مالك حتى

الآن ، فقد تملكين ثلاثة شهور إذا أخذت خمسين جنيهاً .. هناك عشرة

جنيئات .. ألا تكتفي ؟ »

— نعم يا سيدى وستكون الآن مديناً لى خمسة :
— عودى لأخذها إذن ، وسأكون بمثابة مصرف تؤدعين فيه
أربعين جنيهًا !

— فى وسعى يا ماستر روشستر أن أذكر لك موضوعاً خاصاً بالعمل
ما دامت الفرصة سانحة :

— موضوعاً فى العمل ؟ . . . لئلى غتلطف لمتاعه !
— لقد تفضيات فأبلغنى يا سيدى بأنك ستزوج فى القريب العاجل .
— نعم وماذا بعد ذلك ؟
— ينبغي فى هذه الحالة يا سيدى أن تذهب أدبل إلى المدرسة ..
وأنا واثقة من أنك ستلمس ضرورة ذلك :

— لأبعدها عن طريق عرومين التى قد تلوسها بقلمها بشدة ؟ . .
إن اقترحك معقول ، ويجب بلا شك أن تذهب أدبل إلى المدرسة كما
تقولين . أما أنت فيجب بطبيعة الحال أن تفضى مباشرة .. إلى الشيطان ؟
— أرجو غير ذلك ، ولكن يجب أن أبحث عن عمل آخر فى
مكان ما !

لصاح بصوت رنان وقد تقلصت أمارير وجهه بصورة غريبة
تبحث على الضحك : « أظنك ستترسلين إلى مدام ريد العجوز أو ابنتها
أن تبحث لك إحداهن عن عمل ؟ »

— كلا يا سيدى ، لست على وفاق مع قريبائى بحيث أسألن
فضلاً .. ولكنى سأعلن فى الصحف :

لرغير قاللا : « إنك لن تلتئى أن تطعمى فى تعلق أهرام مصر ! »

إنك تخاطرين بالإعلان ، فليكن أعطيتك جنباً واحداً بدلاً من عشرة .
أعبدى إلى تسعة جنيهات يا جين ، فإنتى بحاجة إليها . . فقلت وأنا
أعنى ردى والكيس خلف ظهري : « وأنا فى حاجة إليها كذلك ،
ولا أستطيع التكى عنها بخل من الأحوال ! »

— بالك من بخله صغيرة ! . . أترفضين تقديم مساعدة مالية لى ؟ .
هائى خمسة جنيهات يا جين :

— ولا خمسة شللات يا سيدى .. بل ولا خمسة بنسات :
— دعينى فقط ألقى نظرة على تقودك :
— كلا يا سيدى فليست أثق بك .
— جين !

— سيدى ؟
— عدينى بشئ واحد .
— سأعذك بكل ما أرائى قادرة على الوفاء به .
— لا تعلقى فى الصحف ، واتركى القاس الوظيفة لى ، وأعذك
بأن أجدها لك فى الوقت المناسب .

— يسعدنى أن تفعل ذلك يا سيدى ، عل أن تعذنى بتورك أن
أكون وأدبل فى مأمن بعيد عن القصر ، قبل أن تلجئ عروسك .
— حسن جداً .. حسن جداً .. أقسم على ذلك ! .. هل ستسافرين
شعباً ؟

— نعم يا سيدى ، فى ساعة مبكرة :
— هل ستتران إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء ؟

— كلا يا سيدي ، يجب أن أتيتاً للرجيل .
 — إذن ألا يجب أن يودع أحدنا الآخر لفترة وجيزة ؟
 — أظن ذلك يا سيدي .
 — وكيف يؤدي الناس الوداع يا جيم ؟ .. علميني لأنني لست
 خبيراً بذلك .

— إنهم يقولون : « مع السلامة » أو شيئاً من هذا القبيل يفضلونه .
 — إذن ، قولي ذلك ..
 — أستودعك الله يا مستر : وشستر إلى حيث .
 — وماذا ينبغي أن أقول ؟
 — نفس العبارة إذا شئت يا سيدي .
 — أستودعك الله يا مس إير إلى حين .. أهذا كل شيء ؟
 — نعم .

— أوما عبارة لا تزوق للوق .. فهي جافة ، غير ودية : بل
 أحب عبارة أخرى تصاف إلى هذه الطفوس ، كأن تصافح . ولكن
 كلا .. هذا أيضاً لا يكتفي . فهلا نقامين غير قولك : « أستودعك
 الله » يا جيم ؟

— هذا يكتفي يا سيدي ، فإن النية الطيبة يمكن أن تمثل في كلمة
 واحدة صادرة من القلب ، تؤدي ما تؤديه الكلمات المتعددة .
 — هذا محتمل ، ولكن عبارة « أستودعك الله » هذه جوفاء باردة .
 وسألت نفسي : « إلى متى سيقف هكذا وظهره إلى الباب ؟ »
 إنني أريد أن أسرع إلى حزم أمتعتي .

ودق جرس العشاء ، وعلمت ذلك غادرتي على الفور دون أن ينطق
 بعرف آخر ، ولم أراه مرة أخرى طوال اليوم ، ثم رحلت قبل أن
 يستيقظ في الصباح .



■ باغت قصر (جيتسهد) في حوالي الخامسة بعد الظهر من أول
 مايو ، فدخلت إلى مسكن البواب قبل أن أسعى إلى اليهو . ووجدت
 المسكن نظيفاً ، أبيضاً ، وقد تدلت على النوافذ المزينة ستائر صغيرة
 بيضاء ، وبدت الأرضية غاية في النظافة : بينما كانت المدفأة تلجج وقد
 اشتعلت فيها النيران الشبهية ، ورأيت ييسي جالسة على أريكة تقرب
 المدفأة ، ترضع وليدها ، بينما كان روبرت وأخته — ابناها الآخران —
 يلعبان بهدوء في أحد الأركان . وعندما دخلت صاحبت مسرعة ليغن :
 « ليباركك الله ! كنت أعرف أنك سوف تأتيين ! » فقبلتها وقلت :
 « نعم يا ييسي ، وأرجو ألا أكون قد تأخرت . كيف حال مسز ريد ؟
 أرجو أن تكون على قيد الحياة » .

— نعم إنها على قيد الحياة ، بل هي أكثر انتباهاً واستحياءاً لفواها
 عما كانت ، ويقول الطيب : إن حياتها قد تطول أسبوعاً أو اثنين .
 ولكنه لا يؤمل في أن تشي نهائياً .

— هل ذكرت اسمي أخيراً ؟

— كانت تتحدث عنك صباح اليوم وتسمى جيتك ، ولكنها الآن
 نائمة ، أو هي كانت كذلك ، عندما كنت بالطابق العلوي منذ عشر
 دقائق ، وهي تغرق عادة في سبات عميق طوال النهار ، ولا تصحو قبل

السابعة أو السابعة . هل تستريحين هنا ساعة يا أخته ثم أعدد معك ؟
وعندئذ دخل (روبرت) - زوجها - فوضعت طفلها التام في
مهدده ، ومضت لتقبله ، ثم ألقت في أن الخلع قلسوني ، وأن أتناول
الشاي : لأنني - كما قالت - كنت أبعد شاحبة متعبة . وفرحت
بجفاتها ، فركبتها الخلع على معطف السفر . كما كانت فعلت وأنا طفلة
صغيرة . وتراحت على رأسي ذكريات الماضي . وأنا أروي إليها
وهي تتحرك هنا وهناك : بعد الصبيبة وطافاً أيضاً من الصين . ثم
انقطع الخبز والرب ، وتقدم الكوك . وترت بين القبة والأخرى على
روبرت الصغير . أوجين الصغيرة ، يمثل ما كانت تفعل معي في
الأيام السالفة . فقد ظلت يبني عتيفة بطابعها الرشيق وخطوها
الخفيف وتفراتها العلية !

ولما أهد الشاي ، همت بالاقتراب من المنضدة ، ولكنها طالت
في - بلهجتها القديمة الحازمة - أن أجلس في مكانتي ، كي تقوم هي
بخدمتي وأنا في جلستي بتموار المدفأة . ثم وضعت أمامي منضدة صغيرة
يعلمها فتح وطين به الخبز المقده .. تماماً كما اعتادت أن تتوفر على
راحتي . وتقدم لي بعض الطعام اللذيذ الخاص ، الذي كانت ترفقه
وتحصله لي . فابتسمت وأذعنت كما كنت أفعل في الأيام الخالية .
وأزادت أن تعرف هل كنت سعيدة في قصر (ثورنكلد) ،
وكيف كانت عذوتي ، فلما أخبرتها بأن سيد القصر أعزب ، سألتني
عما إذا كان طريفاً . وهل ملت إليه ، فقلت لها إنه رجل دميم ،
ولكنه سيد بالمعنى الصحيح ، وأنه يعلمني يرفق ، مما يجعلني راضية .

ثم أعددت أصفاء لها المدعوين المرحبين الذين كانوا يقيمون في القصر
منذ عهد قريب ، فراحت تصفي إلى التفاصيل بأعنام ، لأنها كانت من
الموضوعات التي تحبها وتبتهج لباعها .. وسرعان ما انقضت ساعة
في مثل هذا الحديث ، فقامت تبسني قلسوني ، ومعلمي ، ثم غادرت
مسكن البواب إلى القصر وأنا في رفقها ، كما كنت أرافقها منذ تسع
سنوات . يوم هبطت المسر - التي أخبطت أعددته الآن - مغادرة
القصر في صباح يوم غائم فارس من أيام يناير . وقلبي زاحز بالألم
والمرارة لذهابي إلى ملجأ (لوود) البعيد ، كما لو كنت مذهبة
أو منبوذة . مرة أخرى نهض أمامي ذلك السقف الذي كان ينجم على
أعداء لي ، فإذا الشك عملاً قلبي والألم يمز في نفسي ، فأشعر بأنني
شريدة تهم على وجه الأرض . ولكن سرعان ما عاودني الثقة بالنفس
وبفاتي . فحضت حمدة الشعور بالظلم ، والشام جرح الشرور التي
نزلت في ، وانطقت تيران السحطة المتأججة في صبري . وقالت
بيسي وهي تشدني خلال الباب : « متذهبين أولاً إلى حجرة الإفطار
لأن السيدتين الصغيرتين سيكونان هناك » .

● ودخلت الحجرة بعد لحظة ، فوجدت كل شيء ديباً كما كان يوم
قعدت لأول مرة إلى مسر بروكليرست ، ولكني وجدت أهل القصر
قد تغيروا حتى كنت لا أعرفهم .. فقد ظهرت أمامي شابان ، أحدهما
فاخرة الطول - في قامته مس الخزام تقريباً - مسرفة النحافة . ذات
وجه شاحب زاده ثوبها الأسود البسيط شحوباً ، وقد علفت في صدرها

مسيحة وصلياً كاحدى الراهبات ، فأيقنت أنها (اليزا) . وإن لم أعثر على شيء من وجوه الشبه بينها في حاضرتها وبين ما كانت عليه وهي طفلة صغيرة . وكانت الأخرى (جورجيانا) ، بلا ريب . ولكنها لم تكن (جورجيانا) الفتاة المتجيلة التي أتذكرها عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها . وإنما جارية شابة بديئة ، جميلة الأسارير ، ذات عيون ناعستين زرقاوين . وشعر ذهبي . وكانت ترتدي ثوباً أسود كذلك . ولكنه من حرار حديث ، غير طراز ثوب أختها المختلعة . وكان في كل من الثنتين شبه بأبهما . وإذا تقدمت نحوها ، قامتا لتحيي . وخاطبتي كلأما باسم (الآنسة ليز) . ونظفت (اليزا) ثوبها بصوت مقتضب دون أن تبسم ثم عادت فجعلت وراحت تحلق في الموقد وكأنها تسبيح . أما (جورجيانا) فقد أضافت إلى قولها : « كيف حالك ؟ » ، وبضعة أسئلة عادية عن رحلي والطقس وغير ذلك بصوت مترفع . بطيء . وهي ترمي من زاوية عينها . وتتخصصني من مفرق إلى الخصر قدامي .

ولقد كانا للفتاتين طريقة خاصة في التكميم علي دون أن نعبأ عن ذلك بالكلام . وذلك بالاستعانة بنظرة خاصة متعجرفة . وبتهجئة باردة توخر بعدم الاكترات ، دون الانجلاء إلى كلمة أو عمل يتم عن ففانلة . على أن السخرية لم تعد تؤثر . سواء كانت مسترة أو صريحة . كما كانت تؤثر من قبل . وأدهشني — إذ جلست بين الفتى خالي — أن أثبت كيف اختلفت في يسر إهمال إحداهما للثاني ، وسخرية الأخرى مني . ذلك لأنني كنت أفكر في أشياء أخرى : فقد استيقظ في نفسي خلال الشهور الأخيرة من المشاعر ما لا يقوى أي شيء آخر على إثارتها .

واحتاجت في صدرى من الآلام والمسرات ما كان يقوى أي شيء . في وسعها أن يبيحها . ومن ثم فلم أحفل بما كان يبدو منهما من طيبة أو شر . وما لبثت أن انضت إلى جورجيانا متسائلة في جملتها : « كيف حال مسز ريد ؟ » . فقالت : « مسز ريد ؟ آه ، تعين ، ماما ! » . إنها في حالة سيئة ، وما أظنك ستبكين الليلة من رؤيتها ! » .

— أكون شاكرة لو سمعت إلى عرقها وأبلغتها أنني قد وصلت .

فارتجعت وأمعنت في النظر إلى بعيني الزرقاوين . واستطردت أقول : « ألقى أعلم أنها ترغب في رؤيتي بصفة خاصة . ولا أحب أن أوجل رغبتها هذه ما استطعت . » . فثابتت اليزا : « إن والدي تذكره أن يلقى راحتها إنسان في المساء . » . وسرعان ما نهضت فتناولت فلسوفى وقفازي يدهو . قائلة إنني سأذهب إلى بيبي التي أتوقع وجودها في المطبخ . لأسألهما عما إذا كان في وسعي أن أقابل مسز ريد في تلك الليلة . وإذا وجدت بيبي يملت بها في تلك المهمة . وبدأت في اتخاذ إجراءات أخرى . ولقد كنت فيما مضى أبطل من التحدى . ولو أنني قولت منذ عام مجمل هذه المقابلة الفاترة لكنت قد غادرت (جينسبيد) في الصباح التالي . ولكنني — في هذه المرة — رأيت أن مثل هذه التفكير ينطوي على حماقة . لاسيما بعد أن قطعت مائة ميل لأرى عاتلي . ومن ثم كان لابد من أن أمكث حتى نتعفن حالما أو نموت . أما صلب ابنتي أو حماقتي لمسألة كان من الواجب أن أدعها جانباً وألا أفكر فيها . ولذلك خاطبت مديرة المنزل . وحظيت إليها أن تعد لي حجرة . وأخبرتني بأنها قد أظلم ضيفه هنا لمدة أسبوع أو اثنين . ثم أمرت بأن

تعمل حقيق إلى حرق وتبعها إلى هناك . ولكنني التقيت بيسين عند رأس الدرج ، فلما رأني قالت : إن السيدة مستيقظة ، وقد تغيرت بقلوبك . تعالى لترى هل تعرفك الآن ! .

• ولم أكن في حاجة إلى من يهتدي إلى الغرفة المعروفة التي طالما استعيت إليها في الماضي ، لأستريح إلى كتافات الناييب والقرع . فقلت بيسي . وفتحت الباب بهيئة .. ورأيت مصباحاً يحيط به ظلة على المنضدة ، إذ كان الظلام قد بدأ يرشني أسنانه . وكان السرير الكبير ذو الأعمدة الأربعة ، والستائر العتيرة اللون ، قائماً كما عهدته منذ زمن بعيد .. كذلك شاهدت منضدة الزينة ، والمقعد ذا المسندين ، والمقعد الصغير الذي كنت أجلس عليه ، وأطلب المفرة والصفحة عن التدوير التي لم أرتكبها ! .. وتطاعت إلى ركن قريب ، وأنا أتوقع أن أرى جسداً تحيلاً بفضاً يتبع فيه ، في ارتقاب أن يتنفس على كاليفرنيت ويوثق يدي المرتعدة أو عني .. وأعني جسد (جون ريد) كما كان في الماضي ! .. ثم اقتربت من الفراش ، وفتحت الستائر وانخبت على الوسائد العالية .

وكنت أذكر وجه مسر ريد ، ففتحت في طرفة إلى صورتي الماثورة . ومن يواحد البطة أن الزمن يطلق الرغبة الجاهدة في الانتظام ، ويخذ جلود الحقد والكراهية .. فلقد فارت هذه المرأة وقلبي زائر بالمرارة والبغضاء ، ولكنني حدثت إليها الآن وليس في نفسي سوى الأمن لألامها والرغبة القوية في أن أنسى وأصفح عن كل أذاها ، وأن نتصافى



ثم اقتربت من الفراش ، وفتحت الستائر وانخبت على الوسائد العالية

وأمسك يدها في حب ومودة .. ورأيت الوجه المألوف بصرامته وقسوته .
وشاهدت عينيها الغريبتين اللتين لم يكن أي شيء يثوي على أن يلين
نظراتهما .. ورأيت الجبين المرتفع الأحمر المشيد ، الذي طالما قطب
في وجهي متورداً ، نافذاً .. وعادت إلى ذاكرتي فظائع الطفولة وأحزانها
وأنا أقرب ذلك الجبين .. ومع ذلك فإني ملت عليها وقيلتها ، فنظرت
إليّ وقالت : « أهذه جين إير ؟ »

— نعم يا خالتي ريد : كيف حالك يا خالتي العزيزة ؟

وكنيت قد أقسمت ذات مرة ألا أعودها خالتي ، ولكنني لم أر ذنباً
في أن أتقص هذا القسم الآن . وكانت أصابعي قد أطبقت على يدها ،
التي أبرزتها فوق الغطاء ، ولو أنها أطبقت يدها على أصابعي لشعرت
ببطء صادقة ، ولكن يبدو أن الطابع الحفاقة لا تلين بتلك السرعة ،
وأن الغضاضة الطليعة لا تنجث بسهولة . إذ أن مسر ريد صبت يدها بعيداً ،
وأشاحت عني بوجهها ، وقالت إن الليل حار ، ثم عادت ترمقني بنظرات
باردة كالجليد ، فأدركت في الحال أن رأيها فيّ وشعورها نحوني لم
يتغيرا ولا يمكن أن يتغيرا ، كما أدركت من عينيها الجادة المتعجزة التي
لا تلين أو تدمع ، أنها مصممة على أن تهمني بالشر إلى النهاية ، لأنها
إذا اعتقدت أنني مليئة فمن تصيب سروراً من ذلك وإنما سيتولاها شعور
بالكدة والغم ! .. وأحسبت بأنم ، ثم بقيت . ثم يزم على إذلالها .. عن
أن أكون سبتها برغم طبعيتها وإرادتها معاً .. وكانت تنوعى قد
ظفرت كعادتي في الطفولة ، ولكنني سرعان ما رددتها إلى مآقي ، وجئت
بمعد إلى جوار الفراش ، وجلست ثم اتخيت على الوسادة قائلة : « لقد

أرسلت في طلبي .. وهأنذا وقد اعتزمت البقاء حتى أرى كيف تتطور
حالتك »

— أوه . بالطبع . هل قابلت ابني ؟

— نعم ؟

— حسناً .. يمكن أن تخبري بما أنني أريد أن تبقى هنا إلى أن أتمكن من
معادتك في أمور تدور برأسي . لقد تأخر الوقت القليل ، وإني لأجد
مشقة في أن أذكرها . ولكن ثمة شيئاً واحداً أريد أن أقوله .. عيني
أر ..

• وبين في من نظرتها الحائرة وتغير طبعها مبلغ ما أصاب جسمها
القوى من ضعف وعزال . وفيها كانت تنقلب في فراشها ، جذبت
الغطاء حول جسمها . ولكن مرفقي كان مرثكراً على طرف منه ،
فاحتاجت وقالت :

— اعتدلي في جلستك . لا تضايقي بالشبث بالغطاء . هل أنت
جين إير ؟

— أنا جين إير .

— لقد لاقيت من هذه الطفلة مالا يتصوره إنسان . فإلها من عبء
تفصيل على كاهلي . وبيا المضايقات التي كانت تحدثها في كل يوم
وفي كل ساعة . بما كانت تبدي من نزعات غير مفهومة ، ونوبات
فجائية من الغناد والمهاج ، ومراقبة دائمة لكل حركة من حركاتها : إلى
إني لأجهر بأننا خاطبتي ذات مرة وكأنها مجنونة أو شيطانة ! ..

أبداً لم تعد لي طفلة أو نظرت لي في حياتي كما فعلت هذه الطفلة ، ولذلك
قد احتجبت . عندما تخلصت منها وأبعدتها عن القصر ، ما حاتم معها
في (لوود) ؟ لقد نقش الحصى هناك ومات كثير من التاميدات ،
ومع ذلك فلها لم تحت . ولكني قلت إنها ماتت .. وأنتي أن تموت ؟
قلت : يا حاتم رغبة عجيبة بأسر ريد ! لماذا فكرت فيها إلى هذا
الحدا ؟ :

.. لقد كنت أكره أمها دائماً ، لأنها كانت شقيقة زوجي الوحيدة .
وكان ليها ، وقد عارض زواجة الأسرة كلها عندما تراث منها لزوجها
الوضوح . وعندما جاءه غير موتها بكنى كالمعته ، وأرسل في طلب
الطفلة رغم توسلاتي إليه أن يعهد بها إلى مربية ويدفع نفقات تربيتها ..
ولقد كرهتها عندما وقعت عليها عيار لأول مرة ، إذ كانت مخلوقة
صغيرة دالة العويل والبكاء .. تبكي طوال الليل في مهدها . ولم تكن
تصرخ من قلبها كغيرها من الأطفال . وإنما كانت تنشج وتنأه وتبكي
بصوت خافت . ولقد وثق (ريد) لها ، فكان يحلف عليها ويرعدها
بنفسه ، ويعني بها كما لو كانت ابنته .. بل وأكثر مما كان يعني بأولاده
حين كانوا في منها .. وكان يسلو أن يغري أولادى باللوود لمسه
المسبلة الصغيرة . ولكن أطفال الأعزاة لم يكرهوا بطقونها ، فغضب
منهم عندما أظهروا نفورهم منها . ولقد اعتاد - أثناء مرضه الأخير -
أن يرقدها معه في فراشه . حتى إذا لم يبق على موته إلا ساعة ، أكرمني
على أن أقدم له على أن أكفها .. وكنت أؤمن أن يعهد لي بطفل مسكين
من أبناء الملاهي ، على أن يعهد لي بهذه المخلوقة ! .. ولكنه كان شديداً

يعطيه ١ .. إن جون لا يشبه أباه ، وإنما يشبهني ، ويشبه إخوتي ،
فوق يشبه آل جيسون ، لا آل ريد : آه ! كم أتمنى أن يكتف عن
تعليبي بغطاياته التي يرسلها يومياً في طلب نفود ! ثم بعد ذلك مال
أمنحه إياه ، فحين تنحدر إلى القفر ، ولابد من أن أسرع تصف الخدم ،
وأن أغلق جزماً من القصر ، أو أن أوجره ! .. ولست أحتفل ذلك ،
ولكن ما حيلتي ؟ .. إن ثلثي مواردني يذهبان في تسديد فوائد الديون ،
فلن جون ينامو بدرجة بشعة ، ويغمر دائماً .. مسكين ولدي ! .. إنه
قريب للمخاتلين .. لقد انحط وتدهور .. أصبحت نظرتة قلبية ،
ومظهره .. إنني لأشعر بالهزل عندما أراه !

وكان الأفعال قد استبد بها ، فقلت ليمسي التي كانت تفت عتد
الجانب الآخر من القوارص : « يحسن أن تتركها الآن » .
.. ربما يحسن بك ذلك يا أخته ، ولكنها كثير أماً تصحلت هكذا
عندما يقترب الليل ، فإذا جاء الصباح هبات ..

وعندما تبقت صاحبت مسر ريد : « ألق .. لذي شيء آخر أود
أن أقوله : إنه يشدني .. يشدني دائماً بتموته أو موتي ، وقد حلت به
أحياناً كثيرة وهو مائي وفي عنقه جرح ، أو يوجه مفتاح أسود . لقد
عدوت في مازق وتقلت حورير ، فإذا فعل ؟ وكيف أحصل على نفود ؟
فأخذت ييمسي تغريباً بثلث جرة مهددة . وتمكنت من ذلك
بصعوبة شديدة ، فلم تلبث مسر ريد أن هدأت . ثم استغرقت في النوم ،
وإذا ذلك فارتقا .

● وانقضى أكثر من عشرة أيام قبل أن استطع عاينها مرة أخرى .
فقد ظلت تهرق أو تستغرق في سبات عميق . فأمر الطبيب بجمع كل
ما قد يثير أعصابها . واستطعت في خلال هذه الفترة أن أوثق علاقتي مع
إليزا وجورجيانا . وكانتا تديان في أول الأمر برودة شديداً نحوى ،
فكانت إليزا تقضى سواد يومها في الحياكة والطبخ . أو في القراءة
والكتابة ، وهي لا تكاد تخاطبني أو تخاطب أعضائها بحرف . أما جورجيانا
فكانت توجه إذ ذاك حديثاً فارغاً إلى مصفورها (الكنتارى) ، دون
أن تكثر لي ! ولكني كنت قد عقدت العزم على ألا أدع الخبرة
والخرج يتوليان لافتقاري إلى ما يشغلني ويسليني . فبحثت معي
بالدوات الرسم ، ووجدت فيها ما أُنشد . وبحثت أحل أقلام وأوراق
وأجلس بجوار النافذة بعيداً عنهما . وأتمسك فيها بمن لى من مناظر تشغل
الخيال ، إلى أن شرعت صباح يوم لى رسم وجه إنسان لم أحفل بشكله
ولا بجاهته ، بل تناولت قلماً أسود طرياً ، شحذت منه ، وعكفت على
العمل ، وسرعان ما رحمت على الورق جيئاً بارزاً . عريضاً ، ووجهاً
شبه مربع .. وسررتى هذا الشكل : فراجت أصابعى تعمل بسرعة لتكثف
الوجه باللامع ، وكان لابد من حاجبين مستطمين . ثخينين ، تحت
هذا الجبين .. وتلا ذلك .. بحركة طبيعية - أنف يديع الشكل ، مستقيم ،
واسع الفتحين . ثم فم مرط ، ليس فصيلاً . فدفق تدل على العزم .
تتوسطها ثغرة غائرة .. وكان لابد من شاربين أسودين . وبعض الشعر
الأسود المسدل على الصدقين ، تتبدل منه خصلات على الجبين .. وبقيت
العينان ، إذ تركتهما للنهاية ، لأنهما كانتا تتطلبان عناية وجهداً ، فرسمتهما

واسعتين جميلين ، بأعداب طويلة . خمراف ، وإنسانين مؤثقيين ،
كثيرين . وقلت لنفسى : « يديع ١ . ولكنه ليس دقيق الشبه .. لا تزال
الملامح بحاجة إلى مزيد من القوة والعزم ٢ ! » .. قضاعقت من دكة
الظلال السوداء ، حتى تزداد الملامح البيضاء إشراقاً .. وما لبثت لبنة
أو لسان حتى حققنا النجاح المنشود .. وإذا أمامى وجه صديق ، قديم
كان يعينى أن تولين هاتان الفتاتان ظهرهما ٣ . وثأملته ، ثم أبتست
لهذا الشبه الباطن ، واستغرقت في التأمل ، متعطلة .

واقترت منى إليزا دون أن أشعريها وسألتنى : « هل هذه صورة
لإنسان تعرفينه ؟ » .. فأجبها بأنها مجرد صورة رأس من وحى الخيال ،
ثم بادرت أخفيها تحت الأوراق الأخرى . ومن الطبيعى أنى كذبت ،
لأن الصورة كانت في الواقع تمثل مستر روشستر ثياباً أميناً جداً ، ولكن
ماذا كان يهمها أو يهم أحداً سواى من أمرها ؟ .. وتقدمت جورجيانا
بدورها ، فألقت نظرة .. وسرمتها الرسوم الأخرى ، ولكنها وصفت
الصورة الأولى بأنها : « رجل دمع » . وتبدت الدهشة والاعجب عليهما
لمهارتى ، فعرضت أن أرمم لكل منهما صورة : فجلست كل منهما
بدورها أمامى . حتى رحمت فآ صورة تعطفية . وبعد ذلك أخرجت
جورجيانا مجموعة من صورها في (ألبوم) ، فوجدتها بأن أضيف إليها
بعض الألوان المائية ، فسرعان ما صفت نفسها : « واقترحت أن نتمشى
في الحديقة .. وقبل أن تنقضى ساعتان أخريان ، خططنا معاً في أمور
خاصة وحديث شخصى ، وأتفقنى بوصف الشتاء الذى قضته في لندن
منذ عامين . والإعجاب الذى أثارته في قلوب الناس هناك ، وما لقبته

من شروب الرغاية والأهتام ، بل لقد ألمعت للماء إلى بعض غزواتها .
وفي أثناء العصر والمساء ، توسعت جورجيانا في هذه الموضوعات :
فذكرت في أحاديث عديدة مثالية ناعمة ، ووصفت في وقائع غرامية :
وقصارت القول قصت على رواية ضخمة عن الحياة العصرية الراقية ..
وأعدت الأحاديث تتابع يوماً بعد يوم ، وكانت تدور دائماً حول
موضوع واحد .. حول نفسها ، وعشاقها ، وشجونها . ومن عجب
أنها لم تشر بكلمة واحدة إلى مرض أمها ، ولا إلى وفاة شقيقها ، ولا
إلى الحال السيئة التي نزلت فيها الأسرة ، إذ كان يبدو أن أفكارها لم تكن
منصرفة إلا إلى ذكريات المرح الماضي ، والأمل في العودة إلى المبادئ ..
أما أمها المريضة ، فكانت لا تراها في اليوم سوى بضع دقائق ، لا أكثر !

● وظلت إلينا لا تتحدث إلا عاماً . وكان جلياً أن ليس لديها وقت
الكلام ، فقلبي لم أتر في حياتي إنساناً أكثر إنهماكاً منها في العمل . ومع
ذلك فقد كان من العسير معرفة ما تعمل ، أو بالأحرى اكتشاف ثمره
كدها واجتهادها ! وكانت تلب إلى وجوب إيفائها في ساعة مبكرة .
وإن لم أدر قيم كانت تشغل نفسها قبل تناول الإفطار .. على أنها كانت
بعد التطوير ، توزع وقتها أجزاء منتظمة ، وتعمل لكل ساعة مهمة
معينة . فكانت تخصص ثلاث حصص من يومها للمطالعة والقراءة في
كتاب عرفت بعد البحث والتشعب أنه كان كتاباً للصلاة . وإذا
سألتها عن أهم ملاحظاتها فيه ، قالت : « قواعد الصلاة » . كذلك كانت
تخصص ثلاث ساعات لتطويع قماش غرمزي مربع بخيوط من القصب :

ولما سألتها عن هذا القماش الذي كان في حجم السجادة ، قالت إنه غطاء
خرايب في كنيسة جديدة أقيمت حديثاً في (جيسيد) . كما أنها كانت
تكرس ساعتين للكتابة مذكراتها : وساعتين للعمل بنفسها في حديقة
المطبخ . حيث كانت تزرع الخضار . وكانت تخصص ساعة لتنظيم
حساباتها .. وبدأت أنها كانت بذلك في لحي عن أي زمالة أو أي حديث .
واعتقد أنها كانت سعيدة بطريقتها الخاصة في الحياة ، وأنها كانت
مكتفية بهذه المعيشة الريفية التي كانت تسير على وثيرة واحدة : قم
يكن بنفسها سوى أمر واحد ، هو أن يقع حادث عارض يعطلها على
تغيير نظامها الدقيق !

وأخبرتني ذات مساء - وهي أكثر رغبة في التحدث معي عن
عائتها - أن سلوك جون وما كان يهدد الأسرة من خراب ، قد سببها
طاحناً شديداً . ولكنها حذرت أمرها ، لتعني بتأمين مستقبلها .. فإذا
ما ماتت أمها - إذ لم يكن من المحتمل أن تنجب ، أو أن تبقى طويلاً على قيد
الحياة ، كما قالت في هدوء - فسوف تبادر إلى تحقيق أمنية طالما نالت
إليها ، وهي أن تؤول إلى مكان تسوده عادات منتظمة . ولا تنفذ إليه
المتاعب أبداً . حيث تقم بينها وبين العالم المشتهر ساجاً . وإذا سألتها
عما إذا كانت جورجيانا ستألفها ، قالت : « بالطبع لا ! » .. فما كانت
تجمع بينها وبين جورجيانا مشارب مشتركة في أي يوم من عمرهما ..
وما كانت لتتأمل معاشرتها معها تكن للاعتبارات . ومن ثم فجاء جورجيانا
أن تسير في طريقها الخاصة . ولما - إلينا - أن تنطلق في الطريق التي
اختارنها :

وكانت جورجيانا - عندما لا تقضي إلى بلخيانتا - تقضي معظم وقتها في الاستطجاع على الأريكة وهي متبرمة باكتئاب القصر ، متلهفة على أن تلقى من خالتها دعوة إلى المدينة ، قائلة : « آه لو استطعت أن أبتعد شهراً أو اثنين ، حتى ينتهي كل شيء ! » .. ولم أشأ أن أسأها عما كانت تعنيه بقولها : « حتى ينتهي كل شيء » ، ولكنني أحسبها كانت تشير إلى موت أمها المنتظر ، والفترة الكئيبة التي تستغرقها مراسم الجنازة . ولم تعد إليها تكررت عموماً بيلادة أخها وشكاؤها ، ولكنها جلت عليها ذات يوم بعد أن فرغت من دفتر حساباتها ، وطوت نظريتها إذ قالت لها : « لم يذب على الأرض قط يا جورجيانا حيوان أخف وأشد عجرة منك ، ولينك لم تخلق لأنك لاستطيعين من الحياة .. وبدلاً من أن تعيش من أجل نفسك وفي نفسك ومع نفسك - كما ينبغي لكل عاقلة أن تعيش - تسعين لأن تكوني عالة على غيرك ١ .. وإذا لم تجدى من يرضي بحصل هذا الحب السمين ، الوامن ، الغث ، العديم الجدوى ، رحت تصرخين شاكية من سوء المعاملة والإهمال وسوء الحظ ٢ .. ثم إنك ترين العالم صعباً يفيضاً ، إذا لم تكن حيانتك مشهداً دائم التغيير والإثارة ٣ .. إنك لتحتمين على الناس أن يعجبوا بك ، ويتوددوا إليك ، ويتعلقوك ، كما تحمين وجود الموسيقى والرقص والمجتمعات وإلا تولاك الخمول وأدركك الموت ٤ .. أليس لك عقل يساعدك على ابتداع وسيلة لجعلك مستقلة عن كل جهد وعزيمة إلا جهذك وعزيمتك ٥ ؟ » .. خلت يوماً وتسمى ساعاته بنظام ، وخصصي لكل ساعة منها عملاً تؤدينه ، ولا تركني ربع ساعة ، بل ولا عشر دقائق ، ولا خساً دون أن يقبدي

منها . وأدى كل مهمة في موعدها وفقاً للجدول ، وبخطام دقيق ، فإذا اليوم ينقضي قبل أن تقضى إلى أنه بدأ ، ولا تدلين لأحد بفضل مساعدتك على التخلص من لحظة خالية .. ولست تجدن أنك لم تحسجي إلى أن تشدى صبة أحد . ولا حليته ، ولا عطفه ، ولا مواساته : مستجدين .. يا بخار - أنك عشت كما ينبغي لأي امرئ مستقل أن يعيش . خلت هذه النصيحة - وهي الأولى والأخيرة التي أقدمها لك - فلا تصدري عذاجة إلى : « ولا إلى أي امرئ آخر ، مهما يحدث .. أما إذا أهملتها ، فامضي في رسالتك ، وشكوكك ، وحولك ، وتحمل نتائج حافتك مهما تسب وتفسو . والآن دعيني أجدك ببساطة وصراحة ، فاستمعي إلى : لسوف أنقض إلى منك بعد موت أمك .. ومنذ اليوم الذي يشل فيه جياتها إلى القبر - في كنيسته (جيتسبيد) - ستفترق ، وكأن كلاماً لم تعرف الأخرى .. ولا داعي لأن تحسبي أنني سأدلك ترينين في باني رباط يثقلني ، مهما يكن ثقلها ، لغيره أن القبر شاه أن تولد من أم واحدة وأب واحد .. ألا دعيني أخبرك بأنه لو قبر مجلس البشري بأسره أن يفتي . فما عدنا - أنت وأنا - وأنتا ممكنات وحيدتين على ظهر الدنيا ، فسوف أتركك في هذا العالم القديم ، وأذهب إلى العالم الجديد : »

وأغلقت شفتيها بعد ذلك ، فردت عليها جورجيانا قائلة : « ما كان أظنك عن هذه الحملة القاسية . فإن كل إنسان يعرف أنك أكثر المقلوبات الكاثبة أنانية ووجوداً . كما أنني أعرف كراهيتك الخالدة لي ، فقد جربتها من قبل في الدور الذي لعبته فيما يتعلق بالفورد فير ، إذ لم تطبق أن أرتفع إلى مستوى أرفع من مستواك ، أو يكون لي لقب

رفيع ، أو أقابل بمظاهر الإعجاب في الأوساط التي لا تحريين على الظهور فيها بوجهك هذا ، طلعت دور الجلوسية والواشية ، وفضيت على آمالي إلى الأبد ١ .. وأخرجت جسور جيانا منديلوما ، قراحت تمسخت باكية زهاء ساعة ، بينما جلست إليزا باردة جامدة متهمكة في التطريز بجهد واجتهاد .



● إن بعض الناس لا يقيمون وزناً كبيراً للشعور الصادق الكريم . ولكن ها هنا نقصان جعلهما الانقسام إلى هذا الإحساس بعد مختلفين . فكانت إحداهما لأذعة لا تطلق ، والأخرى ناعقة تستوجب الإجراء . ذلك لأن الشعور الجرد من التفكير والتبيز ليس في الحقيقة سوى جرعة خفيفة ، بينما التفكير الذي لا يتخلله شعور ولا إحساس ، لا يعلم أن يكون لقمة شديدة المرارة ، عسيرة المضغ ، يثقل على الإنسان أن يزدردها .

وكان الأصل مطبوعاً لشعوب الرياح ، فما لشت جورجيانا أن نامت على الأريكة وهي تصفح إحدى الروايات ، بينما ذهبت إليزا إلى الكنيسة الجديدة ، لحضور قداس بمناسبة عيد أحد القديسين ، فقد كانت محافظة في أمور الدين على الشكليات والرتيبات ، لا يمسدها أي طقس عن أن تؤدي ما تعتبره من واجباتها الدينية . وكانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات في يوم الأحد - وفي الأيام التي تقام فيها الصلوات - سواء أكان الجو جليلاً أو ربيعاً .

ورأيت من واجبي أن أصعد إلى الطابق العلوي ، فأشفق حنان

المريضة التي رقدت في فراشها مهتلة من الجوع تقريباً ، حتى من خدماها ومن ممرضتها التي كانت تنسل من الغرفة ما استطاعت . ولقد كانت يبيس أمينة حقاً ، ولكنها كانت مضطرة إلى العناية بأسرتها ، فكانت لا تأتي إلى البو إلا إذا منحت لها الفرصة . وصبح ما توقعت فعلاً ، فإذا المريضة لم يكن يرعاها أحد ، ولا تنفج بجانيها ممرضة ، وكانت نائمة وقد غاص وجهها الشاحب بين الوسائد ، وبدأت التيران في الملقاة تحمده وتطلق ، فجددتها وربت الفراش ، ثم وقفت أحرق النظر حين لم تعد تقوى على أن تحرق في .. وما لبثت أن مضيت إلى النافذة ، فإذا الأضواء تصفع زجاجها ، والرياح تهب قوية مزجرجة ، فقلت في نفسي : « هنا ترقد مخلوقة سرعان ما سوف تتعد عن حارب العناصر الأرضية . فليل أين تذهب الروح التي تناضل الآن لتضاد مسكنها المادي بعد أن تطلق متحررة ؟ »

وفيما كنت أفكر في هذا السر العظيم ، تذكرت هيلين بيرلز - زميلة الدراسة .. وكلماتها الأخيرة . وهي على فراش الموت ، عن إيمانها واعتقادها في المساواة بين الأرواح التي تحررت من أجسادها . وكنت ما تزال أصغي بفكرتي إلى طبعها التي ما زلت أذكرها ، كما كنت أكتل وجهها الشاحب الواهن ، وفظرتها العامية وهي راقدة في فراش الموت تتعجل العودة إلى ربها الأروابي . حين سمعت نطق في الفراش تخففة صوت واهن : « من هذا ؟ » .. وكنت أعلم أن مسز ريد لم تتكلم منذ أيام ، فهل تراها أفاقت ؟ .. وذهبت إليها وقلت : وأنا .. أيها الخلة ريد ١ .. فكان جوابها : ومن .. أنا ؟ .. من أنت ؟

وتطلعت إلى في دهشة ، وتوع من الفرع ، وإن لم يبلغ حد الذعر المحتاج ، ثم قالت : « إنك غريبة عني تماماً .. أين يمسى ؟ »

— في المبنى الخارجى يا خالتي .

— خالك ؟ .. من ذا الذى يدعوكي خالتيه ؟ .. أنت لست من آل جيسونك .. أتى أعرف هذا الوجه وعائين العينين وهذا الجبين . إنك تشبهين .. تشبهين (جين إير) !

ولم أقل شيئاً بخفاة أن أسب لها ضحكة إذا أنا أفصح لها عن شخصيتي .. فاسترسلت : « ومع ذلك أخشى أن أكون محزنة لأن أفكاري تخدعني .. إنني أريد أن أرى جين إير .. ومن ثم أتوهم قبلت شيئاً ، حيث لا شبهة يتكاد هذا إلى أنها لابد قد تغيرت كثيراً في الأعوام الثمانية التي مضت .. فأخبرت أؤكد لها في رفق أنني (جين إير) التي تريد رؤيتها ، حتى إذا أدركت أنها وعت ماقلت تماماً ، أخبرتها كيف أرسلت بيمى زوجها إلى (لورنيلد) ، وكيف لبست الدعوى وجئت على عجل ، فقالت بعد قليل : « أنا أعلم أنني جند مريضة ، فقد حاولت منذ دقائق أن أنظف في فراشي ، فوجدتني لا أستطيع الحراك ، يبدو لي أن أروح ضميري قبل أن أموت ، لأن ما نستحق به ونحن في صحة جيدة ، ينقل كاهلنا في مثل هذه الساعة التي أنا فيها الآن .. هل الممرضة في الغرفة ؟ .. هل هناك أحد غيرك في الغرفة ؟ »

• وإذا سكنت لما أننا كنا وحدنا ، قالت : « حسناً ، لقد أعطت في حقلك مرتين ، خطاً أندم عليه الآن ، فإنا أولاً نكثت بالعهد الذي قطعته على نفسي لزواجي ، وهو أن أوبيك كما لو كنت ابنتي . وثانياً .. ثم سكنت وراحت تحدث نفسها قائلة : « وعلى كل قليس لهذا الأمر أهمية .. إنني قد أشقى ، فيكون شعوري بأنني أذلت نفسي لها ، مبعث ألم لي . »

وحاولت عبثاً أن تنظف على الجنب الآخر ، فبدلت أساورها ، ولأح أنها كانت تعاني إحساساً داخلياً ، لعله كان نذيراً بأمر آلامها في الحياة . إذ أنها لم تلبث أن قالت : « يجب أن أنظف على ذلك ، لأن العالم الآخر أدهم .. ويحسن لي أن أخبرها .. أذهب إلى صوان ملايمي وافتحه ، وأخرجني منه خطايا تربته هناك .. فأطعت أوامرها .. ثم قالت : « افرقي الخطاب .. وكان قصيراً ، جاء فيه :

« سيدتي

هل تشكرمون بأن ترسلني عنوان ابنة أختي جين إير ، وأن تخبريني كيف حالها ، لأن في يميني أن أكتب في القريب العاجل طلياً إليها أن تأتي إلى في ماديرا ، بعد أن يارك الله جهودي وأصبحت في سعة ، ولما لم يكن لي زوجة ولا ولد ، فإني أروغب في أن أتناها في حياتي وأوصي لها عند موتى بكل ما أتركه .

ونفضل يا سيدتي ... إلخ

جون إير ماديرا ،

وكان تاريخ الخطاب يرجع إلى ثلاث سنوات ، فسألها : « ماذا

لم أجمع يوماً من قبل ؟ »

... لأنني كنت أكرهك كراهية بالغة ، حالت دون أن أمد لك
 بدءاً تشاكك وترفضك : ولئن أنسى سلوكك معي يا جين ولا الحقد الذي
 عصفت به في وجهي ذات يوم ، ولا الهمجة التي صارحتني بها بأنك
 تفتنني وتعتبريني شر مخلوقة في الوجود ، ولا النظرة والصوت اللذين
 لم يكونا بناسيان حقولك عندما أكدت في أن مجرد التفكير في بسطك
 وأني عاملك بقسوة شديدة ، لم يكن في وسعي أن أنسى إحساساتي
 عندما هبت ونفثت حوم ذهك ، لقد خفت وكأنك كنت وحشاً
 ضارياً ، ضربه أو دفعه ، فأملني بعينين آدميتين ، وراح يلحن بصوت
 إنساني ...! أعطيتني بعض الماء .. حيا أمرعي !

فقلت وأنا أقدم لها جرعة الماء التي طلبتها : « لا تعودى يا مسر
 ويد العزيرة إلى الضكير في كل هذا ، دعيه يتجاذب عن رأسك ،
 واغفري لي حدة اللسان ، لأنني كنت يومذاك طفلة في الثامنة أو التاسعة
 من العمر .. فلم تكثرث شيئا مما قلت ، وإنما تهملت .. بعد أن
 تلوقت الماء .. ثم استطردت تقول : « أقول لك إنني لم أستطع أن
 أنسى ما مضى ، ولكنني اتقمت لنفسي : لأنني لم أملك أن أرى عمك
 يقبلك ، أو أن أراك في راحة وميلود ، فكنت إليه أنني أسفة إذ أعجب
 رجلاه ، فلما جين لي قد توفيت بحمي التيفوس في (لو وود) !
 والآن .. لك أن تكسبي ما تشائين ، وأن تكذبى قولى ، وأن تكسبني عن
 ذنبي بأسرع ما تستطيعين .. لقد ولدت .. على ما أظن .. لتكوني سبياً
 في تعذيب ، ولولاك لما اقترقت الجرم الذي تنقص ذكراد ساعاتي
 الأخيرة ! »

— لنفك تكفين عن هذه الأفكار يا خالتي وتطيرين إلى بين
 العطف والغفران .

— إن لك طبعاً رديفاً يا جين .. طبعاً لا أستطيع إلى اليوم أن أفهمه ،
 إذ كيف استطعت الهدوء والصبر تسع سنين على معاملتنا ، ثم هبت
 في السنة العاشرة كالنار العاتية العيفة ؟ هذا ما لم أستطع إدراكه !

— لست طباعى سبغ مثل ما تتوهمين . أنا قفلاً عصبية ، ولكنني
 لست حقوداً أو غية للانتقام . ولكن كان يسعني — في طفولتي —
 أن أسبك لو أنك هبأت لي السبيل ، وكما أغنى الآن في إخلاص أن
 أكون معك على ولاء وصفاء .. حيا قلوبين يا خالتي !

وقدمت لها خدى حتى التصق بشفتيها ، ولكنها لم تقبله قائلة إنني
 أضايقها بالانكاء على القرائش ، ثم رغب مرة أخرى في أن تشرب ..
 ولما أسلتها بلزاعي ، أمسكت يدها الباردة كالثلج ، فجلبت أصابعها
 اللواعة ، ونأت بنظراتها عني .. وأخيراً قلت : « سواء أحببتني أم
 أم كرهتني ، فإنني قد صحتعت عنك كل الصفح ، فاطلب من الله
 غفرانه ، وأهدئي بالآ ! »

سكنية هذه المرأة المقلية ! لقد ضاعت القرصة أمامها غائولة
 تغير طابعها وأفكارها . وما دامت قد عاشت تكرهني ، فسوف
 تظنني وهي ما تزال تكرهني :

ودخلت الممرضة إذ ذاك تلعبها يسي ، فسهلت ثعلبي أرى دليلاً
 على حبها ، ولكنها لم تبد شيئاً من ذلك ، ثم اشتدت بها الغيوبة فلم تلق
 بها حتى أسلمت الروح في منتصف الليل ، ولم أحضر موتها لأعوض

عليها ، ولا حضرتها واحدة من ابنتيها ، ولكنهما أخبرتاني في الصباح أن كل شيء قد انتهى . فذهبت مع إليزا لآراها ، بينما انضجرت جورجيانا في بكاء عال ، وقالت إنها لا تعرف على الذهاب معنا ؛ وهناك .. كانت سارة ريد مسجاة .. سارة ريد - التي كانت ذات يوم قوية نشيطة - أصبحت جامدة ساكنة ، وقد غطى جفنها البارد عينها المتحجرة . وكان جينينا وملائمها الصارمة ما تزال تكسوها مسحة الروح النصيلة التي لا تلبس . فكانت جنة عجيبة كاثية . وروت إليسا في أمسي وألم ، دون ما شعور رقيق أو رثاء ، أو رجاء ، أو قنوط . : مجرد ألم من أجل همومها وشقتها ، لا لمصابي فيها ، واكتئاب وحزن - بغير دموع - أمام رغبة الموت على هذه الصورة !

ونظرت إليزا إلى أمها في صمت ، ثم قالت في النهاية : « كان يمكن ببنتها القوية أن تبلغ من العمر أرواحه ، لولا أن قصفت عمرها ألم والكثير » . ثم أمسكت لسانها نوبة من البكاء للطفلة ، حتى إذا انقضت ، تجولت وغادرت الحجرة . فتمعتها دون أن تدرك إحداثا دعة واحدة !

الفصل الثاني والعشرون

● لم يكن مستر روشستر قد منحنى إجازة لغير أسبوع واحد ، ومع ذلك انقضى شهر قبل أن أغادر (جيمسديد) . وقد أردت أن أسافر بمجرد تشييع الجنازة ، ولكن جورجيانا توسلت إلي أن أبقى إلى أن تسكن من السفر إلى (لندن) حيث دعاها خالها مستر جيبسون الذي

كان قد جاء ليشرف على دفن أخته ويسوى أمور العائلة . وحديثي جورجيانا عن خوفها من أن تترك وحدها مع إليزا ، التي لا تلقى منها عطفاً في حزنها ، ولا عوناً على غلوفها ، ولا مساعداً في استعداداتها للسر ، فاحتلت من ولولتها وتأوهاتنا الأثانية قدر ما وسعني ، وبذلت قصارى جهدي في حياكة ملائمتها وحزمها ، ولو أنها كانت تؤثر الكسل والحصول وتتركني أعمال وحدي ، حتى لقد قلت لها في سريري : « لو قدر عليك وعلى أن تعيش معاً على النوم - يا ابنة الخيال - لوجب أن تبدأ حياتنا على أساس جديد ، فما كنت أقبل في استحقاق أن أحمل العبء وحدي ، بل كنت أعين لك نصيبك من العمل ، وأضطررك إلى أدائه ، وإلا بئى كما هو بلا أدائه .. وكنت أصر أيضاً على أن تكتسى في صدرك بعض هذا التشديق بالكلام ، وهذه الشكاوى غير الصادقة ! ولولا أن قرأنا هذه مؤفة وزائلة ، ولولا أن هذا الظرف عزن ، لما رضيت من ناحيتي بهذا الوضع وهذا الإذعان ! »

وأخيراً ، ودعت جورجيانا عند سفرها .. ولكن جاء دور (إليزا) إذ طلبت مني هي الأخرى أن أبقى معها أسبوعاً آخر ، لأن خطفها كانت تحتاج إلى كل وقتها وإهتمامها . وكانت تعترم الرحيل إلى بلد غير معروف ، فكانت تقضي نهارها في حجرتها وقد أغلقت عليها بابها بالمرلاج ، و راحت تملأحقاقها وتفرغ أوداجها وتحمق أودافها ، دون أن تتصل بأحد ، تاركة في شئون المنزل ومقابلة الزوار والرد على عطايات التعزية . ثم جاءني صباح يوم تخبرني أنني مطلق الحرية ..

وقالت : « إني أشكر لك خدماتك الغالية ، وملوكك الرشيد !
ولأنه لفارق كبير بين أن يعيش الإنسان معك وبين أن يعيش مع مخلوقة
مثل جورجيانا !.. إنك توفين واجبك في الحياة بنفسك ، دون أن
تكفي عائلة على عيورك .. ثم استرسلت قائلة : « غدا سأقنع إلى
أوروبا ، وسأقيم بالقرب من مدينة (ليل) في دار دينية ، لك أن تسميها
ديرا .. وهناك سأقضي العمر في راحة ياك وهلو .. وسوف أكرم
نفسى بعض الوقت لأداء الامتحان في المبادئ الكاثوليكية الرومانية ..
ثم لدوامه نظمها .. حتى إذا وجدت .. كما أكاد أقول .. غير ما بيني
الحل بنظام وترتيب .. اعتنيت القديس الروماني .. وربما دخلت الديرة ..

ولم أجد دهشني لزاما ما اعتزمته ، كما لم أحوط أن أني لرادتها ،
لأعتقد بأن هذا ربما ناسبا .. وربما كان أجدي لها .. وعندما دعيت
قالت : « استودعك الله يا ابنة العمة .. أرجو لك أطيب التحيات ،
فإنك ذات عقل لا بأس به .. فأجبها قائلة : « وأنت لست مجردة من
العقل يا ابنة أخاك إليزا ، ولكنك بعد عام واحد سوف تقبرين نفسك
في قبر قريتي .. وإن كان هذا ليس من شائي ولا يعني ما دمت تحبين
في عمك هذا ما يلائمك ..

— إنك على حق !

ثم سألت كل منا في طريقها الخاص .. وبما أنه لم تمنح فرصة
أخرى لذكرها ثانية ، أو الإشارة إلى شغفها ، ففى وسعى أن أذكر
أن جورجيانا اقترنت برجل غني طاعن في السن .. وأن إليزا التفتحت

فعلا بالمرحى والآن وليسته : بعد أن اجتازت المراحل النهائية ،
وقد وقفت على حياتها .

● رأى شعور يعود الناس إلى أوطانهم بعد غياب طويل أو قصير ؟
لست أدري لأنني لم أجرب هذا الشعور من قبل .. ولقد خبرت قيا
مضى شعورى عند العودة إلى (جيتسيد) — وأنا طفلة — بعد نزعة
طويلة على الأقدام ، لأننى التزيع والتأليب بسبب ما كان يبدو على من
برودة أو اكتئاب !.. كما عرفت قيا بعد ، شعورى وأنا عائلة من
الكنيسة إلى (لو وود) مظلقة على وجبة طيبة وناز قوية فلا أجد هذه
أو تلك !.. وما شعرت في عودتي إلى إحداهما يسرور واشتياق ، إذ لم
نكن هناك جاذبية تنضاهف كلها اقتربت .. أما العودة إلى (نورفيلد)
فإنني لم أكن قلب جريشا بعد !

وبدت رحلتى شاقة .. شاقة جدا ، إذ قطعت في اليوم الأول خمسين
ميلا ، ثم خمسين أخرى في اليوم الثاني .. وكانت أتكلم في تدور في اليوم
الأول حول مسر (ريد) وساعاتها الأخيرة وموتها وجنازتها .. وحول
جورجيانا التي تنظفها في خاطرى نمرح في قاعة الرقص .. وحول إليزا
وقد قبعنا في إحدى حجرات الديرو الموحشة .. ثم رحت أحفل ما كان عليه
سلوك كل منهما ، وما كان لديها من شذو ، إلى أن جن الليل فتهدت
هذه الأفكار ، حتى إذا رقدت على فراش السفر ، عاودتني من جديد ..
كنت عائلة إلى (نورفيلد) .. ولكن ، كم كان مقصودا في أن
أملك هناك ٣ .. مدة قصيرة كما اعتقد جازمة ، فقد علمت من أخطايات

التي أرسلتها من فيرفاكس أن الضيوف غادروا القصر ، وأن مستر
روشستر سافر إلى لندن منذ ثلاثة أسابيع . ولكنه لن يلبث أن يعود
بعد أسبوعين . وقد استنجدت من فيرفاكس من سفره ، أنه ذهب
ليعد العدة لحفلة زواجه ، إذ تحدث عن شراء عربة جديدة : وكانت
ترى في زواجه بالآلة انجرام شيئاً غريباً ، ولكنها بعد كل ما سمعت من
الناس ، وما رأته بعيني رأسها ، لم تعد تشك في أن هذا الزواج واقع
بعد قليل . ولا تذكرت هذه الأقوال - أثناء رحلتي - قلت في نفسي
أن لما أن تشك ما شاءت ، ولكن لا بأسورني أدنى شك أو ارتياب .

وكان السؤال الذي تلا ذلك هو : « إلى أين أذهب ؟ » .. لقد جلست
أمس بالآلة انجرام ورأيتها تطلق أبواب (ثور نفيلد) في وجهي . ونشير
إلى طريق آخر ، كما رأيت مستر روشستر في منامى وقد عقد ذراعيه على
صناديق وراح يندم منهاومنى ، ابتسامة زاهقة بالسخرة والاستخفاف .
ولم أكن قد ذكرت لسر فيرفاكس موعد عودتي بالضبط . لأنني
لم أشأ أن تتطرنى العربة في « ميلكوت » ، بل عولت على أن أقطع
الطريق سيراً على الأقدام في حوت ومديوم . ولعلنا ، غادرت فندق
(جودج) - بعد أن تركت حقيبتي لدى حارسه - في حوال الساعة
السادسة من إحدى أصيحات شهر يونيو . واتخذت الطريق القديم إلى
(ثور نفيلد) .. وكان طريقاً يمتد الشجر الأكبر منه خلال الحوض ،
وكان قليلاً ما يجتازه أحد . ولم تكن البلية من أبالي الصيف المتصحوة
ولا البديعة ، وإن كان الهواء عليلًا .. وكان الفلاحون منهمكين في
الحصاد على طول الطريق . ومع أن السماء لم تكن غائمة من السحب ،

إلا أنها كانت تهب بنحو طيب إلى فترة طويلة ، فإن زرقها - حيثما كان
من الممكن رؤية الزرقه - كانت خفيفة . وثابتة .. كما كانت صبيها
عالية ورقيفة .. كذلك كان الغروب دافئاً ، لا يبين فيه مطر ولا رطوبة ..
وكان يلوغ وكانما اشتعلت فيه نار .. أو كأنه مبعث أوقدت فيه النار ،
خلف ستار من البخار الممرى .. وخلال ثغرات السحب ، كانت
أشعة الشمس الراحلة ، تبدو ذهبية مشوبة بأحمرار ..

ووجدت أشعر بإغباط كلما فصر الطريق أمامي .. وقد بلغ من
عنفوان غيظي أن توقفت مرة عن السير لأسائل نفسي عن سر هذا
الفرح ، ولأذكر عقلي بأن هذا الذي كنت أسعى إليه ليس متري ،
ولا هو بمفر داعم لي . ولا هو بمكان يضم أصدقاء مشغوفين بي ،
بترقيوتني وينظرون وسولي . قلت : « من المؤكد أن من فيرفاكس
متجائلي باحة ، وستصق أدبل وتجري لاستقبالي ، ولكنك تعرفين
جيداً أنك إنما تتكبرين في شخص آخر غيرهما : وأن هذا الشخص
لا يفكر فيك ! »

ولكن ما أشد عناد الشباب ، وما أشد العننى الناشء عن قلة
التجارب ! لقد أكثرت في الشباب وقلة التجربة أنني سوف أغيب كل
الاجباط إذ أحظى برؤية مستر روشستر مرة أخرى ، سواء أنظر
إلى باهتمام أم لم ينظر . وراحا يبينان في قائلين : « أسرعى . أسرعى »
كوني إلى جانبه بضعة الأيام أو الأسابيع القليلة الباقية ، قبل أن تغارفيه
إلى الأبد ! .. وكففت إذ ذاك في صدري لما متجدداً مبرحاً ، وأسهرت
في طريقي لا ألوى على شوي :

● وكان العالم يحضون في أراضي (ثورنيلند) - أو بالأحرى كانوا قد فرغوا من عملهم وبدأوا يعودون إلى منازلهم - ولم يعد أعمى سوى حفل أو اثنين اجتازهما ثم عبر الطريق إلى أبواب القصر الخارجية. وكانت الزهور كثيرة متناثرة على طول الطريق ، ولكن الوقت لم يكن يتسع لأطفال شبيهاً منها ، فقد أودت الوصول إلى القصر بأسرع ما كنت أستطيع .. وانجبراً عبرت الطريق - لأجد مستر روشستر جالساً على مقعده فوق سلم السباح ، وفي يده قلم ودفتر يكتب فيه ! .. ولم يكن شبحاً ، ومع ذلك فقد خارت أعصابي ، وبقيت لحظة لا أملك زمام حواسي .. فما معنى هذا ؟ لم يكن يخطر لي ببال قط أنني سوف أرتجف هكذا عندما أراه ، وأتني سوف أفتقد القدرة على الكلام والحراك في حضرته . إذن فلا بد لي من العودة - متى استطعت التحرك من مكاني - حتى لا أضع نفسي أمامه موضع السخرية والتكلم ! وكنت أعرف طريقاً آخر إلى المنزل .. ولكن ما كان ليجهلي أن أعرف عشرين طريقاً ، إذ أن عيني مستر روشستر وقفتا على * ، فصرغان ما أتني دفتره وقلعه جانباً ، ثم هتف قائلاً : « هالو .. هل عدت ؟ لقدى .. من فضلك ! » .

وأصغيتي تقدمت وإن لم أدر كيف تقدمت ، لأنني لم أكّد المظن إلى حركاتي ، بل قصرت همي على المظاهر بالمدح ، وعلى السيطرة على عضلات وجهي التي شعرت بها تنمرد في فتحة على إرادتي ، وتحاول جاهدة أن تطيع على أسارى في صورة كنت معولة على إخفاؤها . ولكنني كنت أجهل فتاعاً ، فأسدلته على وجهي وتقدمت من السيد فايندرفي قائلاً : « وهاهي ذي جيني إير ؟ هل أنت زائدة من (ميلكوت) .. سيراً

على الأقدام ؟ » نعم فهذه إحدى حيلك .. لم ترسلي في طلب العربية وتأتي كغيرك من الناس العاديين ، ولكنك آثرت الهيبة خفية في النفس مثل حلم أو خيال ! بالله ماذا فعلت طوال هذا الشهر ؟ ؟

— تقبّيته مع زوجة خليل التي توفيت ، يا سيدي .

— هذا جواب من إجاباتك الماثورة غلك يا جيني ! احفظيني

يا ملائكة ، لقد جاءت جيني إير من العالم الآخر .. من مدينة الموت ..

ويادرت تخبرني بذلك بمجرد أن ألتقي هنا وحيداً وسط الظلام ! ..

لو أنني أوتيت الحرية لست لك يدي لأتّين هل أنت جسم أو خيال

يا شبيخة ! .. ولكن لو وجدت الجرة فلن أمسك بغير سراب خادع .

أزرق اللون . باتك من شاردة .. وأية شاردة ! ..

وتوقفت لحظة عن الكلام ، ثم استرسل قائلاً : « لقد غيب عني

شهرًا كاملاً ونسيتي كل التسيان .. أقسم على ذلك ! » .

وكنت أعلم أن في لقاء سيدي مرة أخرى سروراً واحتياجاً ، رغم

أنه لن تنفسي فترة وجيزة حتى تنقطع صلاتي به ، ورغم إيماني بأنني

لست شيئاً مذكوراً لديه . ولكنه أوتي قوة غريبة ، كانت تبعث السعادة

حتى في الفئات الذي يتأثر من مائسته الدنسة ، وتنبّج به الطيور الصالة

الغريبة من أمثال . والواقع أن كتابته الأخيرة كانت بلساً داني على أنه

كان يعلن أعمية كبيرة على أن أذكره أولاً ، ثم ها هو ذا يشير إلى

(ثورنيلند) على أنه منزل فياليته كان كجلك !

ولم يبارح السيد مكانه عند السلم ، ولم أجدني مهلاً إلى مغادرته ،

سألتك هل كان في لندن ، فأجاب : نعم .. وأحببك استنحت هذا
بناقب فبكرك ؟

— لقد أعزيتني به مسز فيرفاكس في إحدى خطاباتنا .

— وهل أخبرتك بسر سفري ؟

— أوه ، نعم يا سيدتي ، فكل إنسان يعرف مهمتك .

— يجب أن تشاهدي العربية باجين لترى هل نوائم مسز روشستر ،

وهلا تبدو فيها كالمملكة وهي تضطلع بين الوائد الأرجوانية . كم أود

باجين أن أكون بمظهوري التلجج ندأها ، أعيريني بإساحرة ، هل في

وسعتك أن ترودينني بتعويذة أو بجهاز ترشيح ، أو أي شيء يجعلني

رجلاً جيلاً !

— إن هذا قرق أية قوة ساحرة يا سيدتي !

ثم قلت في نفسي : « إن عين الغيب هي كل السحر المشهود ، فانت

جبل فيها ، ولعبوسك في نظرها قوة حوتها قوة الجبال .. » وكانت لمسر

روشستر القدرة على أن يقرأ أحياناً ما يدور بخاطري ببراعة لا يستطيع

إفراكها ، فلم يكن في هذه المرة بالجواب الذي نطق به لساني ، بل ابتسم

ابتسامة ذات معنى لم تكن تبدو على فمها إلا قها نمر . وأخيراً أقصحت لي

الطريق قائلاً : « سيروا يا جانيت وأصعدني إلى المنزل ، وخصني قدمك

بالصبة الصغيرة الجوالدة على عتبة قصر أحد أصدقائك ! »

● ولم يكن في وسعي إلا أن أطيعه في صحت ، دون حاجة إلى مزيد من

الكلام ، فعبث السباح معززة أن أمضي في طريقي ، ولكنني سرعان

ما استدرت — أو بالأحرى أكرمتني قوة فاهرة على أن أستدير — ثم

نظرت إليه وقلت : « أشكرك يا مسر روشستر على عطفك . إني في

منتهى السعادة لعودتي إليك ، وإن داري في حيث توجد أنت .. داري

الوحيدة ! .. » ثم هزعت بسرعة ما كان ليستطيع معها أن يلحق بي لو

أنه شاء .. وبحث (أدليل) الصغيرة عندما شاهدتني ، واستفيض

مسز فيرفاكس بخفاؤها المعاصرة ، الصادقة « بينا ابتسمت (كياه) ،

وقالت لي صوف : « طابت لييلتك » وهي بأدية السرور .. كان ذلك

ممتعاً يدهو للمهجة ، إذ ليس ثمة سعادة أكبر من أن تكون محبوباً من زملائك

وأقرانك وأن تشعر بأن حضورك قد زادهم راحة وتسلية .

وفي ذلك المساء ، انخفضت عيني حتى لا أرى المستقبل . وسددت

أذني عائدة كي لا أسمع الصوت الذي لم يكن يثقل يثقلني بالفراق

القريب والأحزان القادة . فجلست بعد تناول الشاي مع مسز فيرفاكس

— وأدليل تلعب أماننا — إلى أن دخل علينا مسر روشستر دون سابق

إنذار . فلما رأنا على تلك الحال ، بدا عليه السرور ، ورحبت بدوري

أنوسل إلى الله أن لا يفرق بيننا بعد زواجه ، وأن يعيش معاً في مكان

ولقد تحت رعايته وفي حمايته ، وألا نخرم دفء وجوده معنا .

وانفضى على عودتي إلى (ثورفيلد هول) شهران كانا الآخرين

بالهدوء المريب المشوب بالغموض .. فلم نتحدث بشيء عن زواج سيد

القدار ، ولم أشهد أية استعدادات لمثل هذه المناسبة .. ولم يكن بحضري يوم

تقريباً دون أن أسأل مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد جمعت شيئاً ،

فكانت تجيبني دائماً بالنفي : « بل لقد وجهت إليه المرأة سؤالاً صريحاً

عن موعد قدوم عروسه ، فلم يجها إلا بكلمة مازحة ، وبالقبضة من
 ابتساماته الغامضة التي لا تدرك منها شيئاً على الإطلاق .. على أن شيئاً
 واحداً في مسلكه أثار دهشتي بوجه خاص .. ذلك هو القطاعه عن
 الرحلات وعدم زيارته لقصر انجرام .. صحيح أن المسافة إلى ذلك القصر
 لم تكن تقل عن عشرين ميلاً ، ولكن ما قبعتها في نظر العاشق ، وكيف
 يتم رجل الشهير يركوب الخيل .. مثل مستر دوشستر .. بمسافة كهذه ؟
 لذلك أخذت كبحي في صدرى قبال ما كان من حتى أن أنعم بها ، وخيل
 إلى أن أحد القريتين أو كليهما قد عدل عن الزواج وغير رأيه ، واعتدت
 أن أنغمس في وجهه مخدوم أحياناً ، لعلى أقول فيه ما يدل على الحزن
 أو الاكتئاب القاسي ، ولكنني لم أكن أذكر أن هذا الوجه بدا صافياً
 يوماً من السحب أو مشاعر السوء ؟ وكنت إذا قضيت وتلمذني لحظات
 معه ، أشعر بأن قوائ قد خارت ، وبأنني غرقت في بحر من الاكتئاب ،
 فينتج هو هذه الظاهرة .. ثم راح يكرر من دعوني إلى حضرنه ، ويضفي
 على من حثائه ، ولكن دوا أسفاً ، التي لم أجد من قبل كما أصبحت
 أجد إذ ذاك !

* * *

الفصل الثالث والعشرون

● انتصفت الصيف في إنجلترا مشرقاً بسياه صافية ، وشمس متألفة ،
 ظلاً بظلمان في توال قليلاً — بل نادراً — ما تحطى به بلادنا التي تطوقها
 الأمواج . فكانما وقفت من الجنوب زمرة من أيام إيطاليا ، كما يند
 سرب من الطيور الرحلة البديعة ، فيحط على قم تلال (البيون) المشرفة
 على البحار ، وكان الذين قد نقل إلى الخازن بعد الحصاد ، واذا غرت
 الحقول حول (نورفولك) ، وقد أبشت حفرة النباتات الجديدة في
 جنباتها .. وابيضت الطرفي وأوحجت الشمس بحارنها . وكانت الأشجار
 في غفائرها ، فيها الفرق واضحا بين السياج والغابة الموزقة المترددة ،
 وبين المراعي الخاوية ، التي لفحتها الشمس حتى تشققت أرضها !

وكانت أول قد أوت إلى فراشها مع غروب الشمس في إحدى
 أمسيات الصيف . بعد أن نال منها التعب ، إذ قلت نصف النهار تقطعت
 النوم .. فعبت بها حتى استغرقت في العناس ، ثم غادرتها وسعت إلى
 الحديقة .. وكانت تلك أحلى ساعات اليوم الأربع والعشرين ، إذ غابت
 نيران النار المسبوبة ، وأخذ الندى يتساقط على السهول التي كان الحر
 يخنق أنفاسها ، وعلى التجم العالية التي حرقها الشمس .. وحيث غابت
 الشمس في بساطة ، لا تشيعها مواكب المنجب ، انتشرت أوجوانية
 بدية ، تتألق يومض كوميض جوهرة حراء ، وتوهج ككاف القرن
 على قمة أحد التلال ، ثم تحدد نحو السماء وفي الفضاء ، وهي ترق وتختف ،
 حتى تكسو نصف السماء .. وكان للشرق فنة هو الآخر .. فنة بدية ،
 داكنة الزرقة ، يشيع فيها تألق جوهرة متواضعة ، ويبرز خلالها نجم

وحيد .. ولئن يلبث أن يزدهي بالقصر ، ولكن القصر كان لا يزال - في تلك الساعة - محتجياً وراء الأقبى !

وسرت برهة في المنظر المرسوف ، ثم ضمت عييراً مألوفاً .. دخان سيجار كان يتسلل من إحدى النوافذ .. ولغت نافذة المكتبة وقد فرق بين مصرعها فراغ يعرض الكف ، فخشيت أن يراق أحد من خلفها ، ومن ثم انحصرت الطريق إلى جوف البستان .. ولم تكن في الضبعة بأسرها بقعة أكثر حي وعزلة ، وأقرب إلى الجنة ، من هذه البقعة . فقد كان يفصلها عن غناء القصر - من أحد الجوانب - جدار شاهق ، ويفصلها عن المروج - من جانب آخر - طريق تحف به أشجار الزان .. وفي أقصاها ، كان ثمة سياج متخفيض - هو الفاصل الوحيد بينها وبين الحقول الموحشة .. وفيها كنت أثقل بين الزهور البانعة ، تحت ضوء القمر وقد يبرغ من ناحية الشرق ، توقفت ، لأنني رأيت أحداً أوسعت صوتاً ، ولكن لأنني ضمت عييراً تبهني .. عييراً أحلى على شذى الورود والياسمين والقرفل والزهور البرية .. ولكنه لم يكن عيبر ورد ولا عيبر زهور .. بل عرفت بعلامته أنه كان دخان سيجار مسرور وشهيق ، فوقفت ألتفت حولي ، وأرهفت السمع . فلم أر غير الأشجار الممثلة بتأوها ، ولم أسمع سوى تغريد الطيور .. لم أر جسماً يتحرك أو أسمع وقع قدمين ، ولكن رائحة الطباقي كانت تشد .. فكان لابد لي من أن أفر ! . وبادرت إلى الباب المفضي إلى الأدغال ، قرأيت مسرور وشهيق فادعاً ! . ووقفت جانباً ، أحدث نفسي بأنه لن يلبث أن يرتد عائداً من حيث أتى ، وأنه لن يراقني إذا لم أفر من مكان ، ولكن كلا .. كان

قد وجدته مثل في المياه مبعث احتياط وسرور ، ولم يكن تأثير هذه الحديقة القديمة في نفسه بأقل من تأثيرها في نفسي . فأخذ يتمشى خطرة فخطرة ، وهو يتطلع تارة إلى ثمار الأشجار ، وتارة أخرى يقطف بعض الزهور . إلى أن عثر على فراشة كبيرة فاتحني فوقها ليتأملها وهو يوليى ظهره . وإذا ذلك خطر لي أن أسبل بظنوت خفيفة لعل أستطيع الإفلات دون أن يراقني وهو متمسك في تأمل الفراشة .

وسرت على العشب خشية أن يفصحنى وقع حدثي على الأرض المرسوفة بالخصي . وكان السبد واقفاً بين أحواض الزهور ، على مسافة ياردة أو اثنتين من حيث كان يجب أن أجتاز الطريق .. ولكني لم أكّد أجتاز ظله ، حتى غامطني بصوت هادئ دون أن ينظر إلي : « تعالي يا جين فانظري إلى هذه الفراشة ! » .. وعجبت كيف أحسن لي مع أنني لم أحدث صوتاً ، فارتجفت في البداية ، ولكنني تقدمت إليه فقال : « انظري إلى جناحيها .. إنها تذكرني بعشرة كبيرة في جزر الهند الغربية .. ولما يري الإنسان بين هوام الليل فراشة كهذه في الجبلت . ها هي قد طارت .. » وحلقت الفراشة بعيداً ، فأخذت بدوري أراجع بحفلة . ولكن مسرور وشهيق تبغني إلى أن بلغنا الباب فقال : « أرجعي فلا يحسن أن يأتوى الإنسان إلى المنزل في مثل هذه الليلة الجميلة . ولا شك في أن أحداً لا يجب أن يمضي إلى فراشه في وقت تغرب فيه الشمس مع طلوع القمر ! » .

— وهل لابد لي من استئجاب السير ياسيدي ؟.. هل لابد من مغادرة (تورنيلد) ؟

— هذا ما أظنه ياسمين ، وهو من دواعي أسنى ، ولكن لا مفر منه . وكانت كلماته خيرية قاسية ، ولكني لم أسمعها تسليتي قواي أو تهدم عزيمتي ، فقلت : « حسناً ياسيدي : سأكون مستعدة متاحة ، متى صدرت الأوامر لي بالرحيل » . فقال : « بل الآن الآن ، ويجب أن أصدر الأمر بذلك .. القليلة ! » .

— إذن فقد عولت على الزواج ؟

— تماماً .. بالتضيق .. لقد أدركت الحقيقة بما جرف عنك من فطنة وذكاء .

— حالاً ياسيدي ؟

— حالاً يا .. آتة . إنك تذكرين أنني أشرت إلى وعيتي في أن أضح عتقي في أنشطة الزواج المقدسة ، وأن أدخل في زمرة المتزوجين ، وأن أضم إلى حضري مس الجرام .. ولأنها لطوق سعة التواضع ، ولكن هذا خارج عن موضوعنا ، والإلتزام لا يجد بكثرة مخلوقات في بهاء بلائسي الحساء . آه ، كنت أقول .. أصغى إلى ياسمين ! .. أحب أن أذكرك بأنك أنت التي اقترحت أولاً — بما لك من قطة أحمر مها — وبعده النظر ، والحكمة ، والتواضع .. التي تلائم مكانتك — أن ترحل أنت وأديل الصغيرة عن القصر إذا ما تزوجت من مس الجرام . وإلى الأبد في اقتراحك من تعريض يحيوي . ومن المؤكد أنني سأناساه عندما تبعدين

يا جانيت عن القصر ، ولن أذكر منه سوى ما انطوى عليه من حكمة اتخذتها قانوناً أنصرف بحرجه .. لابد من إلحاق أديل بـ مدرسة .. أما أنت يامس لي .. فلا يد لك من مركز جليل !

فقلت : « أجيل ياسيدي .. سأعلن في الصحف فوراً عن وظيفة : وفي خلال ذلك أظن .. » ، وسمت بأن أقول : « أظن أن يوسعي أن أقيم في القصر حتى أجد لنفسى مأوى آخر » . ولكني أسكت ، ولم أمض في حديثي خشية أن يخونني صروني فلا أتوى على انطق بحملة طويلة كهذه .. وعاد مسرور ومستر إلى حديثه فقال : « إنني أرجو أن أرف بعد شهر تقريباً ، وفي هذه الأثناء ، سأبحث لك عن عمل ومأوى : » .

— شكرآ ياسيدي : وبؤسفي أن أتسبأ لك ..

— كلا ، لا تعظري . قلبي أعتقد أن من تقوم مثلك بعملها خير قيام ، حقاً في أن تطيب الثوب من خدموها في أمر بسيط كهذا . والواقع أنني سمعت من حاق القادمة اليتيمى الجرام عن وظيفة أظنها تلائمك ، وهي أن تشولي تعليم خمس بنات لمسر (ديونيسيونين أوجال) سيدة قصر (بيترت) بمقاطعة (كرنوت) بأيرلندا .. وأعتقد أنك ستحبين أيرلندا إذ يقولون أن أهلها طيبون القلب .

فقلت : « إنها بعيدة ياسيدي .. » . ولكني قال : « لا بأس في ذلك ، فإن ذاق راحة العقل مثلك لا تعارض في السفر » . فقلت : « ليس السفر هو الذي يهمني ، وإنما .. المسافة .. ثم إن البحر يفضل .. » . وأسكت

فقال : « يقصّل ماذا ؟ » . قلت : « أريد أن أخبرك : وعن ثورفيلد .
وعن : « فتساءل : « وماذا ؟ » . فقلت : « وعليك أنت ياسيدي . » .

• ونظفت بابتك على الرغوى • وطهرت الدموع من عيني دون
إرادتي ، ولكنني لم أبتك بصوت يسمع ، بل تجذبت التهمة .. كانت
فكرة (مير أوجال) و (بيترنت) قد أشاعت في قلبي برودة قارسة ..
وكانت فكرة الأمواج التي تفصل بيني وبين السيد التي كنت أتمنى
الآن إلى جانب ، أشد برودة ، وعدت أقول : « إنها مسافة بعيدة
ياسيدي . »

— لاشك في بعد المكان : وفوق هذا ، مني وصلت إلى هناك فإني
لن أراك يا جين : هذه حقيقة لأريب فيها لأنني لم أزر أيرلندا ولا أميل
إلى الذهاب إليها . لقد كنت صديقتين حين يا جين ، أليس كذلك ؟

— نعم ياسيدي :

— ومنى كان الأصدقاء على وشك انقراضهم ينضون معاً ودائماً
وفهم القصير الباقي : فتعالي لتكلم نحو نصف ساعة عن الدموع وما سوف
يتلوهم من قرائن .. تعالي تستجلي حاسن هذه النكبات التي غرعت تآلفتي
في السماء .. هاهي ذي شجرة البندق .. وهاهو ذا المقعد بجانب جذعها ،
فتعالي تجلس القليلة في هدوء وسلام ، فقد لا يتاح لنا أن نجلس معاً مرة
أخرى .

ثم أجلسني على المقعد وجلس بجانبني : واستطرد بقول : « إن

المسافة إلى أيرلندا طويلة يا جين ، وإنه ليحزنني حقاً أن أبتك صديقتي
القصيرة في هذه الرحلة الشاقة ، ولكن إذا لم يكن في وسعي ما هو خير
من ذلك : فما حياتي ؟! أتعلمين أن بيني وبينك مسافة من القرابة
يا جين ؟ .. وكانت قلبي زلزالاً بالأكبر فلم أقو على الرد بكلمة واحدة :
فقال : « ذلك لأنني أشعر أحياناً بشعور غريب تحرك : لأسباب عديدة
تكون في قرينة مني بمثل ما أنت الآن .. بل تخيل لي أن تحت أقدامي اليسرى
خيطاً ربطاً رباطاً وثيقاً يخطئ بماله مشدود إلى أقدامك الصغيرة ، ولذلك
أحس أن يقطع هذا الرباط الوثيق إذا فصلت بيننا هذه المسافة الشاسعة ،
وعندئذ قد تدمر الآلام قلبي وتدمره . أما أنت فسوف تسيئين .. فبسطت :
« إن يكون هذا قط ياسيدي فإنك تعلم .. » ولم أسطع المقبي إلى أكثر
من ذلك ، فقال : « هل تسمعين يا جين هذا البلبل الذي يغرد هناك في
الغابة ؟ أصغى إليه .. » وفيما كنت أصغى ، رحبت أشج بالبكاء :
لأنني لم أعد أحتفل أكثر من ذلك .. كنت مضطرة إلى الاستسلام
لأحزان فراحت تعصف بكياتي من رأسي إلى أخصى قدمي . وأخيراً ..
عندما استطعت الكلام قلت : « لعلني لم أؤكد ولم تسمع عيناى على
ثورفيلد ! ! » فسألني : « أذلك لأملك أبقية على فراقها ؟ »

واستبدت في الانفعال الشديد : وقد أحاجه في نفسي الحزن والحسب
الذي كان بين جنبي يحاول أن يخوض سلطانه ، وينافض لكي تكون له
السيطرة والغلبة ، ولكني يعيش ، وينفخ ، ويتحكم بغيري يتكلم ،
فقلت : « يحزنني أن أغادر ثورفيلد لأنني أحب ثورفيلد .. أحبها ،
لأنني عشت فيها عيشة راسية شائعة .. في بعض الأحيان على الأقل ،

فلم يمشي أحد ولم يرعني مخلوق . ولم أدفن مع عقول وضيعة ، ولم أحرم من التمتع بكل ما يأتني ويسمو . وفيها تحدثت وجهاً لوجه مع من أحبه وأجده وأجد فيه الهجة والسرور . مع العقل الوثاب الأصيل الواسع الأفق . لقد عرفتك بامستر وروشتر ، فمن دعاني حزقي العميق وجزعي الشديد أن أجدني مضطرة إلى فراقك إلى الأبد ، بل لأنني أرى الرحيل ضرورة . وإنما تبدو محنومة كضرورة الموت : « . طالني على القور : « فمع تجمدن هذه الضرورة ؟ . قلت : « فمع ؟ . إنك أنت الذي وضعتها أمامي بأسيدي . »

فسأول : « قل لي شكل ؟ . قلت : « في صورة مس الخرام : امرأة نثيلة وبخيلة . عروسك ! »

وهتفت : « عزوبي ؟ أي عروسي ؟ أنا لا عروسي لي ، قلت : « ولكنك إن تثبت أن تحبني بعروسي . . فصرف بأستانه وقال : « سأحطى . . أجل . . سأحطى ! . . قلت : « وإذن فلا بد أن أذهب . . لقد قلت ذلك بنفسك . . فقال : « كلا ، بل يجب أن تبقى . . أقسم لك وسأمر بقسي . . قلت والافتعال يكاد يثيرني : « أقول لك يجب أن أذهب . أعتقد أن في وسعي القيام حتى لا أصبح شيئاً في نظرك . . أنفنتني آلة لا حس لها ولا شعور ؟ . . أنقصني أطيع أن يغتلف عجزى من في ، وأن تنسكب من وعائي قطرة حياتي ؟ . . أو تخالني غلظة يلا روح ولا قلب . . لأنني فتاة فقيرة ، تكرة . . نخالية من الجبال ؟ . . كلا بأسيدي : « إنك تحبني . في ذلك ، فإن لي روحاً لا يقل عن روحك وقلبي يحس كقلبك . : ولو أن الله وهبني شيئاً من الجبال ، وبعضاً من المال ، لبعثتك تشمر

لفراقك بمباركة كتلك التي أشعر بها لفراقك . . لأنني لا أتحدث إليك كما يقضي العرف والتقاليد المصطلح عليها ، ولا عن طريق الجسد الفاني ، ولكنها روحى هي التي تحاطب روحك وكأنهما اجتازتا القبر ووقفنا متساويتين عند قدمي الله . . كما هو الوضع الحقيقي ! . . فكروا مستر وروشتر قولي : « كما هو الوضع الحقيقي ! . . ثم أضاف وهو يحترق بين ذراعيه ويضربني إلى صدره ، ويدهق شفتيه على شفتي : « هكذا ! . . قلت : « أجل ، هكذا يا سيدي . . ومع ذلك ، فهو ليس كذلك . . لأنك رجل متزوج أو في حكم المتزوج ومخطوب لفتاة دونك شأناً . . فتاة لاتعطف عليك ، ولا أنفك تحبها حباً صادقاً ، لأنني سمعتك ورأيتك تسخر منها . . لأنني أحترق مثل هذه الرابطة ولذلك فأنا أفضل منك . . دعني أذهب . ! . »

— إلى أين يا جين ؟ إلى أيرلندا ؟

— نعم إلى أيرلندا ، فقد صارحتك بما في نفسي ، وفي وسعي الآن أن أذهب إلى أي مكان .

— هلقي روحك يا جين ولا تناخلي هكذا ، كطائر بري حين ذعر أ فراح يشد ريشه من بأسه !

— لست طائراً ، ولا توجد ثمة شبكة لاختصاصي ، وإنما أنا إنسانة حرة : ذات إرادة مستقلة تفرقني على أن أتركك .

• وبذلت جهوداً آخر خلصني منه . ثم وقعت أمامه منصبة القامة فقال : « إن إرادتك سوف تقرر مصورك ، وأنا أقدم لك علي وبدي وجزأ من ممتلكاتي » . فقلت : « هذه خدعة منك لا يسعني إلا أن أضرب منها ! » فقال : « بل إني أسألك أن تقضي حياتك إلى جانبي ، وأن تكوني بروحي الثانية وخير شريك في علي الأرض » . فقلت : « لقد اخترت فعلاً من يجعلها كذلك ، فعليك أن تحترم قرارك وتنتسك به ! » . فنهض قائلاً : « اهبط قليلاً يا حين ، فإنك شديدة الانفعال ! » . وهبت إذ ذاك ريح عفيفة على طريق الشجر الغار ، فهزت عصون شجرة الهندق ثم راحت تبتعد وتبتعد حتى تلاشت ، فلم يبق غير صوت البلب ، ورحلت أبكي وأنا أضحي إليه ، بينما جلس مسرر ووشتر هادئاً ينظر إلى في رفق واهتمام . وانقضت فترة قبل أن يقول : « تعالى إلى جانبي يا حين ، تعالى نصارح ليفهم كل منا الآخر ! » . فقلت : « أن آتي إلى جانبك مرة أخرى ، فقد انزع نفسي منك ولا أستطيع العودة » . قال : « ولكنني أدعوك يا حين كزوجتي ، لأنك أنت التي أعزم أن أتزوج بها » . فأخذت لأصمت فلما نفي أنه يسخر بي ، ولكنه قال : « تعالى يا حين ، تعالى هنا » . فقلت : « إن عروستك تحول بيننا » .

وإذ ذاك غادر مقعده ، وبخطوة واحدة صار بجانبني . ثم جذبني إليه قائلاً : « إن عروستي هنا في شطيتي ، هل تزوجيتني ؟ » . وكنت ما أزال في شك من قوله ، فبقيت على صمتي وأنا أحاول التخلص من قبضته :: إلى أن قال : « هل ترأتين في يا حين ؟ » . فقلت :

« كل الأرياب » . وسألني : « ألا تقفين في ؟ » . فأجبت : « ولا مثقال ذرة » . وإذا ذاك قال عجباً : « هل أنا كذاب في عينيك ؟ سوف تؤمنين بي يا ملحة ! » . أي حب أنك في قلبي لس الجرام ؟ لا شيء . كما تعلمين .. ثم أي حب تنكح هي لي في قلبها ؟ لا شيء . ولقد نجشمت عناء إثبات ذلك ، فرحت أروج إشاعة باقت مساعدتها ، وفجواها أن الثروة التي أمثلها لا تساوي ثلث قيمتها الظاهرية ، ثم زرعنا بعد ذلك لأدري مبلغ أثر هذه الإشاعة على نفسها ، فوجدت فتوراً مذهباً ومن والدنيا : أما أنت .. أنت أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة التي تلتفت إلى الأرض بصله . فأني أحبك كما لو كنت من حمي . إنك أنت .. أيتها المخلوقة المغفورة الضئيلة البسيطة .. أنت هي التي أتوسل إليها أن تغيلني زوجاً ؟ .

فصمت وقد رأيت لجة الجدل في صوته وأصمت بصداقه : « ماذا ! أنا ! أنا التي ليس لها صديق في العالم سواك ؟ » . إذا كنت صديقاً لي فاعلم أنني لا أملك من المال إلا ما أعطانيه . . . فقال : « أنت يا حين التي يجب أن أحظى بها لنفسي .. لئلا . فهل تغيلين أن تكوني لي ؟ فولي نعم . بسرعة » . فقلت : « دعني أطلع إلى وجهك يا مسرر ووشتر ، نحول نحو ضوء القمر » . فسامعت : « ماذا ؟ » . فقلت : « لا أنفي أريد أن أقرأ أسرارك .. اسبلر ! » . وتامتدار نحو الضوء قائلاً : « إليك .. وان تجدي على وجهي سوى صورة ليست أوضح من صفحة مفضية مشوشة . مكتوبة بخط لا يقرأ .. هيا اقرئي ولكن أصرعي لأنني أنال ! » .

ورأيت على وجهه المتضرج بحمرة الخجل آيات الاضطراب

والانفعال ، وشاهدت في عينيه بريقاً عجيباً . وسرعان ما صاح :
« إنك تؤلمني يا جين ! .. إنك تعذبيني بهذه النظرة المتحفظة رغم
إخلاصها وكرمها » .. فقلت : « كيف أقوى على أن تؤلمك ؟ .. إذا
كنت صادقاً وجاداً في طلبك ، فإن شعوري الوحيد نحوك هو الامتنان
والوله .. وليس في ذلك تعذيب لك أو إيذاء ! .. فصاح نائراً :
« الامتنان ! .. ناديني باسمي ! .. فسأله : « أجاد أنت ؟ .. أجنبي
حقاً ؟ .. هل بك رغبة صادقة في أن أكون زوجك ؟ .. »

ككل الرغبة .. وإذا كانت هناك عين تتعكك أنفسها !

— إذن سأزوجك ياسيدي .

— ناديني باسمي « إدوارد » يا زوجتي الصغيرة .

فصمت : « يا عزيزي إدوارد ! .. وإذا ذاك قال : « إذن تعالى
إليّ .. تعالى كلك إليّ ! .. » ثم ضمني إلى صدره وهمس في أذني وقد
ألصق خده بخدي : « أسمعيني ، وسأوفر لك سعادتك .. وما ليث
أن تهتف بعد فترة وجيزة : « عفوكم يا لامي ! .. امض يا ربي من يتطفل
علينا ، فقد ظفرت بها ، وسوف أتثبت بها ! .. »

— ليس هناك من يتطفل علينا ، فليس لي أقارب يتدخلون في
شؤوننا .

— كلا .. وهذا خير مما هناك .

ولو كان حبي له أضال عما كان يملأ قلبي ، لرأيت في شخصه ومظهره
طوباً وحشياً غريباً ، ولكنني كنت أجلس بجانبه ، وقد انجذب عني

كأبوس الفراق ، ودعيت إلى جنة الارتباط به ، فلم أجد أفكر في غير
كأس السعادة التي كنت أشربها مترعة : وراح يسألني مراراً : « هل
أنت سعيدة يا جين ؟ .. فكنت أجيبه المرة بعد الأخرى : « نعم » ..
فيصغف بعدها قائلاً : « هذه هي التوبة .. لسوف تكون كفارة اجب
ألم أجدها بقيمة ، عذبة الصديق : عرومة من الراحة ؟ .. ثم ، أن
أرحاها ، وأحبها ، وأواسها .. ألا يملأ الحب قلبي ، والعزم الراسخ
قرواي ؟ .. إنها تكفير عن خطايي . وسوف يتقبلها الله كفارة ، فإني
أعلم عن يقين أن خالقي يتقبل أعمال . أما حكم الدنيا على عمل ، فإني
أنفص يدي منه .. وأما رأي الإنسان ، فإني أجداه ! .. »

● ولكن ما الذي أصاب الليل ؟ .. لم يكن القمر قد اختفى بعد وراء
الأفق ، ومع ذلك فقد شملنا ظلام ، حتى كدت لا أتميز وجه سيدي
برغم قربه مني .. وما الذي ألم بشجرة البندق ؟ .. لقد راحت تتلوى
وتنأوه ، بينما أخذت الرياح تزار في الطريق التي تحف بها الأشجار ،
ثم تهب علينا مجتاحة .. وقال مستر روشستر : « يجب أن ندخل فقد
القلب العفوس .. أولاً ذلك جليست معك حتى الصباح يا جين ! .. »
فقلت في نفسي : « وأنا أيضاً ! .. »

ولعله كان يحسن أن أجيبه بهذا القول ، ولكن السماء مرهان
ما أبرقت ، وأرعدت ، وأمطرت ، حتى اضطرت إلى إخفاء عيني
الزائغتين في كتف مستر روشستر .. وتدفقت الأمطار ، فدفعتني مستر
روشستر إلى الممر ، ثم خلال الحديقة ، إلى المنزل ، وقيل أن يبلغ

عنته ، كانت ملايسيا قد ابتلت تماماً . ولما كان يتخرج شالي في اليوم ،
ويغض المياه عن شعري ، أطأت مسريراً فأكس من باب حجرتها ،
فلم أرها في البداية ولم يرها مسريراً وشعر كذلك . وكان الصباح مضاء
والساعة تدق الثانية عشرة فقال : « أسرعي إلى خلع ملايسك المبللة ،
وقبل أن تقعي .. طابت ليلتك .. طابت ليلتك يا حبيبي ! » .
ثم قبلي مورا . ولما استطعت أن أقفلت من خراجه وأرفع عيني ،
شاهدت المرأة الأرملة واقفة وعلى وجهها آيات الشجوب والتجهم
والدهش ، فلم أفعل سوى أن ابتسمت لها . وبعثت أرتي اللوح وأنا
أقول في نفسي : « أستطيع أن أوضح هذا الأمر في وقت آخر ! » .
ومع أنني لم أكذب أبلغ حجرتي حتى شعرت بالألم لفكرة التي ستضربها
ماراته ، ولكن مرعان ما انحى كل شعور آخر أمام سعادتي الزاهية .
وكانت الرياح تهب بقوة ، والردة يقصف قريباً ، عميقاً مدوياً ، والبرق
يومض في جلبة وبلا انقطاع ، والأمطار تهطل حاصرة كالنشلل أثناء
العاصفة التي دامت ساعتين . ومع ذلك ، لم يساورني أنه خوف أو فرح
لأن مسريراً وشعر اقترب من بابي ثلاث مرات أثناء ذلك ليسألني هل
أنا في أمان وسلام وهدوء ، بل : فكان في ذلك عزاء وقوة أواجه بها
كل شيء !
وقبل أن أقادر غراشي في الصباح التالي ، قدمت أقبل الصغيرة
مهرة لتخبرني بأن صاعقة القصص خلال الليل على شجرة البندق
الكبيرة ، في نهاية البستان ، فأطاحت بنصفها !

الفصل الرابع والعشرون

● عندما نهضت من فراشي وارتعابت ملايسي ، رحت أقلب الفكر
في واقع وأسائل : أمان خلداً من الأحلام ؟ ولم أستثن من أنه حقيقة
حتى قابلت مسريراً وشعر ثانية وجعته يجود لي حبه وعهوده .
ولما كنت أنسى بشعري ، تطلعت إلى وجهي في المرأة فشعرت
بأنه لم يعد خالفاً من الياء . إذ رأيت الأمل على عيانه ، والحياة على
صفحته ، وخيل لي أن صبي قد أتانا نبع السعادة واستعدنا من أوجه
الرقيقة المشرقة ومبضها المؤنق . ولقد طامنا خضت أن أتطاع إلى عيني
سيدة خشية ألا تروقه نظرتي ، أما الآن فلم يعد يساورني شك في أنني
أستطيع أن أرفع وجهي إليه دون أن يفتر حبه بما يراه على أساطيره :
ثم ارتعابت أوباً بسيطاً ، ولكنه خفيف وفتح اللون . ويبدو أنه كان
أنسب ثوب لجسمي ، لأنني لم ألبس غيره بهذه الفرصة وهذا الانبهاج . ولم
أدهش .. عندما حريت هابطاً إلى اليوم .. من أن أرى أن صباحاً مشرقاً ،
قد أعقب عواصف الليل ، ومن أن أحس - خلال الباب الزجاجي
المفتوح - بنسيم متعش يحمل غير الزهور ، إذ أفتشت من أن الطبيعة
تساخرني سعادتي .. ولدت امرأة مسؤولة تقبل في الطريق مع طفل
صغير ، وقد لاحا شاحبين ، هزبان - مهلهل الباب - فهرعت إليهما ،
ومتحهما كل ما وجدت في كبسي ، وكان حوالي ثلاثة أو أربعة
شلات .. وسواء في هذا المبلغ أو أكثر ، فإنه كان كل ما معي . وقد
أعجبت أن يشاركني فرحتي ! وكانت الطيور تشفق : واليايل تغرد

مبتجعة ، ولكن شيئا لم يكن يبادل قلبى فى طربه وموسيقاه .. على اننى لم ألبث أن فوجئت بعصر فيرفاكس تطل من النافذة بأساور واجبة ، وقالت تخاطبني بلهجة جدادة : يا آتمة جين .. هل تفضلين باقى .. لتناول الإفطار ؟ .. وظلت أثناء الطعام صامتة ، قاترة ، فلم أشأ أن أبدا ما بها .. وقلت - لنفسى - يجب أن أنتظر حتى يسطر لها سيدي الأمر ، ويجب أن تنتظر بشورها .. وتناولت ما استطعت من طعام ، ثم أسرعت إلى الطابق العلوى حيث التقيت بأبيل عازجة من غرفة الدراسة فسألته : « إلى أين أنت ذاهبة ؟ » كان وقت الدرس ..

- أمرنى مسرر ووشتر بالذهاب إلى غرفة الأطفال .

تساءلت : « وأين هو ؟ » فأشارت إلى الخجرة التي خرجت منها وقالت : « هناك » .. ودخلت الخجرة فوجدته واقفا ، ويادرنى قائلا : « تعالى حبيبى تحية الصباح ؟ » : فضمت مغطيته .. ولم يكن ما تلقينه مجرد كلمة باردة ، أو مصافحة باليد ، وإنما كان عنقا وقبلة .. ولاح لي أن من الطيبى ، وأن من المبهج أن أحظى بحبه وعناقه . وقال : « إنك يا جين تدين في هذا الصباح متألفة ، باسمة ، جميلة .. إنك جميلة جدا في هذا الصباح .. أفضله شيطاني الشاحبة القابضة ؟ .. أتحفأ تحوكت إلى هذا الوجه المشرق .. والحدود اللذين متوسطهما غارزان ، والشفتين الورديتين .. والشعر النكتشائى الأملس ، والعينين العسلتين المائلتين ؟ » .. ولقد كانت عيناى خضراوين ، ولكن ، ليتجاوز الفارق عن هذا الخطأ ، فقد لاحنا في نظره مصطنعتين بلون جديد !

- إنها جين لير ياسيدى ..

- مستصيح عما قريب (جين ووشتر) .. بعد أربعة أسابيع يا جانيت .. لا أكثر ! هل تسمعين ؟

أجل ، سمعت قوله وإن لم أفقه معناه ، إذ شعرت برأسى يادور .. فإن الشعور الذى بعته هذا القول فى نفسى كان أقوى من الفرح والاعتباط .. كان شعورا أتعانى وكان يرسل الخوف إلى قلبى - فسألنى مسرر ووشتر : « لقد تضرع وجهك ثم امتنع ، فلماذا يا جين ؟ »

- لأنك أظلفت على اسم جديد له وقع عجب في أذنى ..

- نعم يا مسرر ووشتر .. الصغيرة ! ، عروس إداره ووشتر ..

- لكن يكون هذا ياسيدى ولا يحتمل ، لأن البشر لا يعمدون بالسعادة للكلمة المطلقة في هذا العالم .. وأنا لم أوند ليكون حظي مخالفا لحفظ بنات جلدلى .. إن مجرد تصور أنى سأصيب كل هذا الحظ ، يبدو لي أشبه بمراقبة أو حلم يرادنى أن يقضى ..

- ولكن فى وسمى أن أحفظه وسأحققه .. وقد قطعت اليوم الخطوة الأولى ، فكيف لي وكيل أعمالى فى لندن كي يبعث لى بعض لائق يحفظ بها .. إنها ميراث ثدولته سيدات (ثورفيلد) ، وأمل أن أتى به فى حجرى ، لألقى سأوليك كل اهتمام كنت خليقا بأن أوليه أية فتاة كان يجعل أن أزوجها من بنات النبلاء ..

- أوه ياسيدى .. ذلك من اللائى .. لا أريد أن سمع عنها شيئا ،

لأن الآلة جـ جـ جـ شيء له في السمع وقع غريب غريب عيني ، ولذلك قلت أربدها !

— سوف أضع يدي عند الماس حول جـ جـ جـ ، والأساور حول هذين المعصمين ، وأزين هذه الأصابع الصغيرة بالخواتم !

— كلاً .. كلاً .. ياسيدي .. فكر في موضوع آخر وتكلم في أمور غير هذه الأمور ، ولا تخاطبني كما لو كنت حسنة .. لا نفس أنني مربية بسيطة في خدمتك !

— إنك حسنة في عيني .. حسنة بمتاعها قلبي ، رفيقة كالنسيم !

— نافعة لا وزن لها .. هذا ما نعتبه ! أأنت تعلم ياسيدي ، أو أنك تسخر مني ؟ .. بالله لا تمنع في تهكلك !

● ولكنه استمرسل دون أن يفعل يقول : « ساحل العالم على أن يعترف بجألك أيضاً .. سأكونك بالذات والحرير ، وستزينين شعرك بالورود والزهود ، وسأعطى الرأس الذي أحبه يوشاح أميرة من الأميرات » .. وشعرت بأنه بعد أن يفرضي أو بنفسه قفلت : « إنك لن تعرفني إذا ذلك .. لن أكون جـ جـ جـ ، بل سأصبح قردة ترندي ثوب مهرج » .. إنني لا أدعي أنك جميل وإن كنت أحبك حباً طامعاً بمنعني من تحملك ، فلا تتلفني ! .. ولكنه لم يفعل يفرضي .. بل استطرد قائلاً : « سأرافقك اليوم في العربة إلى (مياكوت) لكي تختاري بعض ثياب لك ، فقد سبق أن أخبرتك بأننا سوف نتزوج بعد أربعة أسابيع ، وسأمن زواجنا .. في

للكنيسة القريبة من هنا .. في مدموم ، ثم نسافر فوراً إلى لندن .. وبعدها بفترة وجيزة ، سأهلك يادري إلى مناطق أقرب إلى الشمس .. إلى كروم فرنسا ، وسبول إيطاليا ، وسترن عندك كل مادام ذكره في التاريخ القديم ، وكل ما عرف في العصر الحديث ، وسوف نلذوق كذلك طعم الحياة في المدن ، وسنعرف جـ جـ جـ كيف تقدر قيمتها بمجرد مقارنة نفسها بالأخريات !

— هل سأسافر ؟ .. ومعك أنت ياسيدي ؟

— ستضين فترات في باريس وروما ونابلي وفلورنسا والبندقية وفيينا .. كل أرض جنبها أنا ، ستضين أنت بقدميك .. أيتها حبات سذحيين بملأكي .. لقد قررت أن أذهب منذ عشر سنوات ، ورحلت أنت في أرجائها كالفنون ، دون ما رفيق سوى ما كنت أحله في قلبي من النعمة والكراهية والخلق ، وسأعود الآن لزيارتها بقلب شقي وتظهر ، ومعنى (ملك) حقيق برقه عني !

فضحكت منه وقلت : « لست من الملائكة ، ولن أكون حتى أموت .. لا توقع ولا تطلب مني شيئاً سخاوياً لأنك لن تحصل عليه ، كما أنني لن أحصل عليه منك لو نددته منك ! .. ولذلك فاستثوق منك أن تكون ملاكاً ! .. فقال : « وماذا توقعين مني ؟ » .. قلت : « ربما ظننت كما أنت الآن لفترة قصيرة ، ثم لن تلبث أن يتولاك القنور وتغدو مظلماً ، ثم صلياً ، وعندئذ سأحاول ما استطعت أن أروضيك .. ومتى ألتفتني جيداً فربما عادت تميل إلى مرة أخرى .. أقول » تميل إلى ، ولا أقول

تخفى ، لأن حبك سوف يتغير بعد سنة أشهر أو أقل . فقد قرأت في الكتب التي ألّفها الرجال أن هذه الفترة هي أقصى مدة يبنى فيها الزوج على حبه .. ومع ذلك فإني أوجو - باعتباري صديقة سيدي ورفيقته - ألا تسأني وتعلمي إلى هذا الحد ؟

- أسأف !.. أميل إليك أنية !.. لسوف أجعلك تعرفين بأنني لا أميل إليك ، وإنما أحبك حباً صادقاً عارماً .

- ومع ذلك ، أفلست متقلب الأهواء ياسيدي ؟

- مع النساء اللاتي رزقتهن بوجوههن وجلطن الظاهري فقط :-
إني أصبح شيطاناً عندما أكتشف أنني بلا أرواح أو قلوب ، وعندما يظهرن لي السخف والتفاهة وربما الغياف والفظافة وسوء الطبع ، ولكنني محب حنون ، صادق ، للعين الناصفة واللسان القصب والروح المتأججة والطبع الذي يلين ولكنه لا ينكسر .. فهو نارة مرن مطواع ، وتارة صلب يابس !

- هل صادقت مثل هذا الطبع ياسيدي ؟.. هل أحببت في حياتك واحدة من هذا الصنف ؟

فهمت : ه إني أحبها الآن .. قلت : وأغنى قبل ، إذا كنت أنا قد بلغت حقاً ذلك المستوى الشاق الذي تشده .. فقال : ه لم أصادف مثيلاً لك من قبل يا حبيبي . إنك تبغين القبة في نفسي وتسيطرين عليّ . إنك تظهرين بمظهر الخضوع والامتثال ، فأحب فيك هذا التين : وعندما أذهب جبالل شعرك الناعم بأصابعي تسرى النشوة إلى قلبي .

لقد غلبت عليّ أمري وقهرت ، ومع ذلك فإني أشعرك اندحاري بخلاوة يعجز لساني عن الإفصاح عنها ، وألمس في قهري لذة دونها أعظم ظفر وانتصار ، لماذا تنسجين يا حبيبي ؟ .. ما معنى هذه الصورة المبهمة الساخنة التي أراها على وجهك وهنتك ؟

- كنت أفكر (واعتزلي الفكرة لأنتي لم أتعدها) في هرقل وششون وساحرتيما .

- أهلكذا أيتها الشيطانة الصغيرة ؟

- حبه ياسيدي فإنك لانتحدث الآن بحكمة تفوق ما أبداه كل من هذين الرجلين في أعمالهما . ومع ذلك فلو أنهما كانا متزوجين لحرصا بقسوتهما كزوجين ، ما أبدياه من رفق وحنان كعاشقين ، وهو ما أفتني أن تفعله .. وإني لأتساءل لماذا تجيئين إذا جئتك بعد عام وسألتك أن تسدي إليّ معروفاً ليس من مصلحتك أن تسدي ؟

قال : وسلي الآن ما شئت يا حبيبي ! ، قلت : سأفعل ياسيدي ، فالواقع أنني أعددت لمنعمي .

- تخلفي !.. أما إذا وقعت عينك وقبست بهذه الأساور ، فسوف أقسم أن أجيبك قبل أن أعرف سؤالك .. وفي هذا ما يجعلني أعني !

- عفواً ياسيدي .. إنما أطلب إليك ألا ترسل إليّ عليك في طلب اللآلئ ، ولا تتوج رأسي بالورود والزهور ، وإلا وجب أيضاً أن تضع شريطاً من الدانتلا الذهبية على طرف منديلك هذا البسيط !

— وفي وصي كذلك أن أظن الذهب الذي بطيقة أخرى من الذهب إذا طلبت ١.. إن طلبك مجاب إذ أن في الوقت الراهن .. وسأرسل إلى وكيل أحب أو أكره الأولى .. ولكنك لم تطلب شيئاً حتى الآن .. بعد أن توملت إلى أن أحب الهدية التي أردت تقديمها إليك .. هيا جري ثانية ! — إذا تكرم علي يا سيدي بنقمة أخرى .. أريد الوقوف على أمر يريح بالي .

فبدي على وجهه الفلق ثم قال من فوره : « ماذا ؟ ماذا ؟ إن هذا القياس خطير ، وكان يجدر ألا أقطع على نفسي عهداً بأن أحب كل ما تطلبين .. فقلت : « ليس في إجابة طلب أي خطر يا سيدي » .

— إذاً قولي ماذا تريدين ٢.. إنني أؤثر أن تطلبي نصف مقاطع على أن تسأليني عن سر من الأسرار .

— ماذا أعمل بنصف ما تمتلك ٣.. إنني أؤثر الظفر بفتك . نرى على تقصيني عن فتك إذا فتحت لي مغاليت قليل ٤

— أهلا بك موضعاً للفتي الثامنة فيما يستحق يا جين ، ولكن لا تطلبي لنفسك بالله عيناً قليلاً ، ولا تلهي على السمع ، ولا تحوئي على يدي إلى مجرد امرأة .. خواء !

— لم لا يا سيدي ٥.. لقد أخبرني لتوك بأنك تحب كثيراً أن تفهر وتجذ لذة في الإلهام والإغراء ، فهلا ترى جديراً أن أقيد من هذا الاعتراض ، فأشرع في الترفق والتضرع ، بل وفي البكاء والغضب عند اللزوم لتوطيد سلطاني ٦

— إنني أشفق عليك من مثل هذه التجربة .. جاوزي حدك .. استرسل وسوف تتألمين بفتك !

— أحملاً يا سيدي ٧.. أنتسلم على الفور .. ما أشد عيوسك الآن ١.. لقد أصبح حاجبك في كشفة لاصبي ، وغداً جيئك — على حد قول الشعراء — كحاضفة مبلقة ٢.. وهكذا سيكون مظهرك بعد الزواج .. أليس كذلك يا سيدي ٣

— إذا كان هذا سيغدو مظهرك أنت الأخرى بعد الزواج ! ولكن ماذا تريد أن تسأليني .. هيا أقصيني أيها المخلوقة !

— إنك تنقص الآن من طرفك ولطفك ، ولكنني أؤثر الخشونة كثيراً على اللين .. ولذلك أفضل أن أكون « مجرد مخلوقة » ، على أن أكون « ملائكة » ! أما سؤال فهو : لماذا كيدت نفسك المعانة لتحصلني على الاعتراف بأنك تريد الزواج من مس الجرام ٤

فنهض : « أهدأ كل شيء » .. أحمداً الله على أنه لم يكن أسوأ من ذلك ! .. والبهجة أساوره ثم نظر إلى « باسما » وأخذ يبدع شعره : « كأنما سره أن يفت من خطر كان يشده » . ثم استرسل يقول : « أظن من واجبي أن أعترف لك ، وإن كان في اعترافي ما قد يثير غضبك بعض الشيء يا جين ، بعد أن تبيات أية روح مقددة تسلكك عندما تغضبين .. فقد القدت غضباً في نسوة القمر في الليلة الماضية ، عندما تمردت على القدر ووللبيت بأن تكوئي نداءً في مركزى . وعلى ذكر هذا أقول إنك أنت التي تقدمت بهذا العرض يا جانيث » .. فقلت : « هو ذلك فعلاً ،

ولكن لا تخرج عن الموضوع ياسيدى : أرجوك . ماذا لديك عن مس
الجرام ؟ .. وإذا ذلك قال : حسن . لقد تظاهرت بمغازلة مس الجرام
رغبة مني في أن أجعلك تخبين بحبي ، كما أنا مجنون بحبك . وكنت أعلم
أن الغيرة خير حليف أستطيع العجوة إليه حتى أصل إلى ما أهدف إليه .

— منهش . .. إنك الآن تضامل حتى لا تعدو علامة ظفري !
والحق أن نصر فك كان يدعو للخرى والنضيجة .. ألم تفكر في شعور
مس الجرام يا سيدى ؟

— كان شعورها مركزاً في شيء واحد ، هو الكبرياء .. وهو
ما يجب إذلاله . هل أحسبت بالغيرة يا جين ؟

— دعنا من هذا باستر وشستر ، فإنه لا يعينك في شيء . وأجبنى
الآن في صدق وأمانة للمرة الثانية : ألا تعتقد أن مس الجرام لن تتألم
لنفصلك عنها ولتترك غير الصادق ؟ ألا تشعر المسكين بأنها مهجورة
متبردة ؟

— مستحيل ! لقد أخبرتك بأنها هي التي هجرتني وابتدتني - في
لحظة واحدة - بعد أن أخذت نازها فكرة إعساوى وإغلاسى !

— إن لك يا مستر وشستر عقلية غريبة .. وأخشى أن تكون مبادئك
في بعض الأمور شاذة كل الشذوذ .

— إن مبادئك لم تهذب ولم تطبق بعد يا جين ، ولعلها تنحرف في
بعض الأحيان نتيجة افتقارها إلى الرعاية والمناية .

— أخيراً مرة أخرى نجد وصدق : هل في وسعي أن أنعم بالخير
العظيم الذي أغدقته عليّ . دون أن أخشى أن يقاسى غيري الألم المرير
الذي قاسيته منذ قليل .

— اطمئني أيتها الفتاة الصغيرة الطيبة ، فليس في العالم إنسان آخر
يعمل لي في قلبه حباً نقياً مثل حبك .. إنني أبسط على روحي ذلك
البهائم الناعم ، وأعني به الإيمان بحبك !

فحاولت شقني إلى اليد التي وضعها على كتفي وقبلتها بدافع من حب
كنت أعجز عن تصديقه ، وتمعجرت الكلمات عن وصفه . وما لبث أن
قال : « أسأل المريد ، فإنه يلد أن أتقبل السؤال فأطيع » .. فتأهبت
مرة أخرى لسؤاله . وقلت : « أرجو أن تبلغ مس قيرفا كس ما استقر
عليه وأبلك ياسيدى ، فقد رأيتي بالأمس في اليوم معك ، فهاها ما رأته ! ..
فسر لها موقفنا قبل أن أراها ثانية ، لأنه يلحقني أن تظن بي الظنون سيئة
صالحة مثلها ! » .

— اذهبي إلى غرفتك وضعي فيحك على رأسك : لأنني أريد
أن أوافقك إلى (ميلكوت) في هذا الصباح . وسأتهز فرصة استعدادك
للخروج ، فأذهب لقائلتها وأشرح لها الأمر . أثرينها يا جانتيت تعتقد أنك
بعث الدنيا من أجل الحب ؟

— بل أعتقد أنها حسبتني قد نسيت مركزي ومركزك ياسيدى .
— مركزك ! مركزك ! .. إن مركزك في قلبي وعلى أعناق من
يهيئونك الآن أو فيما بعد .. هيا !

وسرعان ما انزلت ملايكي . وعندما سمعت مسرور وشستر يقارن
حجرة مسر فير فاكس ، هيطلت إليها مسرعة ، فإذا السيدة العجوز تقرأ
درسها اليوم في كتاب الصلاة ، لأن التوراة كان مفتوحة أمامها ،
وعليه نظارتها . وكانت قد توقفت عن قراءتها بعد زيارة مسرور وشستر ،
وأتحدثت لعملي شاردة الحب في الجدار المقابل ، وقد بدت عليها الدهشة
التي أثارها الأبناء غير المتوقعة . فها أنا في : أقافت من تأملاتها ، وحاولت
أن تيسم ، ثم غصمت ببعض كلمات هائلي بها : ولكن الأقامة ما ليك
أن غاضبت ، وجفت الكلمات ، ثم وضعت نظارتها على عينيها وطوت
الكتاب . ودفعت مقعدها إلى الخلف بعيداً عن المضلة وخاديتني
قائلة : « لاني أشعر بالدهشة ، ولا أكاد أدري ما ينبغي أن أقوله لك
يامس ليو .. لا شك في أنني كنت أحلم . أليس كذلك ؟ .. لقد تأخذني
أحياناً سنة من النوم ، فأفكر أشياء لم تحدث علي الإطلاق ، ولم خيل
لني في غفواتي أن زوجي العزيز - الذي قضى منذ خمسة عشر عاماً -
قد جاء وجلس بجانبني ، وأخذ يناديني باسمي (آليس) ، كما اعتاد أن
يفعل ، فهل في وسعك الآن أن تؤكدني في أن مسرور وشستر طلب
الزواج منك ؟ .. لا تفضحكي مني . لأنني وافقة من أنه جاد في فعله منذ
خمس دقائق وأتخبرني أنك سوف تصيحين زوجته بعد شهر واحد ! ..
فأجيبها : « لقد قال في نفس الشيء » .. فنهبت : « حقاً ؟ .. وهل
تصدقينه ؟ .. وهل قبلت ؟ .. وإذا قلت : « نعم » .. نظرت إلي في
عجب وحيرة ، وقالت : « لم يخطر لي ذلك ببال ، لأنه رجل متكبر
ككل آل روشستر . ولأن أباه على الأقل كان عياً للمال .. ثم إنه يوصف

دائماً بالدقة والحذر ، فهل يقصد فعلاً أن يتزوجك ! ..

.. هذا ما يقوله .

وراحت تتألمني ، فشرأت في عينيها أنها لا تبد في فتنة تكفي لتبرير
هذا اللغز .. ثم استرسلت تقول : « هذا ما لا أتصوره ! ولكن لاشك
في صحة الخير لأنك تؤيدينه .. أما كيف يكون هذا ، فليست أخرى »
ولا أستطيع أن أجزم ، لأن من الأمور التي يحبها الناس في مثل هذه
الأحوال : المساواة في المركز والثراء .. ثم إن هناك عشرين عاماً بينك
وبينه ، فهو أجدر بأن يكون لك بمثابة الأب ! .. فصصت مسنعة :
« كلا يامسر فير فاكس .. إنه لا يكبرني إلى الدرجة التي تجعله بمثابة
الأب ، ولا يخطر هذا برأس من يرانا معاً ، بل إنه يبدو كشباب في
الخامسة والعشرين » .

فألتفتي : « أوه الحب الذي جعله يقدم على الزواج منك حقاً ؟ ..
وتأملت لبرودها وشكوكها ، فأغرورقت عينيها بالدموع ..
واسترسلت الأرملة تقول : « يؤسفني أن أكدر خاطرك ، ولكنك
صغيرة قليلة الخبرة بالرجال ، فأردت أن أحذرك ، لأن المثل القديم
يقول : (ما كل لأمع يذهب) . وأخشى في هذه الحالة أن يوجد شيء »
يخلف عمة توقعينه وأتوقعه .. فصصت مثالة : « ولماذا ؟ .. هل أنا
غريبة الخلق ؟ هل يستحيل أن يشعر بحوى مسرور وشستر يحب
خالص ؟ .. فقلت : « لا .. أنت على غير حال - بل إنك تحسنت
كثيراً في المدة الأخيرة . واعتقد أن مسرور وشستر مغرم بك ، إذ ظلنا
لحظت أنه بذلك ، وقد مرت في أوقات ساوولي فيها التلني بسبب

إثارة إياك ، وأحببت أن أحذرك ، ولكني لم أشأ أن أفترض احتمال وقوع أي شيء . كما كنت أعلم أن مثل هذه الفكرة قد تغضبك . ونظراً لما أعهدك فيك من التيسر بالأفكار ، وشدة الحياء والحساسية ، فقد سألوني الأمل في أنك ستعرفين كيف تصونين نفسك : لأنني لا أستطيع أن أصف لك ما فاسيته ليلة أمس من الآلام عندما بحثت في جميع أرجاء القصر فلم أجدهك ولم أجد السيد . وأخيراً أريدك قادمة معي في منتصف الليل ١٠

ففاطمتها بصبر نافذ : لا تأتي هذا الآن .. يكفيك أن تعلمي أن كل شيء سار في طريق سليمة . فقلت : وأعلم أن ينتهي أيضاً نهاية سليمة . ولكن .. تأكدتي أنك لا تستطيعين أن تكوني مفرطة في الخلق والانتباه . حاولي أن تقضي عتك مسرر روشستر ولا تلتقي بنفسك ولا به ، لأن السادة الذين في مثل مركزه لا يتزوجون عادة من مريضات أطفاهم . والحق أنني ازددت خطياً وانفعالا . ولكن (أديل) أقبلت إذ ذاك - لحسن الحظ - وهي تصيح : دعيني أذهب .. دعيني أذهب أنا كذلك إلى (ميلكوت) . إن مسرر روشستر لا يريدني مع أن بالعربية الجديدة فراغاً فسيحاً .. نوسلي إليه أن يدعني أذهب يا آنسة ١٠ فقلت مطلقة : سأفعل يا أديل . ثم أسرع معي وقد انتهجت للتخصي من ذلك الوحش الكتيب . وكانت العربية قد أعدت ، واقتيدت لتضع أمام المدخل ، بينما كان السيد يدرع الأفريز ومن خلفه كلبه بابلوت يسير معه هنا وهناك ، فقلت أسأله : تستطيع أديل أن ترافقتنا .. أليس

كذلك يا سيدي ؟ : صباح : قلت لها : كلا .. أنت أريد ترفارات ، وإنما أريدك أنت فقط .

- دجها تذهب معنا بامسرر روشستر ، أرجوك .. بخس ذلك . - كلا .. سوف تضطرننا إلى أن نلزم الحذر والتحفظ .

* وكان غاية في الخزم سواء في نظره أو لهجته . واستبدت في تحذيرات مسرر فيرفاكس وشكوكها ، فغضرت بشيء من القلق يغالب آمالي : وأحسنت يائتي فقلت نصف نفوذى عليه ، وأنتي أكاد أخضع برغسي لإرادته .. ولكنه نظر إلى وجهي عندما ساعدني على ركوب العربية وسألني : ما الذي جرى ؟ . فقد تبعد منك إشراقك ، فهل حقاً تريدني هذه الثائرة معنا ؟ : فقلت : أؤثر أن تأتي معنا يا سيدي . : فصاح بخاطب أديل : إذن أسرعى وهاتي قبعتك بسرعة البرق ١٠ : فأتانته بأقصى سرعتها .. بينما قال بمدني : لا يأس من أن نجد من يعكر علينا صفونا في هذا الصباح ، ما دعت ساحطى بك عن قريب : بك وبأفكارك وأحاديثك ورققتك .. طيلة العمر ١٠

ولما عادت أديل واستغلت العربية ، جعلت تقبلي اعترافاً بجميل . ولكن مسرر روشستر أجلسها بجانبه من الناحية الأخرى ، فلم تجرؤ على الكلام أو مطالبته بشيء .. بيد أنها أخذت تسترق النظر إلى حيث جلست ، وهي متبرمة بخارها المتجم ، فقلت أضرع إليه : دعها تأتي إلى حتى لا تزعجك ياسيدي ، وهنا في هذه الناحية مقع : فرفعها وناولني إياها كأنها جرو صغير ثم قال وهو يتشم : هل الحقها بدمرسة ؟ : وسمعت أديل ، فسألت : أتذهب بدون الآنسة . وكان جوابه : نعم بدون الآنسة

لأنني سأخذها إلى القمر حيث أبحث عن كهف في واد من الأودية البيضاء بين قمم البراكين : وهناك ستعيش الآنة معي وحدي .

فاعترضت الصغيرة قائلة : « إنك لن تجد ما تأكله وسوف تقتلها جوعاً .. فقال : « بل سأجوع لها المني في الصباح والمساء ، لأن السهول وسفوح التلال في القمر زاهرة بالمني يا أدبل » .

— إنها محتاج إلى أن تدفئ نفسها : فمن أين تأتي لها بالنار ؟

— تخرج النار من جبال القمر ، فإذا شعرت بالبرد حملتها إلى قمة عالية ، ووضعتها على خافة فوقه .

— سنسوء حالها لقلة الراحة ، وسوف تلب ملابسها ، فمن أين تأتي

بغيرها ؟

وتجملت على منستر زوشستر الحيرة فسلم وقال : « ماذا كنت تصنعين أنت يا أدبل ؟ فكرى جيداً .. هل تنزع صباية بيضاء أو فرفلية لعمل جليبيب ؟ .. وهل يمكن صنع وشاح جبل من قوس قزح ؟ .. فأجابته بعد تفكير : « إنها أحسن حالاً كثيراً .. في وضعها الرامن ، وفوق ذلك فلنأني لن نلبث أن نمل الحياة معك وحدك في القمر . ولو كنت في مكانها لما رضيت بالذهاب معك ! .. قال : « ولكنها رضية وقد عاهدتني على ذلك » .

— ولكنك لا تستطيع أخذها إلى القمر ، لأنه لا يوجد طريق إلى هناك : كما أنك لا تستطيعان الطيران :

وكانت العربة قد خرجت من بوابات (ثور ثقيلد) وسارت خفيفة في الطريق المرصوف إلى (ميلكوت) : حيث تراكمت الأتربة بعد

العاصفة : وبدأت الأشجار الشاذة على الجانبين لامعة خضراء وقد أنبشها المطر ، فقال منستر زوشستر : « انظري إلى هذا الحظ يا أدبل ، لقد كنت أعشى فيه ذات مساء منذ أسبوعين ، عندما تولاني النيب ، فجلست أستريح على السياج . وهناك أخرجت دقراً صغيراً وقلماً ثم أخذت أكتب عن حادث سيره أصابني منذ زمن بعيد : وعن رغبتني في التمتع بأيام سعيدة مقبلة .. وفيها كنت أكتب بسرعة — وعلى الرغم من الظلام — رأيت غلاوقة تقف أمامي على بعد خطوتين ! .. ونظرت إليها قرأتها ضليلة الجسم ، وقد أسدلت على وجهها محاراً .. وأشرت إليها أن تتقدم ففعلت ، ووقفت على الفور عند ركبتي .. ولم أتكلم معها قط ، ولا تحدثت هي إلى بصوت مسموع ، ولكنني قرأت كلامها في عينها كما قرأت هي حديثي في عيني .. وكان مضموون حديثنا باللغة المألوفة هو : « كانت جنية قنعت من أرض الأقزام . وكانت مهمتها أن تسعدني . ومهمتي أن أذهب بها بعيداً عن العالم الأرضي إلى مكان منعزل كالقمر مثلاً . فلو ماتت برأسها نحو النمل ، ثم حدثتني عن الكهف المرمرى والوادي البضي اللذين تستطيع الإقامة فيهما : فقلت إنني أود الذهاب ، ولكنني ذكرتها — كما ذكرتني الآن يا أدبل — بأنني لم أوت أجنحة أطير بها . فقالت الجنية :

— أوه . هذا لا يهم ! هالك تنويذة تزيل كل العقبات .

« ثم تولفتني خاتمة يديها من الذهب وقالت : « ضعه في صباية يسراك تجدن ملكاً لك وتصبح ملكاً ! وسوف تغادر الأرض وتقيم في جنتنا بعيداً عن هنا ! »

و ثم أومأت نحو القصر مرة أخرى .. وهذا الخاتم يا أديب في جيب
سترق متكرراً في صورة جنيه ذهبي ، ولكنني أعترض حالاً أن أحوله إلى
خاتم مرة أخرى ! .. فثالت الصغيرة :

— ولكن ما شأن الأتسة بذلك ؟ لا يهمني أمر الجنية .. فقد قلت
إنها هي التي ترغب في أن تأخذها إلى القصر ! .. فقال وهو يهمس عساً
يثير فضول الفتاة : « الأتسة جنية ! »

• ودعوت أديب إذ ذاك إلى ألا تعبر مزاحه أعبية ، بينما أظهرت هي
من بجانبها ذخيرة من التشكك ، ودمغت مستر روشستر بأنه « كذاب
حقيق ! » ، وأكدت له أنها لا تبالى بقصصه عن العفاريت ، وأنه لا وجود
للعفاريت الآن على الأقل ، وأنها وافقة من أنهم لا يمكن أن يظهرُوا أو أن
يعطوه خواتم ، أو يعرضوا عليه أن يعيش معهم في القصر . وكانت
الساعة التي قضيتها في (ميلكوت) مضجرة بالنسبة لي ، إذ أكرهني
مستر روشستر على أن أختار ستة (فسائين) .. وهي مهمة أكرهها ،
فتوسلت إليه أن يعفني منها ، ولكنه أقر إلا أن أنتهي من ذلك فوراً .
على أنني استطعت بتوسلات هائلة أن أنقص العدد إلى اثنين أقسم أن
يختارهما بنفسه ، وروح أوقيه في قلبي وهو يتنقل بعيني في الشاغر . إلى
أن وقع اختياره على ثوين . ولكنني وجدت لونهما زائفاً تماماً إلى درجة
لا أجزؤ معها على ارتدائهما ، وبعد عناه شديد استطعت أن أغربه على أن
يستبدل بهما ثوباً أسود من الحرير ، وآخر فضياً في لون اللؤلؤ .

وسررت عنهما غادرت متجر الملابس ثم عمل الطهورات بعد
ذلك . وكان وجهي يتضرج بحمرة الحلق والمذلة كلما ابتاع لي شيئاً ، حتى
حدثت إلى العربة واتخذت فيها مكاناً كالضمومة المتحركة ، فتذكرت
.. وسط دوامة الأحداث قائمها ومشرقها .. أنني نسيت خطاب نحلي
إلى مسز ريد واعتزاه أن يتبالي ويصلي وورثته ، وقلت أحدث نفسي :
« سيكون في ذلك عزاء لي في الواقع ، فلو أن لدى شيئاً من الاستقلال ،
لما قبلت أن يلبسني مستر روشستر كما لو كنت دمية ! » وعقدت
العزم على أن أكتب إلى (ماديرا) بحمد عودتي إلى القصر ، فأزف
نحلي خير زواجي القريب .. ولما كان من المحتمل أن يصبح مستر روشستر
ورثاً لبعض ثروتني القادمة ، فقد رأيت أن أتركه الآن ينقح على .. وهذه
الفكرة أرحمت نفسي ، وجسرت على أن أقابل نظرات سيدي وحيبي
التي كانت تبحث دائماً عن نظرائي ، في حين أنني كنت دائماً أتناهى
وجهه وعينه ! .. وابتسم فخليل لي أنها إسماعلة سلطان يلقيها على جارئة
أعقد عليها ذهبه ومجوهراته ، فشددت على يده بكل قوتي — وكانت
« دائماً تبحث عن يدي — ثم دفعها إليه وقد بدت عليها آثار ضغطني الشديد
المتنفل ، وقلت : « ليس ثمة ما يدعوك إلى النظر إلينا هكذا ، وإذا
فعلت فلن أرتدي إلى النهاية غير ثوبي الذي كنت أرتديه في (لو وود) ،
ولن أزوج إلا مرتدية هذا الثوب المصنوع من التيل الأبيض . أما أنت
ففي وسعك أن تصنع لنفسك جلباباً من الثوب الفضى وعدداً لا يحصر
له من الصنادير من الثوب الحريري الأسود ! .. فقهقه عالياً وفرك
بديه ثم صاح : « ها .. ها .. ما أجمل أن أراك وأن أحملك ! .. إنك شاذة

الأطوار : لا ذعة اللسان ، ولكنني أترك على جوارى السلطان من الحور ذوات العيون الغزلانية .

وأتلقى هذه الإشارة للشرق مرة أخرى فقلت : « أنا لا أحتمل قط أن تشيبي بحريم السلطان ، وإذا كانت لديك شهوة من هذا القبيل فلتذهب ياسيدي إلى أسواق (استامبول) فوراً ولتدفع لأحد تجار الرقيق جانياً من أموالك التي لا تدرى قيم تنفقها هنا . »

— وماذا تفعلين يا جانيت عندما أسلوم في شراء مثل هذه الفناطير للعبيدة من اللحم ، ومن هذه العيون النجل ؟

— أعد نفسي للسفر مباشرة بالحرية بين من وقعن أميرات في أغلال الرق ، بما فيهن جواريك ياسيدي ، وسأعرف كيف أصل اليهن وأشعل في صدورهن نار الثورة ، وأبث في قلوبهن روح العصيان ، فلا ظلت أن تحب نفسك رازحاً بين أيدينا في الأصفاة والأغلال ، أما أنا فإن أرضي بنحطهم فيردك حتى توقع عهداً ، يصبح أعظم عهد وقعه حاكم مسبقه من حيث الكرم والسخاء والساهل .

— يرضيني أن أكون تحت رحمتك يا حين .

— لن أعرف معنى للرحمة والشفقة مادمت تنظر إلي بهذه العين .. ومادامت هذه نظرتك ، فلا شك عندي في أن أول ما سوف تفعله بعد إطلاق سراحك هو تقض العهد الذي قطعته مكرهاً على نفسك !

— ما هذا يا حين .. أخشى أن تضطربني إلى القيام بحفلة زواج

خاصة غير تلك التي تقام عادة أمام المذابح ! .. أراك ترمين إلى شروط خاصة غريبة ، فما هي ؟

— لا أطمع في غير راحة اليك ياسيدي .. لا أريد أن ترحقني بالالتزامات المتعددة . هل تذكر ماقبلته عن (سيلين فارنس) ؟ .. عن اللقيء والكشمير وغير ذلك مما كنت تقدمه عليها ؟ لن أكون (سيلين) الثانية ، بل أفضل أن أخل معلمة لأديل وأن أكتسب بذلك مفعلي وميكني وثلاثين جنياً في السنة . وأن أشتري من هذا المربح ما أريد من ثياب . أما أنت فلا أطمع منك في غير ..

— في غير ماذا ؟

— في غير الاحترام .. وإذا منحطك احترام في مقابل احترامك لي ، فلي يبق أحدنا عديناً للآخر بشئ .

فقال مستر روشستر : ليس لك مثيل في فطنتك الباردة المعتدة . وفي كبريائك الغريزية المحضة .

وكنا قد اقترينا إذ ذاك من ثورنفلد ، فسألني : هل يسرك أن نتناول العشاء معي الليلة ؟

— كلا .. شكرآ ياسيدي .

— هل لي أن أسألك عن معنى « كلا .. شكرآ ياسيدي » ؟

— لم أتناول معك طعام العشاء من قبل ياسيدي ، ولا أرى الآن ما يدعوني إلى ذلك حتى ..

— حتى ماذا ؟ إنه يسرك دائماً أن تتلقى بالجميل ناقصة !

— حتى يصبح هذا أمراً عتوماً علي !

— اتعجبين أنني أنتم طماع كالغول ، وتخشين مشاركتي في تناول الطعام .

— لم أكون بعد فكرة ما في هذا الشأن يا سيدي ، ولكنني أريد أن أظل على طريقي المألوفة لشهر آخر .

— بل ستحزرين من عبودية تربية الأطفال في الحال .

— معذرة يا سيدي ، الواقع أنني لن أفعل ، بل سوف أستمري على ، وسأعاشي طريقك طوال المساء كما دني ، ولكي أن ترسل في طلبي في المساء إذا ما لمست في نفسك رغبة في مقابلي ، وعندئذ سأق حلالا ولكنني لن أفعل أكثر من ذلك !

— أنا في حاجة إلى التدخين أو إلى قليل من السجوط باجين للهدنة خو اطرى أمام كل هذا ، ولكنني للأسف لا أحمل معي سجائر أو سجوطاً فأصغي إلى . هذا وقتك أيها الطاغية الصغيرة ، ولكن سوف لا تنفسي فترة وجيزة حتى يكون الأمر أمري ، ومتى قبضت على زمامك سوف أشدك بسلسلة كهذه . وأشار إلى سلسلة ساعته . نعم سأبصك في صبري مخافة أن تضيق جوهري !

قال ذلك وهو يساعني على مغادرة العرية . وفيما كان منشغلا مع أدبلي ، انتهزت الفرصة وأسرعت إلى حجرتي . وعندما جاء المساء أوصل يدعوني ، وكانت قد أعددت له ما يشغله ، إذ اعتزمت ألا أقضي معه الوقت كله في حديث مقصور علينا نحن الاثنين فقط . ولقد تذكرت صوته الرخيم ، وكنت أعرف أنه يجب أن يغني ، شأنه في ذلك شأن من يجيد الغناء . ولم أكن ذات صوت جميل ، كما أنني كنت — في حكمة

القامي — لا أجد الموسيقى ، ولكنني كنت أغبط بسماع الصوت الرخيم . لذلك لم تكذب الظلمة ترعني أسرارها في ذلك المساء ، حتى نهضت من مكاني وفتحت البيانو ، ثم توسلت إليه أن يغني . فقال لي أنني ساحرة مأكرة ، ووعظي بالغناء في فرصة أخرى ، ولكنني أكدت له أن ليست هناك فرصة أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر . فسألني هل أحب صوته ؟ . وكنت غير مشغوفة بإشباع زهوه المفرط ، ولكنني وضعت لمة واحدة — تحطياً مع مقتضيات المناسبة — أن أتملي غزوه : بل أن أثيره فقلت : « أحبه جداً » . وإذا ذلك قال : « إذن عليك أن تعزفي لي مصاحبي » : فقلت : « وحناً يا سيدي .. سأحاول ! » .

وفعلاً حاولت ، ولكنه سرعان ما دفعني عن مقعدي في غير لطف أو دماثة ، واغتصب مكاني . وهذا ما كنت أرغب فيه — ثم راح يعزف نفسه ، لأنه كان ماهراً في العزف مهارته في الغناء ، بينما باشرت أنا إلى فراغ النافذة . وفيما كنت جالسة هناك أتملي على الأشجار الساكنة والمروج المظلمة — شرع يغني المقطوعة التالية بصوت رخم وانغام حلوة !

إنك أخلص الحب الذي يس سويداء القلب المتقدة .. قد مررتني في كل شربان .. وانطلق مسرعاً .. يتدفق في مجرى الحياة ! كما قدومها أمل في كل يوم .. وكان فراغها يبعث آلامي .. فإذا تمهل في خطوها .. فكأنما الخليج يجري في عروقي ويهدئ هواجسي ! حملت بأنني أعيش في نعيم مقيم .. وبمثل ما أحببت أردت أن أكون حبيباً .. وبهذا الأمل الحلو أسرعت .. في لغة الأعمى ونشوته .

ولكن الشقة بين حياتنا كانت واسعة وعرة المسالك .. خطيرة
خطورة الأمواج المريبة :: في المحيط النافر ::
وكانت هذه الشقة بيننا ، كطريق يبتغى فيها المصوم :: لا يدعون
منها بقاء ولا غاية :: فقد كانت تحول بين روحينا : القوة والشريعة
والويل واليأس !

فالتحمت الأحوال وصارت بالغمات .. وتحديث نذر السحر :: بل
حيث تكمن الأخطار والمضايقات ، ويخبى الخدر :: كنت أمضى شهراً ..
وطوت كائني في حلم .. لنوفوس قرحي المندهق في مرعة اليرق ..
حتى تجلى لناطري في أبهى صوره .. هذا القوس : وليد اليرق والمطر !
وعلى صلب الغلام المدلج :: ظل يائس السرور الرقيق .. فلم أعد
أحفل بمدى تكاثف وقام :: المصائب المتجمعة !

ولم أعد أبالي في هذه اللحظة الحلوة .. بأن كل ما اجتثته وعلته ::
لن يلبث أن يأتى على جناح الطير قوياً مسرعاً .. ينشد النار الزرع !
وإذا كانت بغضاء التعالي صرعتي :: وإلى حكمة الحق قدمتي ::
ثم يضواها الطلحة العابسة هدتني :: بالعداوة الأزلية إلى الأبد ..
فقد وضعت حبيتي بيدها الصغيرة :: في يدي بإخلاص نيل ..
وأقسمت على أن رابطة قديمة لا تنفصم :: سوف تربط بين روحينا !
وقد أقسمت حبيتي وهى تحتم حبها ببقية هو أن تعيش معى ونحو
معى .. وبذلك نعمت أخيراً بالفرح دوس المقيم :: لأن حبها لم يكن أقل
من حبى لها !

• ثم نهض وتقدم نحوى ، قرأيت وجهه منقاداً وعينه تنسجف :
وقد ارتسم الختان والوجد على كل أساريه ، فأجفلت لأول وهلة ، ثم
استجمعت قواى ووجدتني لازماً مشهد ناعم ، وعرض فراسى جرىء لم
أكن أحبه ، قلت لنفسي : يجب أن أبهى وسيلة للدفاع . وكان أن
شددت لساني : حتى إذا انثرب منى سأله في حدة وعشوة : من هى
هذه التى يعترم أن يتر وجهها الآن ؟ فقال : يا له من سؤال عجيب :
من حبيتي جين !

— حقاً ! إننى أعذره سؤالا طبعياً وضرورياً بعد أن تكلم الشاعر
عن زوجته المستقبلية التى ستحوت معه ، فإذا بعنى بهذه الفكرة الوثنية ؟
إننى لا أعترم الموت معه ، وله أن (يتأكد) من ذلك !

فقال إن كل ما كان ينشده ويعلى من أجله ، هو أن أحيا معه ،
لأن الموت لبس مما يرحى للحققة مثل ، فقلت : « بل إن الموت حق على »
كما هو حق عليه . منى خانت المنية ، ولكنى لا أتعجله ، بل أرتقيه
على مهل . .. فسألني أن أصفح عن فكرته الألمانية ، وأن أؤكد غفراني
بقيلة ، ولكنى رفضت . وسأله أن يغفنى .. وإذا ذلك ، صحت نفسي
ترمينى بالقصوة والجمود ، وتقول إن أية امرأة أخرى فى مثل هذا الموقف
كانت تدوب وجداً أمام هذا الإطلاب والإطراء ..! ورحت أؤكد
له أنني جامدة بطبعي ، وأنه سوف يغدق على هذا الطبع في كثير من
الأوقات . والواقع أنني قررت أن أبدي له - في طباعى - كثيراً من
المواقف الخشنة ، قبل أن تنتهى الأسابيع الأربعة ، كى يعرف جيداً

أية حيلة كان مقدماً عليها ، قبل أن يتم إبرامها ، لعله أن يرجع عنها .. ولكنه لما لبث أن سألني : « هل ألتزم الهدوء ، وأنكلم بالخطي والحكمة ؟ » - - - - -
 - - - - - حيناً لو أردت الهدوء .. أما من ناحية التكلم بالحكمة ، فلاني أطرى نفسي ، لأنني فعلت ذلك .

فأرغب وأزهد .. - - - - - وقلت لنفسي : « حسناً .. لك أن تتعامل وأن تبهرم كما تشاء ، ولكن هذه - - - - - كما أعلم - - - - - خير وسيلة أسلكها معك ، فلاني أحبك فوق ما يقوى لساني على التعبير ، ولكني لا أريد الفرق في بحر العواطف ، وأريد بهذا الوخز أن أبعد بك عن شفا الموة ، وأجعل بيني وبينك حداً فاصلاً يخبرني وخير لك .. - - - - - وبهذه الطريقة أخذت أثير مرجل الغضب في نفسه - - - - - في الليالي التالية - - - - - فكان يسير إلى نهاية الحجر .. - - - - - وإذا ذلك كنت أتهض وأقول بلهجي الطبيعية الزائفة بالاحترام : « طابت ليلتك ياسيدي ! » ثم أنسل من باب الحجر الجانبى وأنصرف . - - - - -
 وسلكت هذه الخطة طوال مدة التجربة وفترة الاختيار ، فوفقت فيها كل التوفيق ، وكنت أراه بغضب ويتكبر ، ولكنه كان يحد في ذلك لذة - - - - - بوجه عام - - - - - إذ كان يرضيه أن ألقى جبروته بوداعة الحمل وهدوء الخيام .. - - - - - وكنت - - - - - في حضرة الغير - - - - - أبدي كالعادة : شديدة الاحترام والهدوء . فلم أكن أعارضه أو أعاكسه إلا في أحاديث الليالي ، إذ ظل يستدعيني عندما تذك الساعة السابعة من كل مساء . ولم يكن يستغنى بالفاظ الحب والتدليل ، وإنما كان يدعوني بالدعية المتصردة والسيطرة الثغلية وغير ذلك من الألفاظ ، كما كان يدلاني بتجهيم من وجهه بدل الانقسام ، وبضغظ بدى أو يقرص ذراعى ، أو عرك أذنى ،

بدلاً من أن يطيع قبلة على وجعتي .. - - - - - والواقع أنني فضلت هذه الغاملات الخشنة على غيرها في فترة الاختيار . كما لاحظت أن مسز فيرفاكس قد ارتاحت لهذه الخطة . وأن قلقها من ناحيتي قد تبدد : فأدركت أنني أسلك سبيل الصواب .. - - - - - في حين كان مستر روشستر يؤكد لى أنني أضايقه ، وراح يتهاذى بالانقسام اللزيع في أقرب فرصة ، لسلوكي هذا ، فكنت أضحك من تهديدهاته وأقول في نفسي : « لقد أمكننى أن أوقفك الآن عند حذرك ، ولى وسعى ذلك فيما بعد ! وإذا أعجزتني هذه الحيلة عمدت إلى غيرها ! » - - - - -

ومع ذلك فإن مهنتي لم تكن سهلة ميسورة ، إذ كنت أوتر في بعض الأحيان أن أرضيه بدلاً من أن أغضبه ، فقد أصبح زوجي المرتقب أغل عندى من العالم بأجمعه ، بل صار كل أمل في الحياة !



الفصل الخامس والعشرون

• انتهى شهر مطارحة الغرام ، وكنا قد أخذنا نعد ساعاته الباقية على الأصابع . ولم نرجح ما يستلزمه اليوم السابق للرفاق من استعدادات مقدّمة . ولم يكن لنى - أنا على الأقل - ما أحله بعد أن ملأت الحفائب وحزمها وأغلقنا بالمتاع ثم وبعثنا بإخبال وصفناها في خط طويل بجانب جدار حجري الصغيرة ، لتكون في مثل تلك الساعة من اليوم التالي في طريقها إلى لندن ، وكذلك أنا بمشيئة الله ، أو على الأصح (حين روستر) التي لم أعرفها بعد !! ولم تكن البطاقات التي تحمل عنواني قد وصلت بعد على صناديق السفر الأربعة ، بل ظلت في الدرج .. وكان مستر روستر قد كتب على كل منها بخط يده : (مسز روستر يفندي .. أتلند) ، ولم أستطع أن أغرى تقصى على لصقتها أو تكليف أحد آخر بذلك ، فإن مسز روستر لم تكن موجودة بعد ، وما كانت متولدة قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي ، ومن ثم كان من الواجب أن أنظر إليها أستوثق من أنها قد أتت إلى العالم حية قبل أن أعزو إليها كل هذه الأمتعة ! كان يكتفي أن أرى أسمى صوان الملابس وقد اكتظ بتيابها لها . حلت على ثوبي الأسود - الذي كنت أفتنيه من (لو وود) وقنسوة من القش : وكان بين تلك الملابس ثوب العرس : (فستان) في لون اللؤلؤ ، وخار في كثافة البخار : ووجدتني أغلق الصوان لأحجب عن عيني هذا (الجهاز) الذي بدا لي في هذه الساعة - الساعة مساء - غريباً تنبع منه خلال عتمة الحجرة ظلال كالأشباح ! وقلت

تقضى : « سادعتك وشأنك أيها الحلم الأغر » ، فأنشيت همومة ! انتهى أصبح الرياح تهب وتعوى ، وسأخرج لأجس بها ! :

لم أكن محسومة لجراد العجلة في ترتيب المعدات اللازمة ، ولا لجراد ترقب الانقلاب الكبير - وهو الحياة الجديدة التي ستبدأ غداً - وإن كان للطرفين تصبهما بلا ريب في الضطراب والثورق التي جعلتني أسرع في تلك الساعة المتأخرة إلى الحديقة المظلمة .. ولكن كان هناك سبب ثالث أثر في تقضى تأثيراً أكبر : كانت في قلبي فكرة عجيبة فلقة ! ولم يكن أحد غيري قد علم أو رأى هذا الحادث الذي وقع في الليلة الماضية ، فقد كان مستر روستر غائياً في تلك الليلة عن القصر ، ولم يكن قد عاد بعد من ضيعة صغيرة - تألف من مزرعتين أو ثلاث - على مسافة ثلاثين ميلاً ، ذهب إليها ليسوى بنفسه بعض الأمور قبل سفره من إنجلترا .. وفيما كنت أترقب عودته لأقضى إليه بما أثقل قلبي وأسأله ليفضح القصر الذي يبلبل أفكاري ، ولكن : انتظر أيها القارئ حتى يأتي ، ومتى كشفت له عن سرى ، شاطرتنا ليلاء .. وتعال أروك الحادث !

فصلت إلى الستان ندقني إلى الاحتفاء به الرياح التي كانت تهب خفيفة طوال النهار من الجنوب دون أن تحمل فطرة واحدة من الأغطار . وبدلاً من أن تبدأ هذه الرياح مع اقتراب الليل ، زادت في حدتها ، وتضاعف زفيرها ، وظلت الأشجار تميل في اتجاه واحد - ولا تكاد تطوح بأغصانها إلى غير مرة واحدة ، بل ظلت متحنية الزموس نحو الشمال ، بينما كانت السحب لتقل متتابعة متراكضة ، كتلة إثر أخرى ،

بحیث لم تكن تبعد من السماء الزرقاء رقعة صغيرة في ذلك اليوم من أيام شهر يوليو .. ولم يكن قاي خلواً من السرور والاعتباط عندما جرى أمام الرياح لكي أسلم أفكارى المكدودة للهواء المدوي حول في الفضاء وهبطت الممر الذي تحوطه الأشجار : لأواجه حطام شجرة الهندى .. وفيما كنت أتأمل جلعدها الأسود المشقوق ، شاهدت العصور قد جف في جوفه ، والقروع مترامية على الجانبين ميتة .. وكان من المؤكد أن عواصف الشتاء القادم ستدفع ببعض بلور الشجرة إلى الأرض ، فلا تلبث أن تنمو شجرة جديدة .. على أنها بوضعها الراهن كانت حالكة ، فقلت أحاطبها وكأنها تسكني : لقد أحسنت بتناسكك ، ويبدو في برغم ما أصابك أن بك قيساً من الحياة بفضل الجذور الآمنة ، وإن كنت ستحرمين الأوراق الخضراء ، وإن ترى الطيور تعشش بينك أو تعش على متبرك .. ولكك لس في وحشة ، لأن لكل من غصونك ريفاً يواسيه في محنته !

وعندما رفعت رأسي إلى الفروع ، ظهر القمر في تلك البقعة من السماء وقد احمر قرصه وكأنه كان ياق على نظرة حائرة موحشة . ثم اختفى ثانية وراء سحابة قائمة .. وكانت الرياح قد سكنت حول (ثور نيك) بضع لحظات ، ولكنها كانت تعود بعيداً فوق الغابات والأمطار بصوت حزين مروع لم يسعني أن أصغى إليه ، فاطلقت لساق العنان مرة أخرى .. ورحلت أجوب أنواء البستان أجمع التناضح المتناقص من أشجاره فوق الخشائش الكثيفة ، ثم انهيمكت في فرد الناضج منه وحلت ما جمعت إلى غزن القصر ، وما لبثت أن مضيت إلى

المكتبة ، لأجيد النار مشتعلة في المدفأة ، فوضعت المقعد الكبير ذا المسندين بجانبها ، ثم جذبت المضادة ، وأسديت الستار ، وأعددت الشموع للإضاءة .

بيد أنني - عندما أتممت هذه الترتيبات - وجدني أزداد قلقاً بحيث لم أعد أطيق الإخلاد إلى الجلوس في هدوء ، ولا الياف في المنزل ودقت الساعة الصغيرة في الحجرة ، كما دقت الساعة العتيقة في البهو ، عشر دقائق ، فقلت لنفسي : كم يعين الليل في سيره ! سأزول إلى البوابات الخارجية : فإن القمر يظهر بين القبة والأخرى بحيث أستطيع أن أبين جزءاً كبيراً من الطريق . ولعلني أرى مستر روشتر قادماً في هذه الآونة ، فأقابه خارج القصر لأوفر على نفسي بعض لحظات من الانتظار !

وكانت الأمطار قد انفطعت ، ولكن الرياح ظلت تزار عالياً بين الأشجار الضخمة التي تظل البوابات . أما الطريق - على مدى ما بينته - فكان ساكناً موحشاً ، لا تشاهد على عينه وعلى يساره غير ظلال السحب التي كانت تجتازه من وقت إلى آخر ، كلما أطل القمر من خللا .. وفيما كنت أنطلع حوالى ، تفرقت في عيني ضعة ضيقة : ضعة اليأس ونفاد الصبر .. فخرجت وجففتها ، وأخذت أسمع في الطريق إلى أن احتجب القمر تحت ستار من السحب الكثيفة ، واشتدت ظلمة الليل ، وبدأت الأمطار تهطل ثانية والعاصفة تسوقها أمامها بقوة ومرعة . فهبطت وقد استبدت في الرماوس السوداء : ألا يئنه ياق !

ليت بأني ! :: لقد كنت أرتقب وصوله فيل موعده الشئى ، وها هو ذا الظلام قد أرغى سدوله ، فما الذى حال دون عودته ؟ :: هل أصابه حادث ؟ . وقد كثرت حادث اليلة الماضية ، فسرت به بأنه نذير لمصيبة أو كارثة : وخشيت أن تكون آمالي أكبر من أن تتحقق ، فقد حظيت أخيراً بنعيم كبير ، حتى خيل لى أن سعادتي قد بلغت ذروتها ووجب أن تأخذ في الانقراض .

وقلت لنفسى : « لن أستطيع العودة إلى المنزل ولا الجلوس بجوار المذقاة ، وهو ما يزال في الخارج في هذا الطقس القاسى .. يجب أن أنطلق لأتفاه ! » .. وسرت بسرعة ، ولكن دون أن أبعد كثيراً ، ولم أكد أقطع ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر ، ورأيت فارساً يعدو بكل قوته وإلى جانبه يجرى كلب ، فقلت : « لذهبي عنى أيتها الوسواس ! » ها هو ذا على ظهر جواده (مسرور) يتبعه كلبه (بايلوت) .. وشاهدنى .. لأن الفهر كان قد شق لنفسه ثغرة زرقاء بين السحب - فرقع قبعته ثم لوح بها حول رأسه ، فأسرعت لمقابلته :: وبعد بده وانحنى على السرج وهو يقول : « ها أنتذى ترى أن لا غنى لك عنى ! .. هذا واضح ! ضعى قلحك الصغيرة على طرف حذائك وأعطينى يديك .. اصعدى ! » : فأطلعت وقد استخفى الفهر ، ثم وثبت إلى ظهر الجواد أمامه : فحياى بقبلة حارة وبيضع كلمات تم عن فوزه المزمع ، احتملتها قلب ما استطعت ، إلى أن سألنى وسط مظاهر فرحته : « ماذا حدث يا جين حتى تأتى لى بالى في مثل هذه الساعة ؟ على جرى شئى ؟ » .. فقلت : « كلا ، وإنما خيل لى أنك لن

تأتى أبداً ، فلم أفكر على احتمال انتظارك في المنزل وخاصة مع هذا المطر وهذه الرياح ! ! .

- مطر ورياح .. ؟ أم ، حقا ؟ .. أجل . إنك تقطرين ماء كحورية البحر . لى عبادنى حولك .. ولكنى أراك محبوبة يا جين وقد التهب خدك وبداك ، وكذلك أسالك مرة أخرى : « ماذا حدث ؟ » فقلت : « لا شئى الآن ، فليست خائفة أو متعبة ! » .

- إذن فقد كنت كذلك ؟

- تقريباً .. ولكنى سأقص عليك الأمر شيئاً فشيئاً يا سيدى . وأظنك ستفهمك من أسباب ما يؤلمنى !

سأضحك منك من كل قلبي ، بعد أن ينشئ الغد بخير ، أما قبل ذلك فلا أجرو ، لأن مكافأتى لم تقرر بعد .. أنت ، أبت التى ظلمت طوال الشهر الماضى تترقبين من يدي مثل السمكة ، وتحزبنى بشوكة كالورد ، فلا أضع يدي على جزء من جسمك حتى تمنعني لمرك ! أما الآن فيخيل لى أننى أحل بين يدي خلا شارداً من الحملان الوادعة : هل غادرت حظيرتك لتقابلى راعيك يا جين ؟

- كنت مشوقة إليك ، فلا تباهى ولا تردى ! : ها قد بلغنا (ثور نغليد) قدعنى أعبط .

• ونزلت على المسر المرسوف . وعندما تناول منه جون عشاء جواده ، تبعنى إلى الباب وأمرنى بأن أسرع فأرتدى ملابس جافة ، ثم

أعود إليه في المكتبة . وقبل أن أبلغ الدرج ، استمعتني وطلب مني ألا أبطل في العسوة . ولم أبطل فقد رجعت بعد خمس دقائق لأجده يتناول العشاء . فقال : « اجلسي واحتملي رفيقي يا جين . شكراً لله على أن هذه ستكون الأكلة الأخيرة لك في (ثورنفلد) لمدة طويلة » . فجلست بالقرب منه وأخبرته بأنني لا أستطيع أن أتناول طعاماً . فقال : « وهل ذلك لأنك مأخوذة بما أمامك من أمل في الرحيل يا جين ؟ » . وهل التكثير في السفر إلى لندن هو الذي انتزع منك شهوة الأكل ؟

— إن أناال ليست واضحة لعيني الليلة ، ولا أكاد أدرى ماذا يدور في رأسي من أفكار ، إذ يتبدل لي أن كل ما في هذه الحياة باطل زائف .

— ما عدائي : أنا مادي ملموس .. المسبئي يبدك !

— بل أنت أقرب ما في الحياة كلها للوحم يا سيدتي .. أنت مجرد حلم !

فلوح بيده فربه عيني وقال : « أهذه حلم ؟ » .. وأقصيت يده عن وجهي وقلت : « إنما حلم يرغم أنني مستها .. هل فرغت من عشائك يا سيدتي ؟ » .. وإذا أجاب : « نعم يا جين » . دقت الجرس وأمرت بعمل الصينية .. حتى إذا عدنا وحيدين ، حركت ثيران المدفأة ، ثم تناولت مقعداً خفيضاً ، وجلست عند ركنية سيدتي ، ثم قلت : « كاد الليل ينتصف ! » .. فقال : « نعم ، ولكن تذكرى يا جين أنك

وعدتني بأن نظل ساهرة مع طوال الليلة السابقة للزفاف .. فقلت : « فعلاً ، وسأني بوعدي لساعة أو اثنتين على الأقل ، إذ لا رغبة لي الآن في النوم » .

— هل فرغت من جميع ترتيباتك ؟

— جميعها يا سيدتي .

— وأنا الآخر أعددت كل شيء ، وسنقادر (ثورنفلد) غداً بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة ..

— حسناً يا سيدتي .

— يا هاس من ابتسامة عجيبة هذه التي اقترنت بقولك « حسناً » ، وبالبسمة الحمراء اللامعة التي تخضب خديك ! . وما هذا البريق الغريب الذي تألق به عيناك ؟ هل أنت بخير ؟

— أظنني كذلك .

— نظنني ! ماذا جرى ! خيريني ، بماذا تشعرين ؟

— لا أستطيع يا سيدتي . ليست هناك كلمات تستطيع التعبير لك عما أشعر به . بودي ألا تنتهي هذه الساعة ، فمن يدري ماذا يأتي به القدر في الساعة التالية ؟

— هذه وساوس يا جين ، فقد نال منك الإفراط في الانفعالات والمشاعب .

— أشعر يا سيدتي بأنك هادئ وسعيد ؟

— هادئ ؟ .. كلا ، ولكنني سعيد .. كل السعادة ؟

وتطلعت إلى وجهه لأقرأ فيه آيات النعم التي كانت تنعكس عليه فوجدته حاراً متورداً .

ثم قال : « انجيني تقتك يا جين ، وأقصي عن رأسك هذا العبد الذي يرققه بأن تقضي إلى بما يتعبك . ماذا تخشين ؟ ألا أكون زوجاً طيباً ؟ » قلت : « هذه أبعد فكرة عن رأسي ! » فعاد يسألني : « إذن ، فهل تخشين الدنيا الجديدة التي أنت مقبلة عليها ؟ أو تخشين الحياة الجديدة التي تنتقلين إليها ؟ » قلت : « كلا ؟ » وعندك هتف : « إنك تحيريني يا جين ! إن منظرِكَ ولهجتك يثان عن حزن واضح يريكني ويؤلمني ، فأقصي ! »

— إذن أصغ إلى ياسيدي .. أما كنت بعيداً عن القصر في الليلة الماضية ؟

— نعم كنت .. وقد صحتك منذ هنية تشيرين إلى أن أمراً وقع في غيابي ، وربما كان أمراً لا أهمية له ، ولكنه — بالاختصار — أزعجك فأخبريني به ، هل قالت لك مسز فيرفاكس شيئاً ؟ بم سمعت الخدم يتحدثون عن شيء ؟ .. أو هل جرح أحد كرامتك المزهقة ؟

فأجبت قائلة : « كلا ياسيدي .. وفي تلك اللحظة ، شرعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة ، فانتظرت حتى فرغت من دقائقها ثم مضيت أقول : « كنت منهمكة طوال نهار أمس في عمل متصل ، ولكنني كنت غاية في السعادة ، لأنني لم أكن أخشى ذنباي الجديدة أو غيرها ، بل كنت أشعر بمنتهى الحناء في مجرد الأمل في أن أحيا معك

لأنني أحبك ! .. كلا ياسيدي ، لا تغازلني الآن ، بل دعني أنكلم دون مقاطعة .. لقد أحسنت الظن في أمسي بالأقدار ، واعتضدت أن الظروف تحالفني وتحالفك . وكان يوماً مادناً جيلاً — إن كنت تذكر — مما أقصى عن رأسي كل خوف عليك أو على سلامتك في رحلتك ، فأخذت أتمشى قليلاً في الدرب المصروف بالحديقة بعد أن تناولت الشاي ، وأنا أفكر فيك وأراك في خيالي قريباً مني بحيث لا أفقد وجودك فعلاً بجانبي .. ثم فكرت في الحياة المائلة أمامي .. حياتك ياسيدي ! .. إنها دنيا تنوق دنياي في اتساعها وإثارتها ، وفي عمق غورها ، حتى لتبدو مسالكها الضحلة أعمق كثيراً من أغوار البحر الذي تصب فيه الأنهار . وإنني لأعجب كيف يشبه كتاب الأخلاق علمنا بالبيداء الموحشة ، في حين أنني أراه في عيني وردة مفتحة .. ثم غربت للشمس فيرد الهواء وتلبدت السياه ، وعندئذ أمرعت إلى القصر وإذا بصوفي تستوقفني لتدعوني لمشاهدة ثوب الرفاف .. ورأيت تحفه في الصندوق هديتك .. هذا الخمار الذي دفعك تيلدريك الشديد إلى أن ترسل في طلبه من لندن ، لأنك — فيما يبدو — قررت أن تغريبي بهذه الهدية الغالية بعد أن رفضت قبول الهبهرات ! .. وفيما كنت أبسط هذا الخمار أمامي ، ابتسمت لأنني أزمعت أن أداعبك من ناحية ذوقك الارستقراطي وفي محاولتك إظهار عروسك الفخيرة بمظهر النبيلات .. فكرت في أن أضع على رأسي القماش البسيط غير المزركش الذي كنت قد أعدته لنفسى كفتاة متواضعة الأصل ، ثم أذهب إليك وأسألك :

« ألا يكن ذلك لامرأة لا تستطيع أن تأتي لزوجها بزوة أو جمال

أو جاء ؟ . وتصورت منظرك إذ ذاك وسمعت ردودك الصارمة ، وتنصلت في كبرياء من أية حاجة بك إلى زيادة ثروتك أو رفع مستواك بالزواج من فتاة موسرة أو كريمة الحسب والنسب .



● وهنا قاطعتي مسرر روشتر قائلاً : « كيف تقرئين أفكارى يا ساحرة ؟ .. ولكن ماذا وجدت في النهار غير نظريزه ؟ ترى هل عثرت على سم أو خنجر حتى تتجلى عليك أمارات الحزن والألمى هكذا ؟ .. قلت : « كلا ياسيدى ، فإني لم أجده فوق رقة الصناعة وجمالها ، سوى ما يرم على كبرياء آل روشتر .. وهذا شيء اعتدته ولم يعد يروحنى ، ولكن ياسيدى .. عندما اشتدت الظلمة ، هبت الرياح .. ولكنها لم تكن كما هي الآن ، صاحبة مهتاجة ، وإنما كانت (تنوح وتئن) بشكل يثير القزع ، فتمنيت أن تكون بالمتزل : وجئت إلى هذه الحجرة ، فلما وجدت مقعدك خالياً ، انتابني رجفة .. وما ليئت أن ألويت إلى فراشى ، ولكننى لم أستطع أن أتحضر عيني ، إذ تخلفنى قلق غريب ! .. وكانت الرياح ما تزال تعصف بصوت غيل إلى أنه صراخ مكنوم حزين ، سواء في القصر أو خارجه . وأخيراً تبينت أن الصوت كان عواء كلب بعيد . وما ليئت أن انتطع فاستراحت نفسى ! ولما استغرقت في النوم ، استمرلت في أحلام دارت حول الليلة الرهبة ، ثم ما ليئت أن انتقلت إلى التفكير فيك ، والرغبة في أن أكون معك ، وأحسست إحساساً عجيباً بأن هناك شيئاً ما يحول بيننا .. وكنت

في المرحلة الأولى من نوى أسير في طريق مجهول ، كثير الشيا والعتاريح تحيط به بقاع موحشة ، وتساقط عليه أمطار غزيرة .. وكنت أحمل بين ذراعى طفلاً صغيراً .. جد ضليل - لا يقوى على المشى ، وقد أخذ يرتجف مولولاً بصوت حزين كان يخرق أذنى . وخلتك ياسيدى في الطريق أماً ، فاستجملت قواى لألحق بك ، وبذلت الجهد تلو الجهد كي أتأدبك وأصرع إليك أن تقف ، ولكن حركاتى كانت مقيدة .. وثلاثى صوتى بينما أحسست بأنك تمنعنى في الابتعاد عنى في كل لحظة !

— وهل ما زالت هذه الأحلام تضايقت وتضل عليك يا جين ، وأنا على مقربة منك ؟ .. بالك من مخلوقة عصية صغيرة ! .. أنسى هذا ألم الموهوم ولا تفكرى في غير السعادة الحقيقية ! .. تقولين إنك تحبيننى يا جين .. نعم لن أنسى ذلك ولا يسعك إنكاره ، لأن هذه الكلمات لم تحت على شفتيك ، ولكننى سمعتها واضحة ، ناعمة ، في حلالة الموسيقى ، عندما قلت : « أعتقد أنه شيء رائع أن أتمنى الحياة معك يا إدوارد لأتبنى أحبك ! » .. أتمنيننى يا جين ؟ .. أعيدى ذلك على مسامى ؟

— أحبك ياسيدى .. أحبك من كل قلبي .

فقال : « حسناً .. واستطرد بعد صمت دام لحظات : « هذا غريب ، ولكن الجملة اخترقت صدرى في لإلام . لماذا ؟ .. لأنك — فيما أعتقد — قلتها بصوت حاد ، وفي تخميس المتعبد ، ولأن فى

نظرتك الآن إلى روح الصديق والحق والتفاني : وهو كثير جداً ، حتى أنني لأخجل أن روحاً يحاني لا إنساناً ، فانظري إلى نظرة غيبشة يا جين ، وارسمي على وجهك ابتسامات قاسية حية مثيرة ، وقولي إنك تكرهيني .. عاكسيني .. كلدريني ! .. افعلي كل شيء يحركني ويثيرني ، فإني أود أن تغيبيني وتثيريني على أن تعاقب نفسي بالحزن والأسى !

— سأرضيك بما شئت من معاكسة وإثارة بعد أن أفرغ من قصتي ، فاصمعي إلى النهاية .

— ظففتك قد فرغت من قصتك كلها يا جين ، وحسبت أنني انتهيت إلى مبعث الحزن في أحلامك !

وإذا هرزت رأسي ، قال متسائلاً : « ماذا ؟ .. أألدبك المزيد ؟ .. ولكنني لن أعتقد أنه على شيء من الأهمية .. وأنتهك مقدماً إلى أنني لن أصدق منه شيئاً .. استعري ! .. وأدهشني قلقه للأوضاع ، وما بدا عليه من نقاد الصبر ، ولكنني استرسلت أقول : « رأيت حلماً آخر يا سيدتي .. شاهدت قصر (تورنيلد) طلالاً موحشة يقع فيها اليوم والخفاش . ولم يبق من واجهته الفخمة سوى جدار واحد عال متصدع ، فالتحلت أنجول — في ليلة مقمرة — وسط الحشائش التي نبتت بداخله ، وإذا بقدرتي تعمر أن في حافة رخامية نائمة : جزء من أطلال سياج .. وكنت أتلعب بشالي ، وأحمل الطفل المجهول بين ذراعي ، فلم ألقه رغم تعبي وثقله الذي كان يعرقل سيرى : وما لبثت أن

صمت جواً يركض من بعيد ، فأيقنت أنك أنت القادم ، لأنك كنت قد رحلت منذ زمن بعيد ، فأسرعت أنسلق الجدار بأمل أن أهلك من فته ، وإذا بالأحجار تنهار تحت قدمي ، وإذا بالأغصان تلوى بعد أن تعلقت بها . ولت الطفل ذراعيه حول عنقي حتى كاد يخنقني ، ولكنني وصلت في النهاية إلى القمة ، ورأيتك أشبه بنقطة بيضاء تزداد تضاللاً في كل لحظة .. ثم اشتدت الرياح ، فلم أعد أستطيع الوقوف ، وجلست فوق قمة الجدار : ورحت أهدئ من روع الطفل الخائف في حجرى ، وإذا بك تدور حول منعرج في الطريق .. واتحدت إلى الإمام لألقى عليك نظرة أخيرة ، ففقدت توازني وسقطت . ثم صوّت من نوى ! ..

— ولكن الحلم قد انقضى وتبدل !

— بل هذه هي المقدمة فقط يا سيدتي ، وستأتي القصة بعد ذلك : فما أن استيقظت حتى بهر عيني نور ، لخليل إلى أن النهار قد أقبل .. ولكنني كنت غططته ، إذ لم يكن النور سوى طب شجرة .. وحدثت أن (صوفي) وفدت على العرفة .. وكانت ثمة شجرة على مائدة الزينة ، كما كان باب الخزانة — التي علفت فيها ثوب الزفاف والثمار قبل أن آوى إلى فراشي — مفتوحاً .. وصمتت خفياً بداخلها ، فقلت : « ماذا تفعلين يا صوفي ؟ .. ولم يجبني أحد ، وإنما مرق شخص من الخزانة . فتناول الضوء ورفعته عالياً ، وراح يتأمل الثياب المعلقة .. وصرخت مرة أخرى : « صوفي ! .. صوفي ! .. ولكن الشخص ظل صامتاً .. وكنت قد استويت جالسة في سريري ، فلت إلى الأمام .. ودهشت في البداية ، ثم استولت على الخيرة والخوف .. ثم تجمد الدم في عروقي .

لم يكن الشخص (صوفى) .. ولا (لياها) .. ولا (مسز فيرفاكس) ..
لا ، لم يكن أيًا منهن ، ولأنى لتأكدة من هذا .. ثم ، وفوق كل هذا ،
لم يكن كذلك تلك المرأة الغريبة الأطوار .. جريس بول ١ :
إذن ، فمن كان ذلك الشخص ؟ .. أكان إنساناً أم شبحاً ؟؟ ..
رجلاً أم امرأة ؟ .. وما سر وجوده في مخدع جين إير ؟ .. بل ما هي
الأسرار والألغاز التي كانت تكتنف ردهات قصر (ثورنفيلد)
وأبيه ؟ ! وأخيراً هل تزوج روشستر من جين إير وتمت سعادتها ،
أم أن الأحداث فرقت بينهما ؟ ١٩
اقرأ التخصيلات الشائقة لتلك الأحداث كلها في الجزء الثالث
والأخير من هذه القصة الخالدة .



www.liilas.com/vb3

^RAYAHEEN^

مع تحيات منتدى ليالاس